

الجمهورية العربية السورية

جامعة دمشق

كلية الآداب ـ قسم التاريخ

النشاط البحري لدولة المماليك في البحر المتوسط

(٦٩٠-٩٢٣هـ / ١٢٩١-١٥١٧م)

رسالة أعدت لنيل درجة الماجستير في تاريخ العرب والإسلام

إعداد الطالب

محمود خالد السخني

إشراف الدكتور

عمار محمد النهار

العام الدراسي

٢٠١١/٢٠١٢م

الإهداء

إلى القامة الشامخة التي زرعت في نفسي الإخلاص والوفاء وحب العلم والعطاء . . . والدي الغالي حفظه الله .

إلى نبع الحنان الذي لا ينضب إلى التي علمتني معنى الصبر والإيمان . . . والدتي الغالية حفظها الله .

إلى من شاركني لحظات الفرح والحزن . . . أخواتي وأخواي ولا سيما شقيقتي الغالية فاطمة التي قدمت لي الكثير من وقتها في القراءة والكتابة ووقفت إلى جانبي في جميع مراحل إعداد هذه الرسالة لم أنسى فضلها ما حييت .

وإليكم أهدي هذه الرسالة .

بطاقة شكر وعرفان بالجميل

إلى الدكتور عمار محمد النهار الذي تكرم بقبول الإشراف على رسالتي هذه، والذي كان مثلاً للأستاذ الكريم والأخ الحنون بنصائحه وأرشاده لي، أقدم إليك شكري وامتناني عربون محبة ووفاء .

وإلى الأستاذ الدكتور القدير سهيل زكار، الذي بارك لي موضوع الرسالة، وقدم لي الكثير من التوجيهات العلمية التي أفادت البحث كثيراً فله مني جزيل الشكر .

وإلى جميع أساتذتي في المدرسة النموذجية لتأهيل المكفوفين في مدينة حلب الذين قدموا لي الكثير من العطف والحنان والرعاية والتوجيه والتشجيع عندما كنت طالباً فيها فلهم مني جزيل الشكر والامتنان .

كما أتوجه بالشكر لكل شخص قدم لي المساعدة، في إنجاز هذه الرسالة، وأخص بالشكر شقيقتي فاطمة التي كانت خير عون لي في إتمام هذا البحث .

الفهرس العام

المقدمة :

بعد تدهور الأسرة الأيوبية في مصر وبلاد الشام عقب وفاة صلاح الدين الأيوبي ٥٨٩هـ/١١٩٣م، قيض الله لديار المسلمين حكاماً على دراية كبيرة بأمور السياسة وشؤون الإدارة وفنون الحرب، وهم المماليك الذين كانوا رقيقاً لدى الأيوبيين، ففي أخطر الظروف التي ألمت بديار العرب المسلمين حملوا راية الجهاد من أسيادهم ليسطروا بها أعظم ملاحم الانتصارات العربية الإسلامية في القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي، فقد استطاعت هذه الفئة الناشئة أن تهزم جيوش الصليبيين (الفرنجة) في الحملة الصليبية السابعة على مصر ٦٤٨هـ/١٢٥٠م، وترد جحافل المغول في معركة عين جالوت ٦٥٨هـ/١٢٦٠م، وبعد أن ثبّت المماليك أقدامهم في مصر وبلاد الشام قاموا بأعمال حربية ضخمة استطاعوا من خلالها تصفية الوجود الصليبي (الفرنجي) من ديار العرب المسلمين.

وعندما حاولت أوربا والبابوية تجديد الحروب الصليبية (الفرنجية) بالاعتداء على سواحل مصر وبلاد الشام على أمل أن يؤدي ذلك إلى إعادة احتلال بيت المقدس، هبّ المماليك يدافعون عن أمتهم الإسلامية، ومع ازدياد هذه الاعتداءات حدة اتخذ المماليك بعداً استراتيجياً حيث قاموا .بمشاريع حربية ضخمة على الصعيد البحري، وهي غزو جزيرتي قبرص ورودس والقضاء على تجمعات القرصنة البحرية التي ظهرت في البحر الأبيض المتوسط، فحالفهم الحظ أحياناً وعاندهم حيناً آخر، عندها أسرعت بعض الممالك والدويلات الأوربية إلى كسب ودّ سلاطين المماليك وأقامت علاقات تجارية معهم، ونتيجة هذه الأعمال العسكرية البحرية أصبحت جزيرة قبرص تابعة للسلطنة المملوكية وتدور في فلكها حتى سقوط المماليك على يد السلطنة العثمانية سنة ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م.

ومن جهة أخرى أصبحت مصر في عهد السلطنة المملوكية قبلة العلماء لما بذله السلاطين من جهود جبارة في بناء المدارس والمكتبات، وكذلك ازدهر الاقتصاد في مصر وبلاد الشام في عهد السلطنة المملوكية بسبب الموقع الجغرافي والتدابير الأمنية التي سادت البر والبحر، مما جعل طرقها البرية والبحرية معبراً للقوافل التجارية الآتية من الشرق إلى الغرب وبالعكس، الأمر الذي يفسر تلك الثروة الواسعة التي تمتع بها المماليك وذلك الثراء الضخم وما نتج عنه من مظاهر البذخ والترف والسعة والأبهة.

ـــ أسباب اختيار الموضوع وأهميته :

إن من الأسباب التي دفعتني لاختيار هذا الموضوع ما يلي:

١- إن كتب التاريخ حافلة بسرد المعارك العسكرية المملوكية الكبرى وتفصيلها وتحليلها، لكن الحديث عن البحرية المملوكية في حوض المتوسط كموضوع مستقل مترابط لم يعالج بشكل كامل، لذا كان من الواجب تقديم دراسة تتناول هذا الموضوع بالذات لإبراز صفحات مشرقة من تاريخ البحرية المملوكية.

٢- الوقوف على واقع البحرية المملوكية في حوض المتوسط من خلال الاطلاع على المصادر والمراجع المختلفة وجمع المعلومات المبعثرة.

٣- دراسة شيء جديد لواقع البحرية المملوكية في حوض المتوسط، لم تتناوله الدراسات السابقة.

٤- دراسة أحوال موانئ البحر المتوسط في مصر وبلاد الشام بعد هزيمة الحملة الصليبية (الفرنجية) السابعة في مصر وتحرير سواحل بلاد الشام من أيدي الصليبيين.

٥- حاجة المكتبات العربية إلى بحث يحتوي في مضمونه دراسة تفصيلية لواقع البحرية المملوكية في حوض المتوسط وما حققته من إنجازات حربية على الصعيد العربي الإسلامي.

٦- إن الدراسات التي اطلعت عليها والمتوافرة بين يدي دفعتني إلى التعمق فيها لدراسة هذه الحقبة الزمنية الهامة من تاريخ المماليك على الصعيد البحري.

وتأتي أهمية هذه الدراسة من أهمية الفترة الزمنية التي تناولتها، ومن واقع البحرية المملوكية في المتوسط والتي هي جزء من تاريخ البحرية الإسلامية، بالإضافة إلى طبيعة العلاقات بين الشرق والغرب أثناء وجود السلطنة المملوكية والتي اتصفت بالتعقيد والتشابك وخصوصاً من الناحية الحربية، عندها لعبت الأساطيل المملوكية في البحر المتوسط دوراً هاماً في حسم كثير من المواقف الخطيرة لكون الأسطول يعد أحد جناحي الجيش، وكما قال الرسول ﷺ: (**غزوة في البحر خير من عشر غزوات في البر**) وكما قال أيضاً: (**شهداء البحر أفضل عند الله من شهداء البر**)[1].

وقد قدّم هذا البحث عدة استفسارات حول عدة نقاط أهمها :

١- لماذا كانت دولة المماليك دولة برية على الصعيد العسكري على الرغم من امتلاكها موانئ هامة في حوض البحر الأبيض المتوسط وسيطرتها على مواد أولية تمكنها من بناء أسطول حربي ضخم ؟

٢- ما الأسباب الحقيقية التي دفعت المماليك إلى فتح جزيرة قبرص ومحاولة فتح جزيرة رودس؟ وهل كانت هذه الأسباب أسباباً سياسية أم تجارية أم دينية أم كلها أو بعضها ؟

٣- ما مصير المناطق التي تم السيطرة عليها عسكرياً على الصعيد البحري من قبل دولة المماليك؟

- ويهدف هذا البحث إلى ما يلي:

١- توضيح واقع البحر الأبيض المتوسط وما يتمتع به من موقع جغرافي فريد، جعله معبراً لانطلاق الاعتداءات الصليبية (الفرنجية) المتكررة على السواحل العربية الإسلامية.

٢- بيان أهمية النشاط العسكري في البحر، وإظهار بعض حسناته وميزاته من خلال الرجوع إلى بعض المصادر العربية الإسلامية التي أضاءت وأظهرت أهمية النشاط البحري وفضائله على غيره من أصناف النشاط وألوانه.

---

[1] - اليوسف (مسلم): الجهاد البحري أهميته وفضله وبعض مميزاته، ص٤-٧.

٣- إبراز العوامل التي ساهمت ودفعت السلطنة المملوكية إلى بناء أسطول حربي في المتوسط، والتعريف بالسلاطين والأمراء الذين ساهموا في تطوير البحرية المملوكية والإشارة إلى الوقائع البحرية التي جرت في الحقبة المملوكية.

٤- بيان أن ركوب المماليك للبحر المتوسط منذ أن تمكنوا من تحرير سواحله من الصليبيين وطردهم من ديار العرب المسلمين كان وفق خطوات منظمة ومدروسة بعيدة عن الارتجال.

٥- إبراز دور البحرية المملوكية في حوض المتوسط وقدرتها على فتح جزيرة قبرص والسيطرة عليها على الرغم من امتلاك القبارصة لأسطول حربي بحري لا يستهان به، استطاعوا من خلاله شن العديد من الغارات المدمرة على السواحل الإسلامية في مصر وبلاد الشام وآسيا الصغرى.

٦- توضيح مسألة هامة هي أن سيطرة المماليك على موانئ واسعة في المتوسط ساهمت بشكل كبير في تطوير البحرية المملوكية وذلك مع وجود عناصر عربية إسلامية ممتازة من الرجال البحريين الذين قادوا عمليات بحرية ببراعة ومهارة أفضت إلى النصر المبين.

٧- إظهار صورة التعاون المشترك بين الأساطيل العربية الإسلامية في البحر المتوسط، التي ساعدت بشكل كبير في تشكيل قوة برية مملوكية ردت الاعتداءات على سواحلها وغزو جزيرتي قبرص ورودس.

- منهج البحث:

تناول هذا البحث دراسة نشاط دولة المماليك البحري في حوض المتوسط، من خلال جمع المعلومات العلمية من المصادر والمراجع، والمقارنة بينها، ومناقشة اختلاف الروايات حول حادثة ما، والعمل على تحليلها، للوصول إلى الحقيقة التاريخية.

كما تم اتباع الطريقة الإنشائية من خلال استخدام لغة عربية فصحى واضحة سهلة من دون أن يكون له أي تأثير على الحقائق التاريخية، وكذلك التعريف بعدد من المواقع الجغرافية والأمكنة الهامة، والشخصيات الواردة أسماؤها في هذا البحث.

أما الصعوبات التي واجهت الباحث فهي ما يلي:

١- ندرة المادة العلمية في المصادر التي اعتمدت عليها في دراستي لهذا البحث، فقد تناولت معظم هذه المصادر واقع السلطنة المملوكية في النواحي الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والعسكرية ولكن على الصعيد البري، وهذا ما تسببّ في عناء كبير، لهذا تم استقراء ما بين السطور للحصول على المعلومات المجزأة وصياغتها في قالب تاريخي وتعديمها بشكل علمي مدروس.

٢- عدم اهتمام المؤرخين المعاصرين بواقع البحرية المملوكية في حوض المتوسط، وما حققته من إنجازات عظيمة على الصعيد العربي الإسلامي، فقد تركزت معظم كتاباتهم على دراسة العلاقات الاقتصادية والسياسية بين السلطنة المملوكية مع الدول المختلفة التي عاصرتها، وكذلك دراسة المنشآت العمرانية والحياة العلمية لوجود عدد كبير من العلماء والمدارس في ذلك العصر.

٣- عدم وجود مكتبات مجهزة بأدوات ووسائل تساعد المكفوفين على إعداد أبحاثهم ورسائلهم في الدراسات العليا بسهولة ويسر، وهذا ما استهلك من وقتي الكثير لإعداد هذه الرسالة بطريقة علمية، وقد ذلّلَ جزءاً كبيراً من هذه الصعوبة المساعدة الكبيرة في القراءة والكتابة التي قدمتها شقيقتي والتي وقفت إلى جانبي في جميع مراحل إعداد هذا البحث، جزاها الله عني كل خير.

وقد تم تقسيم البحث إلى ثلاثة فصول سُبق **بمقدمة** تضمنت تمهيداً للبحث اشتمل على أهمية الموضوع والأسباب الموجبة لاختياره، وبعد هذه المقدمة جاء الفصل الأول حاملاً عنوان **(بناء الأسطول المملوكي وأحوال موانئ مصر وبلاد الشام)**، وقد تضمن هذا الفصل دراسة الناحية الجغرافية والتاريخية للبحر المتوسط، كذلك أوضاع البحرية العربية الإسلامية في البحر المتوسط منذ العصر الراشدي حتى نهاية الدولة الأيوبية، واهتمام سلاطين المماليك بالأسطول والبحرية، وتم الحديث فيه عن صناعة السفن، وأهم أجزائها، وتجهيزها، وأنواعها في العصر المملوكي، وعن

أسلوب الحرب البحرية والتشكيل الحربي للأسطول، وحفظ الثغور، وتم التعرض بشيء من التفصيل لأهم الموانئ البحرية على المتوسط في مصر وبلاد الشام.

أما **الفصل الثاني** فقد جاء بعنوان: (**الصراع الحربي البحري بين المماليك والصليبيين في الحوض الشرقي للمتوسط منذ تحرير عكا حتى فتح جزيرة قبرص**)، وتضمن الحديث عن تحرير مدينة عكا آخر معاقل الصليبيين في بلاد الشام في عهد السلطان الأشرف خليل، وكذلك عن الأساليب الصليبية البحرية في مواجهة الدولة المملوكية بعد تحرير عكا، وتضمن أيضاً شرحاً للاعتداءات الصليبية على سواحل السلطنة المملوكية منذ تحرير عكا حتى اجتياح القبارصة لمدينة الإسكندرية، وكيفية اجتياح القبارصة مدينة الإسكندرية، وما ترتب عليه من نتائج، وكيف استمرت الاعتداءات الصليبية بعد حملة القبارصة على الإسكندرية ورد فعل المماليك عليها.

أما **الفصل الثالث** وهو الأخير من هذا البحث فحمل عنوان: (**نشاط دولة المماليك الحربي في حوض المتوسط ضد جزيرتي قبرص ورودس**)، وهو من أهم فصول هذه الرسالة، تم الحديث فيه بدايةً عن نشاط دولة المماليك الحربي ضد جزيرة قبرص، مع بيان الواقع الجغرافي والتاريخي لجزيرة قبرص حتى الفتح المملوكي لها، متضمناً الأسباب التي دفعت السلطنة المملوكية إلى فتح جزيرة قبرص، وعن سير الحملات البحرية إليها، وما ترتب عليها من نتائج، بعدها تم الحديث عن نشاط دولة المماليك الحربي ضد جزيرة رودس، والأسباب التي حملت المماليك إلى غزوها، وبعد ذلك جاءت دراسة سير الحملات البحرية المملوكية إلى جزيرة رودس، وما ترتب عليها من نتائج.

ختاماً أضع جهدي المتواضع بين أيديكم وأرجو أن يكون قد وصل إلى درجة الرضا والقبول، ولا أدعي بأنني قدمت بحثاً يتميز بالدقة الكاملة وأنه لم يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا رصدها في واقع البحرية المملوكية في حوض المتوسط. وحسبي أني بذلت جهداً فإن وفقت فهذا توفيق من الله، وإن لم أوفق فعزائي أنني حاولت.   والله الموفق

ـــ التعريف بأهم مصادر ومراجع البحث :

يعد العصر المملوكي من أكثر العصور العربية الإسلامية غنى بالمؤلفات، وتم الاستناد في إعداد هذه الرسالة إلى مصادر ومراجع مهمة ومتنوعة، سيتم التعريف بأهمها معتمداً في ترتيبها على حروف المعجم :

أ- **المصادر :**

- **ابن الأثير (٥٥٥هـ- ٦٣٠هـ/ ١١٦٠م - ١٢٣٢م):**

يأتي على رأس المصادر العربية الإسلامية ما كتبه عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد الشيباني المعروف بابن الأثير، ولد في جزيرة ابن عمر من أعمال الموصل ونشأ في أسرة عملت في خدمة الملوك، وعاش في البلاط الزنكي، تنقل بين المدن الإسلامية الكبرى مثل بغداد ودمشق والقدس، فكان لنشأته وتنقلاته الأثر العلمي الكبير في كتاباته، ويعد كتابه المشهور (**الكامل في التاريخ**) من أهم مصادر التاريخ الإسلامي وهو ذو قيمة عظيمة وكتابه **الكامل** حولي مؤلف من عدة أجزاء بدأها منذ أول خليفة حتى الحقبة التي سبقت وفاته[1]، وكان هذا الكتاب خير عون لي عند دراستي لأوضاع البحرية الإسلامية منذ العصر الراشدي مروراً بالعصر الأموي والعباسي وصولاً إلى العصر الأيوبي.

- **ابن الصيرفي الجوهري (٨١٩هـ - ٩٠٠هـ/١٤١٦-١٤٩٥م):**

هو علي بن داوود بن إبراهيم الإسرائيلي المصري، ورث لقبه الصيرفي من أبيه الذي كان صيرفي الدولة، وديوان المفردة في فترات متقطعة أيام مؤيد شيخ وبرسباي وجقمق، مؤرخ عاش في عصر كثر فيه المؤرخون كالمقريزي وابن حجر وابن تغري بردي، درس على كبر

---

[1] – عبد الله (يسري عبد الغني): معجم المؤرخين المسلمين حتى القرن الثاني عشر الهجري، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط١، ١٩٩١م، ص٣٦، ٣٧.

وظل يجتهد ويجد حتى صار أحد نواب الحكم، وانتهت إليه رياسة الحنفية في عصره، اقتحم الصيرفي مجال العلم ليكتب عدداً من المؤلفات التاريخية[1]، ومن أهمها (**نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان**) وقد تمت الاستفادة من هذا الكتاب في مواضع متعددة من الفصل الثاني والثالث ويعد هذا الكتاب مصدراً هاماً من المصادر التاريخية التي كتبت أثناء وجود الدولة المملوكية الثانية.

- **ابن أيبك الدواداري:**

هو أبو بكر بن عبد الله الدواداري بن عز الدين أيبك المعظمي، صاحب صرخد، مؤرخ شامي مصري، لا نعرف متى ولد ولا أين توفي ومتى لسكوت المصادر عن ترجمته، وكل ما نعرفه أنه كان حياً سنة ٧٣٦هـ/١٣٣٥م وقد توفي بعد ذلك، نشأ ابن أيبك في القاهرة وكان والده من المقربين إلى السلطان الناصر محمد فأرسله إلى الشام مع ابنه وعينه (مهمنداراً) لتولي أمر الضيوف، يعد ابن أيبك أحد النماذج العديدة التي تمثل فيها اندماج العنصر التركي العسكري (المملوكي) في الثقافة الإسلامية والمجتمعات العربية التي عاش فيها، وقد شدا ابن أيبك بعضاً من الأدب وكثيراً من التاريخ[2]، فكان له مؤلفات كثيرة ومن أهمها كتاب (**كنز الدرر وجامع الغرر**) وتمّ الاستفادة من هذا الكتاب عند دراستي لبعض الفقرات في الفصول الثلاثة من هذا البحث.

- **ابن تغري بردي (٨١٥-٨٧٤هـ/١٤٠٩-١٤٧٠م):**

هو جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي، ولد بالقاهرة بدار الأمير منجك اليوسفي قرب مدرسة السلطان حسن بحي القلعة الحالي، تولى والده الأمير تغري

---

[1] - مصطفى (شاكر): التاريخ العربي والمؤرخون، دار العلم للملايين، بيروت، ط١، ١٩٧٨م، ج٣، ص١٧٤، ١٧٥، ١٧٦.

[2] - مصطفى: المرجع نفسه، ج٢، ص١٢٢، ١٢٣.

بردي أرفع المناصب إلى أن توفي سنة ٨١٥هـ/١٤١٢م وهو على نيابة دمشق، وبعد وفاة والده عاش في كنف أخته حوالي تسع سنوات، وعلى هذه البيئة ترجع تنشئته الدينية، ثم تعلم أنواع الفروسية والعلوم العسكرية على يد أكابر المماليك، ظل أبو المحاسن قريباً من بلاط السلاطين منذ أيام برسباي حتى قاتيباي، اكتسب خلالها القدرة على الحكم على الناس وطبائعهم والقدرة على تفهم روح العصر، فصارت كتابته للتاريخ صورة صادقة إلى حد كبير، ويمكن القول إن أبا المحاسن كان مرآة عصره، اتبع ابن تغري بردي النظام الحولي في سرد التاريخ بمقتضى تتابع السنين ورصد الحقائق المجردة دونما صلة أو رابطة عميقة، فقد انتهج خطين أساسيين في تدوين مادته التاريخية الأول مصري محلي، والثاني إسلامي عام، مع عدم إغفاله بعض الأحداث الهامة التي حدثت في ممالك الروم والمغول أو الفرنجة[1]، واعتمدت في بحثي هذا على العديد من كتبه أهمها: (**النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**)، الذي يعد بحق عمدة مصادر التاريخ المصري في العصر المملوكي، وقد أخذت معلومات كثيرة منه أهمها تحرير مدينة عكا في عهد الأشرف خليل، كما تحدث عن اجتياح القبارصة لمدينة الإسكندرية ومدة بقائهم فيها حتى وصول النجدة الإسلامية من القاهرة.

(**حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور**)، وقد أرّخ فيه من سنة ٨٤٥هـ إلى سنة ٨٧٤هـ وتمت الإفادة منه في الفصل الثالث في دراسة أحداث الحملات المملوكية التي أرسلها السلطان الظاهر جقمق إلى جزيرة رودس للسيطرة عليها والصعوبات التي واجهت الغزاة أثناء حصارهم لهذه الجزيرة.

- **ابن حجر العسقلاني (٧٧٣-٨٥٢هـ/١٣٧٣-١٤٤٩م):**

---

[1] - ابن تغري بردي (جمال الدين أبو المحاسن يوسف): النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، قدم له: محمد حسني شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٢م ، ج١ ، ص ١٧-١٩.

هو القاضي شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي العسقلاني الأصل، ولد في القاهرة سنة ٧٧٣هـ ويعرف بابن حجر وهو لقب لبعض آبائه، درس ابن حجر الفقه واللغة وعلوم القرآن وشغف بالأحاديث، وقام بعدة رحلات دراسية في البلاد الشامية والحجازية والمصرية واليمن، وبلغت مصنفاته في الحديث والتفسير نحو مئة وخمسين مصنفاً، وتولى ابن حجر منصب القضاء، وولي مشيخة البيبرسية، والإفتاء بدار العدل والخطابة بالجامع الأزهر، وقد ترك لنا ابن حجر تراثاً تاريخاً هاماً يضعه في صف الأعلام من مؤرخي مصر الإسلامية[1]، يعد كتابه (**إنباء الغمر بأبناء العمر**) من المصادر الرئيسية في التاريخ الإسلامي، حيث خصه ابن حجر بتدوين الحوادث التاريخية بمختلف أصنافها من سنة ٧٧٣هـ إلى سنة ٨٥٠هـ وقد استفدت منه في دراستي لبعض الاعتداءات الصليبية ورد المماليك عليها في الفصل الثاني، ودراستي لفتح قبرص وغزو جزيرة رودس في الفصل الثالث.

- **ابن شاهين الظاهري (٨١٣-٨٧٣هـ/ ١٤١٠-١٤٦٨م):**

هو خليل بن شاهين الشيخي، الصفوي، الظاهري (غرس الدين)، ولد بالقدس وتوفي في طرابلس[2]، تقلب في العديد من المناصب الحكومية الهامة حتى أصبح أحد كبار رجالات الدولة المملوكية، كان والياً على ثغر الإسكندرية، ثم أميراً للحج سنة ٨٤٠هـ/ ١٤٣٦م، ثم ولي بعد ذلك على بعض مناطق الشام مثل الكرك وصفد، ولعل نشاطه الإداري هو الذي حدا به في أيام السلطان جقمق إلى التفكير في وضع مؤلف سماه (**زبدة كشف الممالك وبيان**

---

[1] - عنان (محمد عبد الله): مؤرخو مصر الإسلامية ومصادر التاريخ المصري، مطبعة لجنة التأليف والنشر، القاهرة، ١٩٦٩م، ص ١٠٥، ١٠٦، ١٠٧، ١٠٨.

[2] - كحالة (عمر رضا): معجم المؤلفين تراجم مصنفي الكتب العربية، مؤسسة الرسالة، دمشق، ١٩٥٧م، ج١، ص٦٨٤.

الطرق والمسالك)[1]، حيث تمت الإفادة من هذا الكتاب في الفصل الأول عند دارستي لأنواع السفن البحرية في العصر المملوكي، وكذلك في الفصل الثالث عند دراستي لفتح جزيرة قبرص.

- **ابن كثير (٧٠١هـ-٧٧٤هـ/١٣٠٢-١٣٧٣م):**

هو عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، ولد سنة ٧٠١هـ بمجدل وهي قرية شرقي بصرى من أعمال دمشق، بعد وفاة والده انتقل مع أخيه سنة ٧٠٧هـ إلى دمشق واشتغل على يديه بالعلم فحفظ القرآن وقرأ الأصول عن الأصفهاني، صاحب ابن تيمية، ولازم الحافظ المزي وتزوج ابنته، وأقبل على حفظ المتون ومعرفة الأسانيد والعلل والرجال والتاريخ، فبرع بالفقه والتفسير والنحو، وكان كثير الاستحضار قليل النسيان جيد الفهم مما جعله قدوة العلماء والحفاظ وعمدة أهل المعاني والألفاظ، وانتهت إليه رئاسة العلم بالتاريخ والحديث والتفسير، توفي في شعبان سنة ٧٧٤هـ ودفن بمقبرة الصوفية عند شيخه ابن تيمية[2]، وترك لنا موروثاً ضخماً من المؤلفات تذخر بها مكتبات التاريخ الإسلامي، ومن أهمها (**البداية والنهاية**) الذي اعتمدت عليه في دراستي لأحوال البحرية الإسلامية والاعتداءات الصليبية على سواحل السلطنة المملوكية وموقف المماليك منها.

- **ابن مماتي (٦٠٦هـ/ ١٢١٠م):**

---

[1] - حميدة (عبد الرحمن): أعلام الجغرافيين العرب ومقتطفات من آثارهم، دار الكتب، دمشق، ط١، ١٩٨٤م، ص ٥٩٨، ٥٩٩.

[2]- ابن العماد (عبد الحي أحمد): شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق: محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، بيروت، ط١، ١٩٨٩ م، ج٨ ، ص ٣٩٨، ٣٩٩.

هو شرف الدين الأسعد بن المهذب بن زكريا[1]، من نصارى أسيوط، تولى أبوه الذي اعتنق الإسلام هو وأولاده ديوان الجيش في العصر الفاطمي والصلاحي، وخلف ابن مماتي أباه على ديوان الجيش، وأضيف إليه ديوان المال، لكنه عزل وصودرت أمواله، فلجأ إلى حلب وبقي فيها حتى وفاته سنة ٦٠٦هـ/ ١٢١٠م[2]، ولابن مماتي تصانيف عديدة لها فائدة علمية كبيرة ومن أهمها كتاب (**قوانين الدواوين**) وقد تمت الإفادة منه في الفصل الأول لبعض أنواع السفن المستخدمة في البحرية الإسلامية.

- **أبو الفداء (٦٧٤- ٧٣٢هـ / ١٢٧٣- ١٣٣١م):**

هو إسماعيل بن علي بن محمود بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب بن عماد الدين الأيوبي، أمير أيوبي ولد في دمشق بعد أن فرَّ إليها والده الذي كان أميراً على حماة من وجه الهجمة المغولية على بلاد الشام، كان أبو الفداء رجلاً عسكرياً من الطراز الممتاز، اشترك مع عمه في الحروب الطاحنة ضد الفرنجة، التحق بخدمة السلطان الملك الناصر، فعينه أميراً على حماة سنة ٧١٠هـ/١٣١٠م، وزار القاهرة وفيها حصل على لقب أمير والملك الصالح وبعدها لقُب بالملك المؤيد، واشتهر أبو الفداء بالجدية التامة في عمله بالحكم والعلم[3]، وترجع شهرته العلمية إلى المؤلفات التي وضعها وأهمها كتابه (المختصر في أخبار البشر) وقد اعتماد عليه في العديد من الفقرات عند دراستي لهذا الكتاب.

- **السخاوي (٨٣١-٩٠٢هـ/ ١٤٢٨-١٤٩٦م):**

---

[1] - مصطفى: المرجع السابق، ج٢، ص ٢١٤.

[2] - عبد الله: المرجع السابق، ص١٨١.

[3] - أبو الفداء (إسماعيل): المختصر في أخبار البشر، تحقيق: محمد زينهم عزب وآخرين، دار المعارف، بيروت، ط١، ١٩٩٨م، ج١، ص ٧. عبد الله: معجم المؤرخين المسلمين حتى القرن الثاني عشر الهجري، ص١٣٦.

هو محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبي بكر بن عثمان شمس الدين أبو الخير السخاوي، بدأ السخاوي رحلته في طلب العلم منذ صغره، فقد وضع القدر مسكنه وهو في الرابعة من العمر بجوار دار ابن حجر العسقلاني علامة العصر، فكان ذلك الجوار قدره الذي حدد مصيره، وظل ملازماً له دون انقطاع ١٤ سنة، وقد تركت هذه السنوات أعمق الانطباع في نفس السخاوي بقية عمره، قرأ السخاوي عن أستاذه ابن حجر الكتب والمتون الكثيرة في الحديث خاصة، وفي التاريخ والتراجم ولكن لم يهمل الأخذ عن شيوخ العصر بعده، فأخذ يطوف على العلماء ليتلقى عنهم مختلف العلوم والفنون، وقام برحلة واسعة في المدن العربية حصل من خلالها على الكثير من علوم القراءة والنحو والفقه والبلاغة والتصوف، ولما عاد إلى القاهرة جلس في الإقراء والتدريس في أعظم مدارسها، وتخطت شهرته مصر وبلاد الشام، وذاعت في أنحاء العالم الإسلامي، وبقي السخاوي رغم مكانته العلمية الرفيعة ونفوذه بعيداً عن ميدان السياسة، وكان ينتهز الحج ليجاور ويقرئ ويُدرس حتى غدت مكة أشبه بالوطن الثاني له، ثم حج للمرة السابعة، وتردد بين مكة والمدينة، ثم استقر بالمدينة حتى توفي بها سنة ٩٠٢هـ في الحادية والسبعين من العمر بعد أن ترك لنا موروثاً كبيراً من المؤلفات لا يمكن لأي باحث في التاريخ الإسلامي الاستغناء عنها[1].

وقد اعتمدت على بعض كتبه في دراستي وهي: **الضوء اللامع لأهل القرن التاسع**، الذي أفادني بمعلومات قيمة لبعض الشخصيات المملوكية في القرن التاسع، وكتابه **وجيز الكلام في الذيل على دول الإسلام**، وقد أخذت منه عند دراستي فتح جزيرة قبرص، وكذلك كتابه **التبر المسبوك في ذيل السلوك**، الذي كان خير عون لي عند دراستي لغزو جزيرة رودس في الفصل الثالث.

---

[1] – مصطفى: التاريخ العربي والمؤرخون، ج٢، ص١٧٧، ١٧٨.

- **السيوطي (٨٤٩هـ- ٩١١هـ / ١٤٤٢م- ١٥٠٥م)** :

هو جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن بن الكمال أبي بكر بن محمد بن الشيخ همام الدين الخضيري السيوطي، كانت أسرته من أهل الوجاهة والرياسة، منهم من وُلي الحكم، ومنهم من وُلي الحسبة، ومنهم من اشتغل بالتجارة، توفي والده وهو دون السادسة، فاستندت وصايته إلى جماعة من العلماء، حفظ القرآن وهو في الثامنة من عمره، واشتغل بالعلم وهو في الخامسة عشرة من عمره، درس النحو والفقه على جماعة من الشيوخ، وذكر أنه شرع في التأليف منذ سنة ٨٦٦هـ، وقام برحلات إلى بلاد الشام والحجاز واليمن والمغرب والهند، وبدأ الإفتاء سنة ٨٧١هـ، وانقطع السيوطي إلى التأليف وانهمك فيه، حتى بلغت مصنفاته خمسمئة مؤلف، وكان أعلم أهل زمانه بعلم الحديث وفنونه، توفي في ليلة الجمعة تاسع عشر جماد الأولى سنة ٩١١هـ[1]، وقد ترك لنا السيوطي مؤلفات كثيرة استفدت من بعضها في دراستي ومن أهمها كتاب (**تاريخ الخلفاء**) الذي استندت إليه أثناء دراستي لأحوال البحرية الإسلامية، أما كتابه (**غزوات قبرص ورودس**) فقد كان خير عون لي عند دراستي لفتح قبرص وغزو رودس في الفصل الثالث.

- **صالح بن يحيى (٨٤٠هـ/ ١٤٣٦م)** :

صالح بن يحيى بن صالح بن الحسين من آل بحتر، التنوخي، مؤرخ فلكي، من أهل بيروت، توفي في حدود ٨٤٠هـ/ ١٤٣٦م[2]، يعد من أهم المؤرخين الذين كتبوا عن البحرية في العصر المملوكي، لكونه شارك في العديد من الغزوات حتى وصف (بصاحب الغزوات)[3]،

١- عنان: المرجع السابق، ص ١٤٢، ١٤٣، ١٤٤، ١٤٥.

٢ - كحالة: معجم المؤلفين تراجم مصنفي الكتب العربية، ج١، ص٨٣٦.

٣ - الزركلي (خير الدين): الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت – لبنان، ط١٥، ٢٠٠٢م، ج٣، ص١٩٨.

له العديد من المؤلفات أهمها كتاب (تاريخ بيروت)، وتمت الإفادة منه في جميع فصول الكتاب.

- **القلقشندي (٧٥٦هـ - ٨٢١هـ/١٣٥٥-١٤١٨م) :**

هو أبو العباس أحمد بن علي، ولد في قلقشندة وتوفي بمصر سنة ٨٢١هـ، عمل في ديوان الإنشاء في عهد السلطان برقوق، حيث تعرف على شؤون الحكم والسياسة والعلاقات الدبلوماسية والأمور الرسمية في الدولة، ودخل القلقشندي عالم التأليف الموسوعي بكتابه المعروف (**صبح الأعشى في صناعة الإنشا**) الذي أصدره في ١٤ مجلداً[1]، ويعد بحق من المؤلفات التي تفخر بها مكتبة التراث الإسلامي، وخصوصاً إذا ما علمنا أن كتاب (**صبح الأعشى**) يعد من المصادر الرئيسية التي لا يمكن لأي باحث في الحضارة الإسلامية الاستغناء عنه لكثرة ما فيه من المادة العلمية والجغرافية والإدارية والتاريخية...الخ، وتمت الإفادة منه في الفصول الثلاثة من البحث وخاصة الفصل الأول عند دراسة أنواع السفن والأسلحة المستخدمة في العصر المملوكي، والدراسة الجغرافية لموانئ المتوسط في مصر وبلاد الشام.

- **المقريزي (٧٦٦-٨٤٥هـ/١٣٦٥-١٤٤١م):**

هو تقي الدين أحمد بن علي، سمي بالمقريزي نسبة لحارة في بعلبك عرفت بحارة المقارزة، ولد في القاهرة، وتوفي فيها، نشأ المقريزي نشأة حسنة في كنف أسرة عرفت أصولها بالمشاركة في تحصيل العلم[2]، فحفظ القرآن وتعلم الفقه والحديث والقرآن واللغة والنحو والتاريخ، كانت له حظوة عند الملك الظاهر برقوق ثم عند ابنه الملك الظاهر فرج من بعده، وشغل عندهما عدة وظائف وناب بالحكم وكتب التوقيع وولي الحسبة، وقف حياته على

---

[1] - مصطفى: المرجع السابق، ج٣، ص١٣٣، ١٣٤.

[2] - عز الدين (محمد كمال الدين): المقريزي مؤرخاً، عالم الكتب، ١٩٩٠م، ص٢٣، ٢٤.

تدوين تاريخ مصر الإسلامية وتدوين أمجادها، حتى زادت مؤلفاته على مئتي مجلد وعلى نيف وثلاثين عنواناً في التاريخ، وقد اعتمدت في بحثي هذا على العديد من كتبه أهمها:

- **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار**، وقد أخذتُ من هذا الكتاب عن أوضاع الأسطول الإسلامي وصناعة السفن في العصر المملوكي.
- **السلوك لمعرفة دول الملوك**، وهو من أبرز كتب التاريخ المصري الوسيط، وأخذتُ من كتابه هذا في كثير من الأمور الهامة على رأسها نشاط قبرص ضد طرابلس والساحل السوري ومهاجمة ملك قبرص مدينة الإسكندرية وجبلة واللاذقية وبانياس، ومن ثم ميناء إياس، واهتمام سلاطين المماليك بتقوية البحرية الإسلامية ورغبتهم في الانتقام من قبرص، وسير الحملات المملوكية في عهد الأشرف برسباي لفتح جزيرة قبرص وكيفية إعداد الخطة لذلك.
- **النويري (٧٧٥هـ/ ١٣٧٢م)** :

هو محمد بن قاسم بن محمد النويري الإسكندراني، واحد من أهالي بلدة نويرة، وقد شهد حادثة الإسكندرية، وتحدث عنها بالتفصيل، عمل بنسخ الكتب مما أكسبه معارف واسعة، كان النويري في الإسكندرية عندما تعرضت للاجتياح الصليبي، لكنه استطاع الهرب، ثم عاد إليها من جديد، ودوّن لنا في كتابه (**الإلمام بالإعلام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية في وقعة الإسكندرية**) بصورة تنبض بالحياة، ووضع في كتابه كل ما توفر لديه من معلومات تاريخية وقصصية وشعرية وفقهية، حوى هذا الكتاب مادة جيدة للتاريخ أهمها حادثة الإسكندرية[1]، وإن مادة النويري غنية وذات أهمية عالية لا يستغني عنها الباحث في تاريخ الإسكندرية والمهتم بالتاريخ الاقتصادي والعسكري للسلطنة المملوكية في مصر

---

[1] - الزركلي: المرجع السابق، ج٧، ص٥.

والشام، وقد وتمت الإفادة منه في دراسة الاجتياح القبرصي لمدينة الإسكندرية، فقد أوضح النويري العديد من الأسباب التي دفعت بطرس الأول لاجتياح مدينة الإسكندرية وكذلك فصّل الأحداث والدمار الذي لحق بالإسكندرية بعد انسحاب القبارصة منها.

- **ياقوت الحموي (٥٧٤-٦٢٦هـ/١١٧٨-١٢٢٨م):**

هو الشيخ الإمام شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي، يعد من مشاهير المؤرخين في الإسلام، وأصله من بلاد الروم، بيع أسيراً وهو طفل لتاجر حموي أمي، فأخذ لقبه وتربى في بغداد على يديه ليكون كاتباً له يساعده في تجارته[1]، ولكن ياقوت تابع الدراسة بحسن استعداده، وأتقن الخط والعلوم، وقد أعتقه سيده سنة ٥٩٦هـ فأخذ يكسب الرزق بنسخ الكتب وبيعها وهذا ما فتح له باب الاطلاع الأوسع، وأقام في خوارزم يتاجر ويكتب ويؤلف، وعند اجتياح المغول لفارس هرب ياقوت إلى حلب ومات فيها[2]، تاركاً للتراث الإسلامي ثروة كبيرة من المؤلفات أهمها (معجم البلدان) وهو موسوعة جغرافية تاريخية وقد وتمت الإفادة من هذا الكتاب في جميع فصول البحث عند دراستي لبعض الموانئ والجزر في البحر المتوسط.

ب- المراجع:

إن الدراسات الحديثة عن تاريخ السلطنة المملوكية ونشوئها وتطورها ووصف معاركها البرية كثيرة، ولكن مسألة نشاط المماليك في البحر المتوسط لم تعالج بشكل دقيق كموضوع مستقل.

---

[1] - ياقوت الحموي (شهاب الدين): معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٩٧٧م، مج١، ص٦.

[2] - مصطفى: المرجع السابق، ج٢، ص ٢٥٠، ٢٥١. حميدة: المرجع السابق، ص ٤٤٧، ٤٤٨.

ومن المراجع الجيدة التي اعتمدت عليها في دراستي لهذا البحث كتاب (**تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام**) للسيد عبد العزيز سالم وأحمد مختار العبادي، وهذا الكتاب مقسم إلى ثلاثة أبواب، تحدث في الباب الثالث عن البحرية الإسلامية في البحر المتوسط في عصري الأيوبيين والمماليك، وقد أوضح هذا الكتاب اهتمام سلاطين المماليك بالأساطيل البحرية لمواجهة الخطر الصليبي، وكذلك غزو المماليك لجزيرة قبرص في عهد السلطان برسباي، ويعد هذا الكتاب من الكتب الهامة في تاريخ البحرية الإسلامية.

وكتاب (**البحرية في عصر سلاطين المماليك**) لإبراهيم حسن سعيد، وهذا الكتاب مقسم إلى ثلاثة أبواب، تحدث في الباب الثالث عن البحر المتوسط في عصر سلاطين المماليك حيث أوضح في هذا الكتاب أهمية البحر المتوسط، وأنواع السفن ودور صناعتها، والأحداث السياسية والمعارك البحرية في البحر المتوسط، واستفدت من طريقته في تحليل الأحداث التاريخية ومن أسلوبه العلمي في تناول الوقائع التاريخية والتعامل معها بشكل منهجي.

وكتاب (**البحرية في مصر الإسلامية وآثارها الباقية**) لسعاد ماهر، وهذا الكتاب مقسم إلى ثمانية أبواب تحدث في الباب الثاني عن البحرية في مصر الإسلامية منذ العصر الأموي حتى العصر العثماني، وفي الباب السادس تحدث عن الأسطول في العصر الإسلامي، أما الباب السابع فقد شرح فيه أنواع السفن وأسماءها، ويعد هذا الكتاب من المراجع النفيسة في تاريخ البحرية لما احتواه من مادة علمية قيمة تمد الدارس بمعلومات مهمة كثيرة.

بالإضافة إلى ما تقدم تم الرجوع والاستفادة من عدد كبير من المصادر والمراجع العربية والأجنبية التي حوت على معلومات مفيدة ساهمت في إغناء هذا البحث.

- مدخل في نشوء دولة المماليك ومميزاتها:

بداية لا بد من التعرف على المعنى الاصطلاحي للفظ (المماليك)، المملوك هو العبد الذي يباع ويشترى، لكن مصطلح (المماليك) أطلق على فئة من العبيد الذين كان الأمراء والسلاطين والخلفاء يشترونهم ليصنعوا منهم رجالاً أشداء ويشكلون منهم فرقاً خاصة في جيوشهم[1].

وقد قيل: إن لفظ مملوك في أصله اللغوي مستخرج من الفعل (ملك)، ويعني الرقيق الذي يشترى بهدف تربيته والاستعانة به كجند، وهو على عكس كلمة عبد التي استعملت في العصر الإسلامي الأول[2].

فالمملوك هو من مُلِك ولم يُمْلك أبواه وتأتي بمعنى السبي وهو الأسير، فالمملوك ليس أصله من العبيد وقد يكون مأسوراً أو مخطوفاً أو مملوكاً قهراً، وبيع في أسواق النخاسة[3].

ويعود وجود المماليك بكثرة في مصر على الصعيد السياسي والعسكري إلى زمن قيام الدولة الأيوبية على يد صلاح الدين الأيوبي(٥٦٧-٥٨٩هـ / ١١٧١-١١٩٣م) هذه الدولة التي كانت كردية الأصل والتي جاءت عن طريق الدولة السلجوقية التركية[4]، وقد

---

[1] - ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج٦، ص ٢٨٣.

[2] - الرازي (محمد بن أبي بكر بن عبد القادر): مختار الصحاح، تحقيق: محمود خاطر، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط١، ١٩٩٥ م، ص ٦٣٣.

[3] - ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين عمر بن مكرم المصري): لسان العرب، دار المعارف، القاهرة، ١١١٩م، ص ٤٢٦٧.

[4] - ابن الأثير (عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم): الكامل في التاريخ، راجعه وصححه: محمد يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط ٤، ٢٠٠٣، ج١٠، ص٣٣. المقريزي (أحمد بن علي): اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، تحقيق: محمد حلمي محمد أحمد، دار الكتب، القاهرة، ١٩٧٣م، ج٣،

رأت هذه الدولة أنه من الأفضل الاعتماد على وفاء المماليك الأتراك الذين تربوا ونشؤوا في البلاط السلجوقي على مقربة من السلاطين وتم جلب هؤلاء وهم صغار السن[1]، وكانوا يعهدون بهم إلى من يعلمهم اللغة العربية ويلقنهم مبادئ الدين الإسلامي الحنيف ثم ينتقلون بعد ذلك إلى من يشرف على تدريبهم فنون القتال والفروسية بحيث يحققون قدراً عالياً من الكفاءة الحربية وكذلك يضمن منهم قدراً عالياً من الولاء الشخصي لسيدهم بحيث يغدون قوة فعالة يعتمد عليها في الصراعات بين أبناء الأسرة الأيوبية[2].

وكانت كل مجموعة من هؤلاء المماليك تنسب إلى صاحبها الذي اشتراها من تجار الرقيق وعني بتربيتها للعمل في خدمته، فالأسدية مثلاً نسبة إلى أسد الدين شيركوه عم صلاح الدين، والكاملية نسبة إلى الكامل بن العادل الأيوبي[3].

ص ٣٣٠ ـــ ٣٣٢. القرماني (أحمد بن يوسف): أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ، تحقيق: أحمد حطيط وفهمي سعد، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٩٩٢م، ج٢، ص ٢٥٠، ٢٥٥.

[1] – المقريزي (أحمد بن علي): السلوك لمعرفة دول الملوك، صححه ووضع حواشيه: محمد مصطفى زيادة، مطبعة لجنة التأليف، القاهرة، ١٩٥٦م، ج١، ق١، ص ٢٣٨. ابن العماد: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج٦، ص ٣٧٣ ـــ ٣٧٥. الذهبي (محمد بن أحمد): العبر في خبر من غبر، تحقيق: محمد السعيد، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط١، ١٩٨٥ م، ج٣، ص ٥٣.

[2] – الدواداري المنصوري (بيبرس): مختار الأخبار تاريخ الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية حتى سنة ٧٠٢هـــ، تحقيق: عبد الحميد صالح حمدان، الدار المصرية، القاهرة، ط١، ١٩٩٣م، مقدمه المحقق ص٢. ابن ظهيرة(برهان الدين إبراهيم): الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة، تحقيق: مصطفى السقا وكمال المهندس، مطبعة دار الكتب، ١٩٦٩م، ص ١٦٤. قاسم (قاسم عبده): السلطان المظفر سيف الدين قطز بطل معركة عين جالوت، دار القلم، دمشق، ط١، ١٩٩٨م، ص ٤٢.

[3]– ابن سعد المغربي (علي بن موسى): النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة، القسم الخاص بالقاهرة من كتاب المغرب في حلى المغرب، تحقيق: حسين نصار، دار الكتب المصرية،١٩٧٠م، ص١٤٠. ابن خلدون (عبد الرحمن): تاريخ ابن خلدون، ضبطه ووضع حواشيه خليل شحادة: مراجعة سهيل زكار، دار الفكر،

وبعد وفاة صلاح الدين الأيوبي ٥٨٩ هـ / ١١٩٣ م ازداد أفراد طائفة المماليك في مصر وبلاد الشام ازدياداً كبيراً نتيجة الحروب التي اشتعلت بين ورثة صلاح الدين[1].

فلجأ كل أمير من أمراء البيت الأيوبي إلى الإكثار من شراء المماليك ليكوّن منهم عصبة يعتمد عليها في الاحتفاظ بمملكته وتحقيق مصالحه الخاصة[2].

وقد لعب المماليك دوراً هاماً في الصراعات القائمة بين أمراء البيت الأيوبي، بحيث أصبحوا القوة المسيطرة على الدولة وصار بإمكانهم خلع السلاطين الضعاف وتولية سلاطين آخرين[3].

بيروت، ٢٠٠٠ م، ج٤، ص ١٠٣ ـــ ١٠٥. ابن العماد: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج٧، ص٣٢٠.

[1]- ابن واصل (جمال الدين): مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق: جمال الشيال، القاهرة، ١٩٥٧م، ج٢، ص ٣٧٨، ٣٧٩، أبو شامة (عبد الرحمن بن إسماعيل): الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق: محمد حلمي محمد أحمد، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط٢، ج١ ص٢٨١، ٢٨٢.

[2] – ابن عبد الظاهر (محي الدين): تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، تحقيق: مراد كامل، القاهرة، ط١، ١٩٦١م، ص ٣٥. العريني (السيد الباز): الأيوبيون، دار النهضة العربية، بيروت، ص١٦٤-١٦٨. العبادي (أحمد مختار): قيام دولة المماليك الأولى في مصر وبلاد الشام، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٦م، ص ٩٢. عاشور (سعيد عبد الفتاح) العصر المماليكي في مصر والشام، دار النهضة العربية، القاهرة، ط ٢، ١٩٧٦م، ص ٩٢.

[3] – أبو شامة (عبد الرحمن بن إسماعيل): الذيل على الروضتين، تحقيق: محمد الكوثري، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٩٤٧م، ص ١٦٩. ابن العماد: شذرات الذهب من أخبار من ذهب، ج٧، ص٣٢٠. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج٦ ص ٢٧٩. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج١٠، ص٣٧٦.

فبعد وفاة الملك الكامل سنة ٦٣٥هـ / ١٢٣٨ م عارض مماليكه الكاملية ما جرى من تنصيب ابنه الأصغر العادل الثاني لميلهم إلى الصالح أيوب حاكم الجزيرة الفراتية ونجحوا في تعيينه حاكماً على مصر ٦٣٨ هـ / ١٢٤٠ م[1].

ويعود الفضل إلى السلطان الصالح نجم الدين أيوب في تكوين فرقة جديدة من المماليك قدر لها أن تنهض بدور كبير في التاريخ ألا وهي دولة المماليك البحرية[2]، *حيث بدأ بتكوينه لهذه الفرقة منذ أيام والده السلطان الكامل عندما كان نائباً لأبيه أثناء غيابه عن مصر (٦٢٥- ٦٢٧ هـ / ١٢٢٨ – ١٢٣٠م)*[3].

وبعد وصوله إلى عرش السلطنة أحس بفساد نية المماليك الأشرفية والكاملية وأنهم عازمون على الوثوب عليه وانتزاع البلد من يده، فتحقق له أن لا ينتظم ملكه إلا بالقضاء عليهم واستبدالهم، فأخذ بتفرقتهم والقبض عليهم، وفي المقابل قام بالإكثار من شراء المماليك الأتراك وعني بتربيتهم ونشأتهم في قلعة جزيرة الروضة على النيل وأطلق على هذه الفرقة اسم المماليك البحرية[4].

---

[1] – ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج٦ ص ٢٦٩. ابن العماد: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج٧ ص ٣٢٠.

[2] – أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، ج٣، ص ٢٠٣. القلقشندي (أحمد بن علي): صبح الأعشى في صناعة الإنشا، دار الكتب الخديوية، القاهرة، ١٩١٤م، ج٤، ص ١٦.

[3] – ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج١٠، ص ٤٧٩. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج٦، ص ٢٨٢. ابن واصل: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، ج٤، ص٢٧٧. المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١ ق١، ص ٢٣٨. ابن أيبك الدواداري (أبو بكر بن عبد الله): كنز الدرر وجامع الغرر، تحقيق: سعيد عاشور، القاهرة، ١٩٧٢ م، ج٧، ص ٢٨٩.

[4] – ابن إياس (محمد بن أحمد): بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق: محمد مصطفى، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٤م، ج١ ق١، ص ٢٦٩، ٢٧٠. المقريزي (أحمد بن علي): الخطط المقريزية، تحقيق: محمد زينهم وآخرين، دار الأمين، القاهرة، ط ١، ١٩٩٧م، ج٢، ص٨٠١. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في

وظهرت قيمة هؤلاء المماليك واضحة بقدوم الحملة الصليبية (الفرنجية) السابعة سنة ٦٤٧ هـ/ ١٢٤٩م بقيادة ملك فرنسا لويس التاسع الذي هدف من خلال حملته إلى السيطرة على مصر واستعادة بيت المقدس وأراضي الشام وتدعيم كيان الصليبيين المتهاوي[1].

وقد توافق هجوم الحملة الصليبية على مصر في الوقت الذي كان فيه السلطان نجم الدين أيوب يعاني من آلام المرض، إلى درجة منعته من قيادة مماليكه، فعهد إلى وزيره فخر الدين يوسف بقيادة الجيش وطلب منه الإسراع إلى دمياط والتصدي للصليبيين بعد حصارهم لها[2]، بمئتي مركب مشحونة بالرجال ومنعهم من النزول على البر، إلا أن الوزير فشل في مهمته ودخلت الحملة الصليبية (الفرنجية) دمياط عن طريق جسر من صنوبر كانوا قد عملوه على النيل وقتلوا خلقاً كثيراً من المسلمين[3].

ملوك مصر والقاهرة، ج٦ ص ٢٨٣. القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ج٤، ص١٦. ابن أيبك الدواداري: كنز الدرر وجامع الغرر، ج٧، ص ٣٤٣. الجبرتي (عبد الرحمن بن حسن): عجائب الآثار في التراجم والأخبار، تحقيق: عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، تقديم: عبد العظيم رمضان، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط٦، ١٩٩٧م، ج١، ص٢٦. النهار (عمار محمد): العصر المفترى عليه عصر المماليك البحرية، دار النهضة، دمشق، ط١، ٢٠٠٧م، ص٢٧.

[1] – أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، ج٣، ص ٢١٦ – ٢١٨.

[2] – ابن بطوطة (محمد بن عبد الله): رحلة ابن بطوطة، دار صادر، بيروت، ١٩٩٢م، ج١، ص٣٣. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج٦، ص ٣٢١. المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١ ق٢، ص٣٣٣.

[3] – الذهبي: العبر في خبر من غبر، ج٣، ص ٢٥٨، ٢٥٩. ابن كثير (إسماعيل): البداية والنهاية، مكتبة المعارف، بيروت، ط٢، ١٩٩٠م، ج١٣، ص ٢٠٧. ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج٣، ص٤٠.

وفي تلك الأحداث العصيبة قوي المرض وتزايد على السلطان، فلما كانت ليلة النصف من شعبان توفي في المنصورة[1] تاركاً صعاب الأمور لأتباعه المماليك الذين استطاعوا تخليص مصر والمسلمين من شر الصليبيين، فأخفت زوجته شجر الدر خبر وفاته وذلك خوفاً من حدوث الفتن بين صفوف المسلمين[2]، وفي الوقت نفسه أرسلت شجر الدر إلى ابن زوجها وولي عهده تورانشاه تحثه على ترك حصن كيفا والقدوم إلى مصر ليعتلي عرش السلطنة بعد أبيـــه. وقبل وصول تورانشاه استطاعت الفئات المملوكية البحرية والعناصر العربية في مصر تحقيق انتصارٍ ساحقٍ على الصليبيين في معركة المنصورة ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م وأسر ملكهم لويس التاسع[3].

الذي أطلق سراحه مع كبار رجال حملته من قبل المسلمين في عهد شجر الدر مقابل فدية مقدارها خمسمئة ألف دينار للمسلمين[4].

---

[1] – المنصورة: مدينة بناها الملك الكامل بن الملك العادل الأيوبي وسماها بهذا الاسم، تقع بين دمياط والقاهرة، وكان لهذه المدينة دورٌ هام في الحروب الصليبية (الفرنجية). البغدادي (صفي الدين): مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، تحقيق: البجاوي، دار المعرفة، بيروت–لبنان، ١٩٥٥م، ج٣، ص١٣٢٢. المطوي (محمد العروسي): الحروب الصليبية، دار الغرب الإسلامي، تونس، ص١١٨.

[2] – سبط ابن الجوزي (شمس الدين ابن المظفر يوسف بن غزاوغلي التركي): مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر أباد الدكن، الهند، ط١، ١٩٥٢م، ج٢ ق٢، ص٧٧٥. ابن العماد: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج٧، ص٤١١.

[3] – سبط ابن الجوزي: المصدر السابق، ج٢ ق٢، ص٧٧٤. الكاتب (شافع بن علي عباس): حسن المناقب السرية المنتزهة من السيرة الظاهرية، تحقيق ونشر: عبد العزيز بن عبد الله الخويطر، مطابع القوات المسلحة السعودية، الرياض، ١٩٧٦م، ص٢٧. أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، ج٣، ص٢١٨، ٢١٩. النهار: العصر المفترى عليه عصر المماليك البحرية، ص٣١.

[4] – أبو الفداء: المصدر نفسه، ج٣، ص٢٢٠. الذهبي: العبر في خبر من غبر ، ج٣ ص٢٥٩.

وعندما وصل تورانشاه إلى عرش السلطنة ولم يكن وقتها رجل الساعة المطلوب لقلة عقله وفساده، أخذ يقرب جماعة من حاشيته ممن حضر معه إلى حصن كيفا وصار يعطيهم الوظائف وقام بإبعاد مماليك أبيه الملك الصالح، كما أرسل إلى زوج أبيه شجر الدر يعدها بكل سوء فأرسلت شجر الدر تقول لأمراء مماليك البحرية اقتلوا تورانشاه وعلى رضاكم، وبالفعل تم مقتل تورانشاه في سنة ٦٤٨ هـــ / ١٢٥٠ م على يد زعماء المماليك البحرية[١].

وبمقتل تورانشاه ابن السلطان الصالح نجم الدين أيوب ينتهي عصر الدولة الأيوبية في مصر، لتبدأ حقبة مجيدة من تاريخ مصر والعرب المسلمين ألا وهي حقبة الحكم المملوكي التي استمرت أكثر من قرنين ونصف، وأول من تملك على مصر من المماليك شجر الدر فقد تمت مبايعتها من قبل زعماء المماليك في سنة ٦٤٨ هـــ / ١٢٥٠ وكانت شجر الدر زوجة الملك الصالح نجم الدين أيوب وأم ولده خليل وكانت بارعة الحسن ذات عقل ودهاء وكانت تركية الأصل وهي ذات شجاعة وإقدام وجرأة، فخطب لها على المنابر ونقش اسمها على الدينار والدرهم[٢].

لكن شجر الدر واجهت معارضة عاليـــة تمثلت بموقف الخليفة العباسي وثورات بني أيوب وموقف المصريين أنفسهم الذين أبدوا استياءهم من أن تحكمهم امرأة، فلما وجدت نفسها في موقف حرج خلعت نفسها من السلطنة برضاها من غير كره فكانت مدة سلطنتها في مصر ثلاثة أشهر إلا أياماً[٣]. فلما خلعت شجر الدر نفسها من السلطنة، رغب الأمراء والقضاة

---

١ – أبو الفداء: المصدر نفسه، ج٣، ص، ٢١٩، ٢٢٠. الذهبي: المصدر نفسه، ج٣ ص٢٥٩– ٢٦١.

٥ – المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ص ٣٦١. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج٦ ص ٣٣٢، ٣٣٣. أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، ج٣ ص٢٢٠.

١ – الدواداري المنصوري: مختار الأخبار، ص ٨، ٩. السيوطي (عبد الرحمن): حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ط ١، ١٩٦٨ م، ج٢، ص٣٦، ٣٧.

في أن يولوا الأمير عز الدين أيبك التركماني السلطنة، وأن يتزوج من شجر الدر فتزوج بها[1]، وتولى السلطنة وكان أيبك ملكاً حازماً شجاعاً، ولجأ أيبك إلى تهدئة الجبهة الأيوبية في الشام بتعيين الأشرف مظفر الدين موسى الذي كان له من العمر ست سنوات شريكاً له في الحكم[2].

لكن هذه الحيلة لم تنطل على الأيوبيين وخصوصاً الناصر يوسف صاحب دمشق الذي بدأ يستعد عسكرياً لدخول مصر والقضاء على الحكم المملوكي فيها[3].

وعندما كان كل من الجيشين المملوكي والأيوبي يتحفز أحدهما للآخر، نجحت وساطة الخليفة المستعصم في سنة ٦٥١هـ/ ١٢٥٣م بحل التزاعات بين الطرفين عن طريق رسوله نجم الدين البادرائي وحثهما على الاستعداد لمواجهة الخطر المغولي الذي لاح شبحه حول بلاد المسلمين[4].

ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج٦، ص ٣٣٣. ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور، ص٧٣.

[1] – أبو شامة: الذيل على الروضتين، ص ١٨٦. المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١ ق٢، ص٣٦٧، ٣٦٨.

[2] – ابن أيبك الدواداري: كتر الدرر وجامع الغرر، ج٨، ص١٢، ١٣. الدواداري المنصوري: مختار الأخبار، ص٩.

[3] – ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج١ ص٢٩٢. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج٧، ص ٦. العيني (بدر الدين): عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، تحقيق: محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٩م، ج١، ص ٦٦.

[4] – الذهبي: العبر في خبر من غبر، ج٣، ص ٢٦٢. العيني: عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، ج١ ص٨٠، المقريزي، السلوك للمعرفة دول الملوك، ج١ ق٢، ص٣٨٥، ٣٨٦.

ومما تقرر في الصلح :

١ – اعتراف الناصر يوسف بسلطنة أيبك وبسيادة المماليك على مصر وبلاد الشام حتى نهر الأردن وتدخل مدن غزة وبيت المقدس ونابلس والساحل الفلسطيني في حوزة المماليك.

٢ – اعتراف المماليك بسيادة الأيوبيين على بقية بلاد الشام، وإطلاق المعز أيبك جميع مَنْ أسره من أصحاب الملك الناصر[1].

وكانت هذه الاتفاقية ذات قيمة كبرى، وشكلت منعطفاً في تاريخ الدولة المملوكية وذلك لأنها كانت اعترافاً صريحاً من قبل الأيوبيين بشرعية سلطنة المماليك في مصر، وبعدها التفت أيبك إلى تهدئة الأوضاع الداخلية والقضاء على المشاكل التي واجهته وعلى رأسها ثورة العرب المسلحة بزعامة الشريف حصن الدين بن ثعلب في سنة ٦٥١ هـ / ١٢٥٣م وكان هدف الثوار القضاء على حكم المماليك لأصلهم غير الحر، وإعادة مصر إلى سلطان العرب المسلمين، وقد أثارت هذه الثورة مخاوف المماليك، فأرسل أيبك حملة عسكرية بقيادة أقطاي أحد زعماء المماليك البحرية للقضاء على هذه الثورة وتمكن أقطاي من التغلب على الثورة العربية في بلبيس، وظل حصن الدين طليقاً يحكم مصر الوسطى حتى قبض عليه الظاهر بيبرس في الإسكندرية عندما تولى حكم السلطنة المملوكية سنة (٦٥٨-٦٧٦هـ/١٢٦٠-١٢٧٧م)[2].

---

[1] – ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج٧، ص٩، ١٠. المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١ ق٢، ص٣٨٥، ٣٨٦.

[2] – النويري (شهاب الدين أحمد): نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق: محمد ضياء الدين الريس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٦٣ م، ج٢٩، ص ٤١٧. القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ج٤، ص ٦٨.

وبعد ذلك أراد أيبك التخلص من زعيم المماليك البحرية فارس الدين أقطاي لازدياد سطوته ونفوذه في مصر، فاستدرجه إلى القلعة وأعد له كميناً انتهى بمقتله على يد مماليك المعزية، ولما شاع خبر مقتله هربت خشداشيته[1] من مصر إلى ملوك البيت الأيوبي في الشام ومنهم من طلب الصعيد يتحينون الفرصة لدخول مصر، والانتقام لمقتل أستاذهم أقطاي، وعندها قام أيبك بالتخلص من شريكه الأيوبي في الحكم فقبض عليه وسجنه في القلعة واستقل بالسلطة[2].

لذلك قضى أيبك ثلاث سنوات ٦٥٢ – ٦٥٥ هـ / ١٢٥٤ – ١٢٥٧م في التأهب لصد أي هجوم مفاجئ من الشام ثم جدد الهدنة القديمة مع الصليبيين (الفرنجة) وعقد تحالفاً زواجياً مع بدر الدين لؤلؤ أمير الموصل على أن يتزوج أيبك ابنة هذا الأمير، إلا أن شجر الدر التي كانت شديدة الغيرة غضبت من أيبك لمشروعه الزواجي غضباً شديداً بعد أن تنازلت له عن السلطة وساعدته في الوصول إليها، فدبرت له مؤامرة انتهت بمقتله سنة

---

[1] – خشداش: زميل في الخدمة، والخشداشية هي رابطة الزمالة بين الأمراء الذين نشؤوا مماليك عند أستاذ أو سيد واحد. المقريزي: السلوك، ج١، ص٣٨٨.

[2] – ابن أيبك الدواداري: كنز الدرر وجامع الغرر، ج٨، ص ٢٦، أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، ج٣، ص٢٢٩. الذهبي (محمد بن أحمد): تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، مؤسسة الأعلمي، بيروت – لبنان، ١٩٨٥ م، ص ٥. شلبي (محمود): حياة الملك المظفر قطز قاهر التتار وبطل معركة عين جالوت، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٩٩٢م، ص١٣٩، ١٤٠.

٦٥٥هـ/١٢٥٧م[1]، ثم اختار كبار الأمراء ابنه نور الدين علي الذي تلقب بالمنصور سلطاناً وكان في الخامسة عشرة، من عمره واختير أحد الأمراء وهو سيف الدين قطز أتابكاً له[2].

ومما تجدر الإشارة إليـــه أن المماليك لم يؤمنوا بمبدأ وراثة العرش، بل كان ذلك بنظرهم عملاً مؤقتاً إلى أن ينجلي الموقف بين الأمراء، وتهدأ الأمور، وعندئذ لا يجد أقوى الأمراء صعوبة من خلع ذلك الابن وإحلال نفسه محله، وهذا ما فعله سيف الدين قطز عندما وصلت جحافل المغول إلى بلاد الشام بعد استيلاءهم على بغداد وتدميرها وقتل الخليفة المستعصم بالله العباسي سنة ٦٥٦ هـ/١٢٥٨ م[3].

فجمع الأعيان والأمراء بالديار المصرية وعرفهم أن الملك المنصور صبي لا يحسن التدبير في هذا الوقت العصيب ولا بد أن يقوم بأمر السلطنة رجل شهم يطيعه كل الناس وينتصب للجهاد ضد التتار[4]، فأجمع الكل على اختياره هو، وهكذا تم الأمر لقطز فقبض على

---

[1]- الذهبي: العبر في خبر من غبر، ج٣ ص ٢٦٨. الدواداري المنصوري: مختار الأخبار، ص٩. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج٦، ص ٣٣٣ – ٣٣٥. ج٧، ص١٢.

[2] –أبو شامة: الذيل على الروضتين، ص١٩٦. ابن كثير: البداية والنهايـــة، ج١٣، ص١٩٦. قاسم: السلطان المظفر سيف الدين قطز بطل معركة عين جالوت، ص٨٠.

[3] –أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، ج٣، ص ٢٣٣. الذهبي: العبر في خبر من غبر، ج٣، ص٢٧٨. الذهبي: تاريخ الإسلام، ص ١٩. القلقشندي (أحمد بن علي) مآثر الأنافة في معالم الخلافة، تحقيق: عبد الستار فراج، عالم الكتب، بيروت، ج٢، ص ٢٢٢، ٢٢٣. السيوطي (عبد الرحمن): تاريخ الخلفاء، راجعه وعلق عليه جمال محمـــود مصطفى، دار الفجر للتراث، القاهرة، ط ٢، ٢٠٠٤ م، ص ٣٦٨.

[4] – التتار: هم جزء من المغول ظهروا سنة ٦١٦هـ/١٢١٩م في شمال الصين، وهم أشد قبائل المغول وحشية وشراسة، والمغول من العرق الأصفر ومكانهم الأصلي منغوليا وهي التي أعطتهم اسمها على ما يبدو. انظر: المقريزي: السلوك، ج١ق١، ص٢٤١. أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، ج٣، ص١٨. ابن العبري (أبو الفرج غريغوريوس بن أهرون): تاريخ الزمان، دار المشرق، بيروت، ١٩٨٦م، ص٢٣٥ وما بعدها. حمادة (محمد ماهر): وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي، منشورات الرسالة، ط٢، ١٩٨٢م، ص٦٥.

المنصور وأخيه قاقان بن أيبك وأمهما واعتقلهم جميعاً في برج القلعة وتولى هو السلطنة وتلقب بلقب المظفر قطز وذلك في ربيع الثاني ٦٥٧هـ/نيسان ١٢٥٩م[١].

كان قطز سياسياً حكيماً وقائداً بارعاً تولى الحكم في ظروف قاسية، فكان عليه أن يعمل جاهداً من أجل توحيد كلمة الطوائف المملوكية والأيوبية والعناصر العربية في مصر وبلاد الشام التي كانت غارقة في منازعاتها وذلك من أجل مواجهة عدو خارجي شديد المراس تمثل في القبائل المغولية التي بدأت بزحفها المدمر على الأراضي العربية الإسلامية[٢].

والمغول هم شعب كبير من الأمة التركية نشؤوا في هضبة منغوليا الواقعة شمالي صحراء جوبي، وتمكن جنكيزخان من توحيدهم والاستيلاء على الصين في أوائل القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي[٣].

وفي عهد حفيده منكوخان انطلقت الجيوش المغولية بقيادة أخيه هولاكو نحو الغرب لتعبر عن طاقتها المكبوتة تعبيراً حربياً عنيفاً، وبالفعل استطاع المغول القضاء على الدولة الخوارزمية

---

[١]– المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١ ق٢، ص٤١٦، ٤١٧، ٤١٨. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج٧، ص ٦٧، ٦٨. أبو شامة: الذيل على الروضتين، ص ٢٠٣. شلبي: حياة الملك المظفر قطز قاهر التتار وبطل معركة عين جالوت، ص٢٢٧، ٢٢٨، ٢٢٩. قاسم: السلطان المظفر سيف الدين قطز بطل معركة عين جالوت، ص٨٩، ٩٠.

[٢]– ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة، حاشية رقم (٥) ص ٤٤. المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١ ق٢، ص٤١٨، ٤١٩. اليافعي (عبد الله بن اسعد): مرآة الجنان وعبرة اليقظان، وضع حواشيه خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٧م، ج٤، ص١١٢. طقوش (محمد سهيل): تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، دار النفائس، بيروت، ط ١، ١٩٩٧ م، ص٦١.

[٣] – الجويني (عطا ملك): تاريخ قاهر العالم، ترجمة: أحمد التونجي، دار الملاح للطباعة والنشر، حلب،١٩٨٥م، ج١، ص ٦٠، ٧١ – ٧٥. المدائني (عز الدين عبد الحميد): حملات الغزو المغولي للشرق، ترجمة: مختار جبلي، دار لارماتون، باريس، ١٩٩٥م، ص٢٤، ٢٥. الشاعر (محمد فتحي): مصر قاهرة المغول في عين جالوت، دار المعارف، ١٩٩٥م، ص٥.

وسيطروا على إيران، كما سيطروا على قلاع الباطنية في فارس، وقضوا على الخلافة العباسية بعد تدميرهم لبغداد كما ذكرنا سابقاً [1].

وكان من الطبيعي أن يتلو اجتياح بغداد الهجوم على بلاد الشام وما يليها غرباً، وبالفعل أخذت مدن بلاد الشام تتساقط في أيديهم الواحدة تلو الأخرى، فأسرع بعض ملوك الأيوبيين إلى الدخول في طاعة هولاكو، في حين فرَّ الناصر يوسف من دمشق إلى غزة، وكذلك فعل المماليك البحرية ومن بينهم بيبرس البندقداري[2]، وتركوا دمشق تلقى مصيرها على أيدي المغول ودخل الجيش المغولي دمشق سنة ٦٥٨ هـ/١٢٦٠م فهدموا قلعتها لأنها استعصت عليهم[3].

وتابع الجيش المغولي زحفه نحو الغرب وأخذ يعد العدة للهجوم على بيت المقدس تمهيداً للهجوم على مصر، حيث أرسل رسله إلى مصر بكتاب كله تهديد ووعيد وإنذار بالويل لسلطان مصر المملوكي، إن هو لم يخضع ويعترف بسلطان المغول، وعندها عقد قطز مجلساً من أمراء دولته وكبار أمراء المماليك، وبحث قطز في هذا الموقف فأجمع الحاضرون على قتل الرسل والسير لمواجهة المغول، فأمر قطز باعتقال رسل المغول وضرب رؤوسهم[4].

---

[1] – ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج١٠، ص ٣٩٩، ٤٠٠. أبو شامة: الذيل على الروضتين، ص١٩٨، ١٩٩. المدائني: حملات الغزو المغولي للشرق، ص ١٩، ٢٠.

[2] – البندقدار: كلمة مركبة من لفظتين فارسيتين إحداهما بندق واللفظة الثانية دار ومعناها ممسك البندق، وكان يحمل البندقدار كيس البندق خلف السلطان أو الأمير. القلقشندي: صبح الأعشى، ج٥، ص٤٥٨، ١٥٩. المقريزي: السلوك، ج١، ص٣٥٠ حاشية رقم (٢).

[3] – ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص ٢١٥- ٢١٨- ٢١٩-٢٢٠. اليافعي: مرآة الجنان وعبرة اليقظان، ج٤، ص ١١٣. ابن العماد: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج٧، ص ٤٩٧، ٤٩٨- ٥٠٢، ٥٠٣.

[4] – ابن أيبك الدواداري: كنز الدرر وجامع الغرر، ج٨، ص ٤٧، ٤٨. المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١ ق٢، ص٤٢٧، ٤٢٨، ٤٢٩. الأنطاكي (محمد): معركة عين جالوت ٦٥٨هـ/١٢٦٠م، دار الشرق العربي، بيروت، ص٤٤، ٤٥، ٤٦.

وبعدها وضع قطز الذي اشتهر بالبراعة السياسية خطة عسكرية من شقين استهدفت تحقيق أمرين الأول: تدعيم الجبهة الداخلية وتعبئة الرأي العام استعداداً لخوض المعركة، والثاني: الاستعدادات العسكرية وتتضمن محاولة استقطاب الأمراء الأيوبيين والمماليك بهدف توحيد الصف العربي الإسلامي في بلاد الشام ومصر تحت قيادة واحدة(١).

ومن ثم قرر قطز الخروج من مصر باتجاه فلسطين بعد أن كان قد أرسل حملة استطلاعية بقيادة بيبرس اصطدمت مع الحامية المغولية الموجودة في غزة وطاردت أفرادها حتى نهر العاصي وذلك سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م وكان قطز قد عسكر بعد ذلك في الحدائق الواقعة خارج عكا عدة أيام(٢).

في تلك الفترة عرض الصليبيون (الفرنجة) الذين استاؤوا من المغول لمهاجمتهم مدينة صيدا ونهبها على قطز أن يمدوه بقوات من عندهم، ولكنه شكرهم واستحلفهم أن يكونوا لا له ولا عليه، وهددهم إذا اعتدوا على مؤخرة جيش المسلمين أن يعود إليهم ويقاتلهم قبل أن يقاتل المغول(٣).

وفي صباح يوم الجمعة الموافق ٢٥ رمضان ٦٥٨هـ/ ٩ أيلول ١٢٦٠م التقى الجمعان الإسلامي والمغولي في معركة كبرى عند عين جالوت(٤) وفي ذلك اليوم المجيد أبدى العرب

١- المقريزي: المصدر نفسه، ج١ ق٢، ص٤٢٩، ٤٣٠.

٢- ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج٧، ص ٧٢. طقوش: تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، ص ٧٧.

٣- أبو شامة: الذيل على الروضتين، ص ٢٠٨. زيتون (عادل): تاريخ المماليك، جامعة دمشق، ٢٠٠٢، ص٢٢.

٤ – عين جالوت: اسم أعجمي وهي بليدة لطيفة بين بيسان ونابلس من أعمال فلسطين، تم تحريرها من الفرنج على يد صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٧٩هـ/١١٨٣م. ياقوت الحموي: معجم البلدان، مج٤، ص١٧٧. الشاعر: مصر قاهرة المغول في عين جالوت، ص٥٧، ٥٨.

المسلمون ضروباً من البسالة والشجاعة، وكان النصر حليفهم وأدت هذه المعركة إلى إنهاء الخرافة القائلة إن المغول قوم لا يهزمون، وأعادت الوحدة بين مصر وبلاد الشام بعد تمزيقها من قبل ورثة صلاح الدين الأيوبي، وجنبت مصر وحضارتها من التدمير المغولي التي تعرضت له بغداد أثناء غزوهم لها، إن انتصار السلطة المملوكيـــة الناشئة على المغول في معركة عين جالوت جعل العالم العربي الإسلامي ينظر إليها نظرة إجلال واحترام[1]، ثم قام قطز بحركة تطهير سريعة لمدن بلاد الشام من الوجود المغولي، بعدها استأنف قطز رحلة العودة إلى القاهرة بعد ترتيب أمور بلاد الشام ولكن شاءت الظروف والأقدار ألا يعود قطز مرة أخرى إلى القاهرة، وأن يقتل غدراً وهو في طريق عودته إليها في ١٥ ذي القعدة ٦٥٨هـ/٢٩ تشرين الأول ١٢٦٠م على يد بيبرس البندقداري الذي أراد الانتقام لمقتل أقطاي الذي شارك قطز في قتله، كما أنه استاء من تراجع قطز عن وعده بمنحه نيابة حلب إذا انتصر على المغول[2].

وعلى هذا الوجه انتهت حياة بطل عين جالوت وقائدها السلطان سيف الدين قطز.

[1] – اليونيني (قطب الدين موسى بن محمد): ذيل مرآة الزمان، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر أباد الدكن، الهند، ط١، ١٩٥٤م، مج١، ص٣٦٠، ٣٦١. ابن العماد: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج٧، ص٥٠٣. أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، ج٣، ص ٢٤٥. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج٧، ص ٧٣، ٧٤. ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص٢٢٠، ٢٢١. طقوش: تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، ص٨٠، ٨١. العبادي: قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام، ص١٦٢ – ١٨٦، ١٦٩. الأنطاكي: معركة عين جالوت ٦٥٨هـ/١٢٦٠م، ص٥٠. الشاعر: مصر قاهرة المغول في عين جالوت، ص٦٦.

[2] – ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج٧، ص٧٦، ٧٧، ٧٨. أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، ج٣ ص ٢٤٦، ٢٤٧. الدواداري المنصوري: مختار الأخبار، ص١١. اليونيني: ذيل مرآة الزمان، مج١، ص٣٧٩. شلبي: حياة الملك المظفر قطز قاهر التتار وبطل معركة عين جالوت، ص١٤٠–٣٠٧–٣٠٨. قاسم: السلطان المظفر سيف الدين قطز بطل معركة عين جالوت، ص٧٤–١٥٣.

ولا بد أن نشير إلى بعض الخصائص التي امتازت بها سلطنة المماليك أثناء حكمها لمصر وبلاد الشام، لقد اعتمد المؤرخون عادة عند دراستهم لتاريخ هذه السلطنة تقسيمها إلى دولتين، سميت الأولى بالبحرية لكونهم سكنوا في قلعة الروضة على النيل، بينما يرى البعض أنهم حملوا هذه التسمية لأنهم جلبوا عن طريق البحر، وقام بتأسيس هذه الفرقة الصالح نجم الدين أيوب كما ذكرنا سابقاً، وحكمت هذه الفرقة السلطنة المملوكية من سنة (٦٤٨-٧٨٤هـ/١٢٥٠-١٣٨٢م).

أما الدولة الثانية فقد دعيت بدولة المماليك الشراكسة أو البرجية، وذلك لأنهم سكنوا في قلعة الجبل، وتعود أصول هذه الفرقة إلى أيام السلطان المنصور قلاوون، حين عزم حوالي سنة ٦٨١هـ/١٢٨٢م على تكوين فرقة جديدة من المماليك، ليكون اعتماده عليها دون الفرق المملوكية السابقة، وأطلق قلاوون على أفراد هذه الفرقة اسم البرجية، نسبة إلى أبراج القلعة التي أنزلهم بها[1].

وامتد حكم دولة المماليك البرجية في مصر وبلاد الشام من سنة (٧٨٤-٩٢٣هـ/١٣٨٢-١٥١٧م)، وبذلك تكون مصر وبلاد الشام قد استمرتا تحت حكم سلاطين المماليك أكثر من قرنين ونصف، إلى أن دخل العثمانيون مصر وبلاد الشام سنة ٩٢٢-٩٢٣هـ /١٥١٦-١٥١٧م.

وهنا يمكن القول: إن لكل عصر من العصور، ولكل دولة من الدول، ولكل قوم أو شعب مميزات وفضائل يتمتعون بها وبالمقابل لهم مساوئ وأخطاء، ومن أهم مميزات دولة المماليك:

---

[1] - المقريزي: السلوك، ج١ ق٣، ص٧٥٦. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٧، ص٢٧٩. العريني (السيد الباز): المماليك، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٦٧م، ص٦٤.

١ - حمل المماليك راية الوحدة والجهاد للتصدي للمعتدي المحتل ومجابهة كل من يتجرأ على الأمة العربية الإسلامية وديارها، وهذا ما فعله المماليك عند دحرهم للمغول في معركة عين جالوت وتحريرهم لسواحل بلاد الشام من أيدي الصليبيين (الفرنجة) [١].

٢ - المحافظة على استقلال البلاد وبسط نفوذها، فقد كان المماليك غرباء عن الديار المصرية وجاؤوا من خلف البحار ولكن نشأتهم فوق أراضيها واعتناقهم الدين الإسلامي الذي جمع بينهم وبين السكان المصريين جعلهما يدافعون عن ذلك الوطن بشتى الوسائل، فحافظوا على حريته واستقلاله وبطشوا بكل من تجرأ عليه واعتدى على طرف من أطرافه [٢].

٣ - عُدّ المماليك أحد أهم النماذج المتقدمة للمجتمع المسلم العادل والملتزم بمبادئ الشريعة الإسلامية، فانتشر الإيمان الحقيقي بين فئاته، كما احتضن الخلفاء العباسيين وعلماء الدين الذين كان لهم الرأي الصائب والكلمة المسموعة [٣].

٤ - رصد الأوقاف وبذل الأموال مدفوعين إلى ذلك بعوامل عدة كالإيمان بالله، والتعطف على الفقراء، وحب الظهور والرغبة في المباهاة والتقرب إلى الشعب فنشط المماليك في إنشاء

---

[١] – عاشور (سعيد عبد الفتاح): مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٢م، ص٣٣٢.

[٢] – سالم (عبد العزيز) سالم (سمر عبد العزيز): دراسة في تاريخ الأيوبيين والمماليك، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٩٧م، ص١٩٨. سليم (محمود رزق): عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي، مطبعة المتوكل، مصر، ١٩٤٧م، ج١ق٢، ص٢٨٩، ٢٩٠.

[٣] – طقوش: المرجع السابق، ص٥٥٦، ٥٥٧.

الأربطة والسبل والمدارس والبيمارستانات والمساجد والقناطر والجسور وأوقفوا عليها الدور والأراضي والأموال[1].

٥- *حظيت المؤسسات العلمية باهتمام السلاطين والعلماء، فانتشرت أبنيتها في كافة أنحاء السلطنة لتساهم إلى جانب العلماء في إعادة تفعيل الحياة العلمية في جميع ميادين الفكر والمعرفة[2].*

٦- *انتشار المؤسسات الاجتماعية الخيرية التي أصبحت ملجأ للأيتام والفقراء وأبناء السبيل والعاجزين عن تدبير قوت يومهم، وتعد هذه الأعمال وجهاً من أوجه التكافل الاجتماعي[3].*

٧- *اتسم المجتمع في دولة المماليك بالحيوية والنشاط من خلال كثرة الأعياد والمناسبات التي كانوا يمارسونها بغض النظر عن انتماءاتهم الدينية، فكان المسلمون وأهل الذمة يحتفلون بمناسبات عدة منها عيد الأضحى والفطر وعيد مولد النبوي والاحتفال برأس السنة الهجرية وعيد وفاء النيل[4].*

---

[1] – المقريزي: الخطط المقريزية، ج٢، ص٧٠٨-٧٥٨. سليم: عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي، ج١ق٢، ص٢٩٢. عاشور(سعيد عبد الفتاح): مصر في عصر دولة المماليك البحرية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٥٩م، ص٢١٥. النهار (عمار محمد): شمس الحضارة العربية الإسلامية، دار أفنان، دمشق، ط١، ٢٠٠٨م، ص١٧٣-١٨٣.

[2] – حتي (فيليب): تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ترجمة: كمال اليازجي، مراجعة وتحرير: جبرائيل جبور، دار الثقافة، بيروت، ج٢، ص٢٨٩.

[3] – ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة، ج١، ص ٣٨-٤٣-٤٤.

[4] – عاشور (سعيد عبد الفتاح): المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، دار النهضة العربية، القاهرة، ط٢، ١٩٩٢م، ص١٩٥، ١٩٦.

٨- أسهمت المرأة في المجتمع المملوكي بشكل كبير نتيجة الحرية الكافية التي منحت لها والتي مكنتها من ممارسة نشاطات مختلفة ومتنوعة، وهذا ما دفع المجتمع المملوكي إلى أن ينظر إلى المرأة نظرة تفيض بالإجلال والتقدير[١]، وأطلقوا عليها ألقاباً عدة مثل خوند وخاتون[٢].

٩- إعادة الحياة العلمية إلى ألقها ومكانتها الرفيعة التي وصلت إليها في السابق من خلال الدور الذي قام به السلاطين والعلماء في الحياة الاجتماعية والعلمية[٣].

١٠- حرص المماليك على الاحتفاظ بمكانة مصر المرموقة والرفيعة من خلال النشاطات التجارية بين الشرق والغرب والترحيب بالتجار الأوربيين وتقديم التسهيلات لهم لتشجيعهم على مواصلة التجارة مع السلطنة المملوكية[٤].

أما مساوئ دولة المماليك فهي ما يلي:

١- أصبحت الخلافة العباسية في العصر المملوكي صورة دون مضمون أي ((**ليس فيها أمر ولا نهي وحسبه أن يقال له أمير المؤمنين**))[٥]*، فقد أعطيت الخلافة العباسية في القاهرة السلطات الدينية دون سواها، واقتصرت صلاحية الخليفة في تقليد السلطان الجديد سلطنته، والقيام*

---

[١] - عبد الرزاق (أحمد): المرأة في مصر المملوكية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩م، ص١٦.

[٢] - كان لقب خوند خاصاً بزوجات السلاطين ونراه في بعض المواضع يخاطب به السلاطين أنفسهم، أما لفظ خاتون فمعناه في الأصل أميرة ثم أصبح يستعمل لتكريم المرأة بصفة عامة مثل السيدة أو الآنسة. الظاهري (خليل بن شاهين): زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، اعتنى به: بولس راويس، المطبعة الجمهورية، باريس، ١٨٩٤م، ص ١٢١. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٧، ص٢٨١.

[٣] - لابدوس (إيرا): مدن إسلامية في عهد المماليك، ترجمة: علي ماضي، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٧م، ص١٨٢، ١٨٣. سليم: المرجع السابق، ج١ق٢، ص٢٩٦.

[٤] - زيتون: تاريخ المماليك، ص١٩٠، ١٩١، ١٩٢.

[٥] - المقريزي: الخطط، ج٣، ص٣٩٤.

بالزيارات لتهنئة السلاطين والأمراء بالشهور والأعياد[1]، ويمكن أن نشير إلى أن الخلفاء العباسيين تعرضوا أحياناً إلى الخلع والحبس، وهذا ما فعله السلطان الظاهر برقوق بالخليفة المتوكل على الله سنة ٧٨٥هـ/ ١٣٨٣م، وبقيت الخلافة العباسية على حالها حتى دخول العثمانيين بلاد الشام ومصر[2].

٢- *الصراع على عرش السلطنة: إن غياب قانون الحكم الوراثي في السلطنة المملوكية، ووصول سلاطين صغار السن أو سلاطين ضعاف إلى سدة الحكم، دفع بعض الأمراء الأقوياء إلى تدبير المؤامرات وإحداث الفتن من أجل الوصول إلى عرش السلطنة، ولذا عانت البلاد كثيراً نتيجة المنازعات المستمرة بين طوائف المماليك وفرقهم وما كان ينجم عن ذلك من حوادث وقتال في الشوارع، مما أوجد جواً من الرعب والفزع وعدم الاستقرار في البلاد[3].*

٣- *إهمالهم الحقوق السياسية: حافظ المماليك على كونهم طبقة ممتازة في المجتمع المصري لها تقاليدها وأعرافها الخاصة لأنهم جيش الدولة وموظفوها، ولم يلتفتوا إلى رغبات السكان في شؤون السلطنة من حيث اختيار السلاطين وتعيينهم[4].*

---

[1] – عاشور: المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، ص١٩٥. عاشور: مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، ص٣٣٢.

[2] – السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص٣٩١. عاشور: مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، ص٢٤٨.

[3] – العيني (بدر الدين): السيف المهند في سيرة الملك المؤيد شيخ المحمودي، تحقيق: فهيم محمد علوي شلتوت، راجعه: محمد مصطفى زيادة، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط٢، ١٩٩٨م، ص٢١٤، ٢١٥. الحجي (حياة ناصر): السلطة والمجتمع في سلطنة المماليك، لجنة التأليف والتعريب والنشر، الكويت، ط١، ١٩٩٧م، ص١٥، ١٦.

[4] – طقوش: تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، ص٣٥٢. الحجي: السلطة والمجتمع في سلطنة المماليك، ص١٦-١٨-١٠٩. سليم: المرجع السابق، ج١ق٢، ص٢٩٦، ٢٩٧.

٤- *امتاز سلاطين المماليك بالترف والبذخ دون الاقتصاد في نفقاتهم الخاصة ليخففوا عن رعاياهم وطأة الضرائب التي كانوا يفرضونها على الشعب*[١].

٥- *كثرة الفتن الداخلية: ساعد على تلك الفتن اتخاذ العصبية العنصرية كإطار عام لسياسة المماليك الداخلية التي كان يؤلفها حول نفسه كل أمير من أمراء المماليك*[٢].

٦- *اتصف النظام الإداري في العصر المملوكي في كثير من الأحيان بانتشار البذل والبرطلة (الرشوة) وكان هذا الفساد الإداري نتيجة الجشع الذي اتصف به بعض رجال الإدارة ورغبة أولي الأمر في الحصول على المزيد من الأموال التي كانوا يفرضونها على الشعب المغلوب على أمره، ووصل الفساد الإداري عند المماليك إلى درجة دفعت السلطنة المملوكية إلى إنشاء ديوان عرف بديوان (البذل البرطلة)*[٣].

---

[١] – موير (السير وليم): تاريخ دولة المماليك في مصر، ترجمة: محمود عابدين وسليم حسن، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط١، ١٩٩٥م، ص١٧٨. عاشور: المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، ص٧٢ ٧٣، ٧٤، ٧٥.

[٢] – زيتون: تاريخ المماليك، ص٦٩، ٧٠. طقوش: تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، ص٣٥١. سليم: عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي، ج١ق٢، ص٢٩٦. العريني: المماليك، ص٦٥.

[٣] – الصيرفي (علي بن داوود): نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، تحقيق:حسن حبش، مطبعة دار الكتب ، طرابلس، ١٩٧٣ م، ج١، ص ٢١٣. الشوكاني (محمد بن علي): البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، وضع حواشيه:خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٨م، ج١، ص١١١. عبد الرزاق أحمد (أحمد): البذل والبرطلة زمن سلاطين المماليك (دراسة عن الرشوة)، الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٧٩م، ص٢٩. عبد السيد (حكيم أمين): قيام دولة المماليك الثانية، تقديم: محمد مصطفى زيادة، دار القومية، القاهرة، ١٩٦٦م، ص٧٧.

٧- انحلال النظام الداخلي: حيث بات المماليك الجلبان أداة للعبث أو العدوان ضد الأهالي ونهب أموالهم وممتلكاتهم ومصدر الثورات على السلطان بحجة عدم الرضا عما يخصصه لهم هذا السلطان من نفقة وأموال(١).

٨- سوء استخدام السلاح الناري: استعمل المماليك السلاح الناري في الجيش وكانوا هم أول من استعملوا سلاح المدفعية في المشرق الإسلامي سنة ٧٤٣هـ/١٣٤٢م ومع ذلك لم يعمدوا إلى تطويره ليكون سلاحاً فعالاً وحاسماً في المعارك الكبرى(٢).

ومما تقدم يتبين للباحث والدارس لهذا العصر والناظر إليه بموضوعية فيجد لزاماً عليه إنصافه لما قدمه للبشرية من فضائل كانت لها أثرها الكبير في العالم العربي الإسلامي.

---

[١] – ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج٢، ص٢١٥-٢٤٠-٢٤١.

[٢] – سعيد (إبراهيم حسن): البحرية في عصر سلاطين المماليك ، دار المعارف، الإسكندرية، ١٩٨٣م، ص٣٠٠، ٣٠٢،٣٠١، ٣٠٤، ٣٠٥، ٣٠٦. شبارو (عصام): تاريخ المشرق العربي الإسلامي، دار الفكر اللبناني، بيروت، ط١، ١٩٩٩م، ص٣٥٠، ٣٥١.

الفصل الأول

بناء الأسطول المملوكي وأحوال موانئ مصر وبلاد الشام

أولاً _ لمحة جغرافية وتاريخية لحوض البحر الأبيض المتوسط :

يعد حوض البحر الأبيض المتوســـط من أكبر وأهم الأحواض الدّاخليّـــة في العالم، إذ يقع في قلب العالم القديم ممتداً بين إفريقيا جنوباً وأوربا شمالاً وآســـيا شرقـــاً، وله ألسنة بحرية متوغـــلة في أراضي هذه القارات ممثلة في البحر الأسود بين الشمال التركي والجنوب الروسي، وبحر إيجه بجزره العديدة بين تركيا وشبه جزيرة البلقان والبحر الأدرياتيكي، ممتداً كلسان طويل يفصل بين شبه الجزيرة الإيطالية وشبه الجزيرة البلقانية[1].

ويبلغ طول هذا البحر(٢٠٠٠) ميل[2]، ومساحته تقدر بـــ (١,١٤٥,٠٠٠) ميل مربع، وطبيعة البحر المتوسط قارية، وهذا ما له أثر كبير في اختلاف درجة حرارته ونسبة ملوحة مياهه عن المحيط، وبذلك يكون أقل تعرضاً للتيارات البحرية وعمليتي المد والجزر. واليوم يمثل البحر المتوسط في جنوب أوربا أشباه الجزر الجنوبية في إسبانيا وساحل فرنسا الجنوبي وشبه الجزيرة الإيطالية ويمتد إلى شبه الجزيرة اليونانية والجهات الساحلية في البلقان، كما يشمل الساحل الفينيقي في الشرق وساحل إفريقيا الشمالية، هذه المناطق تشكل وحدة جغرافية من حيث البنية والتضاريس، وهو من أهم البحار القارية، إذ تطوقه اليابسة من جميع الجهات، ولا تسمح له

---

[1] – القلقشندي: صبح الأعشى ،ج٢، ص ٢٣٥ — ٢٣٩. حسن (محمد إبراهيم): دراسات في تاريخ أوربا وحوض المتوسط ،مركز الإسكندرية للكتاب ،الإسكندرية، ١٩٩٩ م، ص ٢٠٩.

[2] – الميل: هو مقياس للطول كان قديماً يقاس على منتهى مد البصر، أما حديثاً، فالميل البري يساوي ١.٦٠٩كم أما الميل البحري فيقدر ب ١٨٥٢م. ابن الشحنة (محمد): الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب، دار الكتاب العربي في سورية، ١٩٨٤م، ص١٨١. أبو حرب (محمد خير): المعجم المدرسي، إصدار وزارة التربية، ١٩٨٥م، ص١٠١٥.

بالاتصال مع البحار المفتوحة إلا عن طريق ممر ضيق أطلق عليه اسم (مضيق جبل طارق)[1]، وكذلك قناة السويس التي تربطه ببحر القلزم (الأحمر) الذي بدوره يربطه بالمحيط الهندي[2].

وأطلق على هذا البحر أسماء عدة، منها بحر أمورد العظيم، والبحر الكبير، والبحر الأعلى، وبحر مغرب الشمس، كما ذكرته معظم الشعوب المحيطة به في ملاحمها، وفتنت به دون غيره من البحار، لأنها لم تعرف سواه لزمن طويل، ولذلك سمته البحر القديم[3].

ولأن هذا البحر يمثل بحيرة شبه مغلقة منذ القدم كانت الملاحة فيه سهلة جداً في كل العصور، إذ لا تصب على شواطئه باستثناء النيل، أنهار كبيرة، وكذلك حركة المد والجزر فيه تكاد تكون معدومة، بحيث لا تؤثر في حركة الملاحة البحرية، بل على العكس فدورة التيار البحري التي تجري بانتظام بصورة عامة عكس جهة عقارب الساعة وبسرعة وسطية تقارب (١ – ٣) عقدة في الساعة تساعد على إبحار السفن في موسم الإبحار الصيفي من دلتا النيل على امتداد الساحل الفينيقي أو مروراً بجزيرة قبرص على ساحل آسيا الصغرى الجنوبي، فهذا الانحناء الطبيعي في ساحل البحر المتوسط بين فينيقيا و قيليقيا يسهل الاقتراب والتعرف إلى معالم الشاطئ باتباع طريق الإبحار القديم، وخاصة بعد تطور السفن والاعتماد أكثر على تسخير الرياح واستخدام الشراع[4].

---

[1] – أبو الفداء (إسماعيل): تقويم البلدان، تصحيح: زينود والبارون، دار الطباعة السلطانية،باريس، ١٨٤٠ م، ص ٢٧ – ٣١. الجوهري (يسرى): جغرافية البحر المتوسط، منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٨٤م، ص٩–١١.

[2] – السيوطي: تاريخ الخلفاء ، ص ٢٢٨.

[3] – عثمان (هاشم): تاريخ اللاذقية، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٩٦م ،ص ١٥.

[4] – ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة ، ص ١٦٣. المقريزي: الخطط المقريزية ، ج١، ص٥٣ ،٥٤. حجازي (حسين): الموانئ والمرافئ والمراسي القديمة في ساحل القطر العربي السوري، دار أماني، دمشق، ١٩٩٢ م، ص ١٨.

وإن موقعه الممتاز المتوغل بألسنته المتعددة ومجموعاته الجزرية الشمالية وامتداده الكبير ورواسبه المتنوعة وإشرافه على ممرات بحرية تربطه بألسنته، جعلت موقعه الموقع الاستراتيجي الأول في العالم القديم[1]، ولهذا فقد أصبح المركز الأول الذي عرفه العالم ليشهد ميلاد وإرساء الملاحة بطريقة عملية، على يد سكان منطقة سواحله[2].

والاتصال البحري قديم جداً بين الشعوب، وخاصة عند الإنسان الذي عاش قريباً من البحر[3] حيث توفرت له المادة الأولى لصناعة المراكب، وتسمح الطبيعة بتوفير سبل حياة سهلة على الأرض، فكان التوجه الذي ما كان ليتم لولا الاستعداد الذي تولد لدى أولئك الذين ألفوا البحر بالعيش طويلاً على مقربة منه[4].

فمن البدهي أن يتعلم هذا الإنسان المفكر إشغال البحر وأن يتقن عمله، وبفضل ذلك حدثت لقاءات عدة وتمازج بين الجماعات البشرية، وخصوصاً ما كان منها في القارات والجزر المعزولة، وكانت ثمرة ذلك ولادة حضارات جديدة[5] من جنسيات عدة تسعى للتجارة والتقارب بين مختلف شعوبها، وعلى سطح مائه نشبت معظم المعارك البحرية الحاسمة في التاريخ القديم[6].

فكان البحر المتوسط محط أطماع القوى المتصارعة على الساحة السياسية منذ أقدم العصور، ففي البداية كان هذا البحر بحراً فينيقياً لأن الفينيقيين كانوا يسيطرون على طرق التجارة البحرية،

---

[1] – الجوهري: المرجع السابق ، ص١٤.

[2] – مصطفى أبو لقمة (الهادي) والأعور (محمد علي): الجغرافية البحرية ، دار الجماهيرية، الجماهيرية العربية الليبية، ط٢، ١٩٩٩م ، ص٢٤٣.

[3] – حجازي: المرجع السابق ، ص ١١.

[4] – أبو لقمة والأعور: المرجع السابق، ص ٢٤٣.

[5] – ابن إياس (محمد بن أحمد): نزهة الأمم في العجائب والحكم ، تحقيق: محمد زينهم ومحمد عزب، مكتبة مدبولي ، القاهرة، ط١، ١٩٩٥م، ص ١٦. حجازي: المرجع السابق ، ص ١١.

[6] – المقريزي: الخطط، ج١، ص ٥٣. عثمان: المرجع السابق ، ص ١٥.

وكانت السفن الفينيقية هي الوسيط الوحيد للنقل البحري تجوب البحار الشرقية والغربية في حرية مطلقة، فقامت بإنشاء مراكز للنشاط البحري على طول الساحل الآسيوي والإفريقي[1].

ولكن منذ الألف الأول قبل الميلاد أصبح هذا البحر محط الصراع بين الغرب والشرق، الذي دار بين الإغريق والفرس، ثم بين الفرس والهيلينيين[2].

وظل هذا البحر صلة ومعبراً بين الحضارتين على الرغم مما ألم به في أوقات الحرب والحصار والمقاطعة والضعف[3].

وعندما ظهرت الدولة الرومانية في النصف الثاني من الألف الأول قبل الميلاد استطاعت بعد معارك عدة وعنيفة مع القرطاجيين والسلوقيين والبطالمة أن تسيطر على حوض البحر المتوسط بأكمله، فصار هذا البحر مقصوراً عليهم، ولم يعد لهم منافس فيه، وظلت هذه الدولة تسيطر على حوض المتوسط خمسة قرون في ظل سلطانها، وصبغت هذا البحر بمدنيتها ووحدته بقانونها وربطته بطرقها، ولما انقسمت الدولة الرومانية إلى شرقية وغربية أصبحت مصر وبلاد الشام من أملاك الدولة الرومانية الشرقية التي عرفت بالدولة البيزنطية والتي اهتمت بالملاحة والتجارة[4].

وقد لعبت مصر وبلاد الشام في ظل وجود الإمبراطورية البيزنطية دوراً مهماً في الملاحة البحرية المتوسطية على الصعيد العسكري والتجاري لطول سواحلها وكثرة قواعدها وقوة أساطيلها التي كانت تمخر عباب هذا البحر[5].

---

[1] – حجازي: المرجع السابق، ص ١٦.

[2] – المقريزي: الخطط، ج١، ص ٥٤، ٥٥. سعيد: البحرية في عصر سلاطين المماليك، ص١٩٣.

[3] – هايد (ف): تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، ترجمة: أحمد محمد رضا، مراجعة وتقديم: عز الدين موده، الهيئة العامة للكتاب، مصر، ١٩٨٥م، ج١، ص٤١.

[4] – سعيد: المرجع السابق ، ص ١٩٤.

[5] – ابن إياس: نزهة الأمم في العجائب والحكم، ص١٦. سالم (عبد العزيز) والعبادي (أحمد مختار): تاريخ البحرية الإسلامية في مصر وبلاد الشام، مؤسسة شباب الجامعة، بيروت، ١٩٩٣م، ج١، ص٢٧١.

واستمر الأمر على هذه الحال حتى بزوغ فجر الإسلام الذي استطاع بفتوحاته الكبرى أن ينتزع من الإمبراطورية البيزنطية السيادة على موانئ مصر وبلاد الشام التي أصبحت منطلقاً للجيوش العربية الإسلامية للسيطرة على الكثير من الجزر البحرية رغبةً في نشر الدعوة الإسلامية وإسقاط العاصمة البيزنطية (القسطنطينية)، وهذا ما سوف نشير إليه في الفقرة القادمة من هذا البحث.

ثانياً – أوضاع البحرية العربية الإسلامية في الحوض الشرقي للبحر المتوسط منذ العصر الراشدي حتى نهاية الدولة الأيوبية:

يعد الانتصار الحاسم الذي حققه المسلمون على الجيوش البيزنطية في موقعة اليرموك (١٣هـ / ٦٣٤م) نقطة تحول مهمة في حركة الفتوح العربية الإسلامية، أدت إلى انهيار قوى الروم وانفصال الشام عن جسم الإمبراطورية البيزنطية[١]، وأخذت مدن الشام الكبرى في الشمال والجنوب تتساقط سريعًا الواحدة تلو الأخرى في أيدي العرب المسلمين، ولم يكد العرب المسلمون ينتهون من فتح دمشق حتى وجه يزيد بن أبي سفيان همه إلى فتح مدن الساحل الفينيقي، ولم يأتِ سنة (١٧هـ / ٦٣٨م) حتى فتحت صيدا وبيروت وجبيل وعرقا واللاذقية وجبلة وأنطرطوس[٢].

---

[١] – الواقدي (أبو عبد الله محمد بن عمر بن واقد): فتوح الشام، تحقيق: هاني الحاج ، المكتبة التوفيقية ،ج١، ص٢٢٢ ،٢٢٣. عبد العليم (أنور): الملاحة وعلوم البحار عند العرب، عالم المعرفة، الكويت، ١٩٧٩م، ص٩١.

[٢] – البلاذري (أحمد بن يحيى بن جابر): فتوح البلدان، تحقيق: عبد الله أنيس الطباع، مؤسسة المعارف، بيروت، ١٩٨٧م، ص١٧٣. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ، ج٢، ص ٢٨٠.

وتابعت القوات العربية الإسلامية فتوحها لمدن ساحل المتوسط إلى أن امتدت من أنطاكيا شمالاً وحتى برقة غرباً، حينئذ برزت أهمية الدفاع عن هذه المدن والسواحل، وأصبحت الحاجة ماسة إلى تكوين أسطول بحري قادر على حمايتها والدفاع عنها[١].

وهذا ما دفع معاوية بن أبي سفيان والي الشام في خلافة عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان رضي الله عنهم، أن يكتب إلى الخليفة عمر (١٣ – ٢٣ هـ / ٦٣٤ – ٦٤٤م)، يصف حال هذه السواحل ويقترح عليه إنشاء أسطول للغزو في البحر، فقد فطن معاوية إلى أهمية الأسطول للدفاع عن المدن الساحلية في أثناء قيام أخيه يزيد بغزو مدن السواحل، إذ كانت هذه المدن تتلقى الإمدادات من البحر، إلا أن الخليفة رد عليه وأمره ((**بالاهتمام بتمرميم حصونها وترتيب المقاتلة فيها وإقامة الحرس على مناظرها واتخاذ المواقيد لها، ولم يأذن له في غزو البحر**))[٢].

فامتثل معاوية بما أمر عمر به، ولما استخلف عثمان بن عفان رضي الله عنه (٢٣-٣٥هـ/٦٤٤ – ٦٥٦م) كتب إليه معاوية يستأذنه في غزو قبرص ويعلمه قربها وسهولة الأمر فيها، فرد عليه ينهاه عنها كما نهاه عمر من قبل، في تلك الفترة سير قسطنطين الثاني٢٠هـ/٦٤١م[٣] *إمبراطور بيزنطة حملة بحرية لمهاجمة الإسكندرية، نجحت في الاستيلاء على*

---

١ – بركات (وفيق): فن الحرب البحرية في التاريخ العربي الإسلامي، معهد التراث العلمي العربي، حلب، ١٩٩٥م، ص١٧. أرسلان (شكيب): تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط، دار الكتب العلمية، بيروت، ص١٠٨.

٢ – البلاذري: المصدر السابق، ص ١٧٥.

٣ – قسطنطين الثاني: هو أحد أباطرة بيزنطة من الأسرة الهرقلية، خلف والده هرقل على عرش بيزنطة، وكانت مدة حكمه ثلاثة أشهر، دخل في تلك الفترة القصيرة من حكمه بحروب طاحنة مع العرب المسلمين. فرح (نعيم): تاريخ بيزنطة السياسي، مديرية الكتب الجامعية، دمشق، ط ٤، ٢٠٠٤م، ص١٤٠. الجنزوري (علية عبد السميع): هجمات الروم البحرية على شواطئ مصر الإسلامية في العصور الوسطى، مكتبة الأنجلو المصرية، ط١، ١٩٨٥م، ص٢٣-٣٧.

المدينة، لكنها أخفقت في الحفاظ عليها، وذلك عندما تمكن عمرو بن العاص الذي انتدب للدفا ع عن مصر من إيقا ع الهزيمة بالبيزنطيين واسترداد الإسكندرية، وتمكن من حرق عدد كبير من السفن البيزنطية[1].

عندها أعاد معاوية الطلب مرة ثانية من عثمان بن عفان وهون عليه الأمر، فسمح له بشروط، فاستحضر الأخشاب من غابات الأرز بلبنان، وأرسلها في السفن إلى دار الصناعة بالإسكندرية التي لم يكن في مصر سواها حتى ذلك الحين، استنتاجاً لما أورده البلاذري، إذ قال: ((**الصناعة بمصر فقط**)) *لهذا السبب نشطت دار الصناعة بالإسكندرية في إنشاء قطع الأسطول الشامي المصري، واستعان معاوية بجماعة من الملاحة العرب من بني الأزد الغساسنة لإدارة العمليات البحرية[2].*

فقام في سنة (٢٨ هـــ / ٦٤٩ م) بغزو جزيرة قبرص، ثم أتبعها بفتح أرواد ورودس اللتين كانتا من القواعد البحرية العسكرية المهمة للجيوش العربية، لانطلاق الأساطيل الإسلامية ضد البيزنطيين.

وفي سنة (٣٤هـــ/٦٥٥م) قام معاوية بعد أن جمعت له الشام مع عبد الله بن أبي سرح[3] بغزوة واجها فيها الروم سميت معركة (ذات الصواري)[1]، ولهذه المعركة أهمية خاصة لأنها أول

---

[1] – البلاذري: المصدر نفسه، ص ٣١٣، ٣١٤. الطبري (جعفر بن جرير): تاريخ الرسل والملوك، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، ج٤، ص ٢٥٠. سالم (عبد العزيز): تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي، دار المعارف، مصر، ط ١، ١٩٦١م، ص ٤٣، ٤٤.

[2] – البلاذري: المصدر السابق، ص ١٦١. الطبري: المصدر السابق، ج٤، ص ٢٥٨. العبادي وسالم: المرجع السابق، ج١، ص ١٨.

[3] – عبد الله بن سعد بن أبي سرح: هو أحد ولاة مصر الإسلامية في العصر الراشدي، قام بالعديد من المعارك الحربية ضد الروم البيزنطيين، من أشهرها معركة ذات الصواري، وهو يعد أمير البحر الثاني في الإسلام بعد

نصر عربي إسلامي في معركة بحرية كبرى ضد البيزنطيين، فضلاً عن أنها أدت إلى انتزاع السيادة على مياه البحر المتوسط من قبضة الروم[2].

وما إن استتب للأمويين حكم العالم العربي الإسلامي (٤١-١٣٢هـ/٦٦١-٧٥٠م) حتى تطلعوا إلى فرض السيطرة العربية الإسلامية على خطوط البحر الأبيض المتوسط، والقضاء على الدولة البيزنطية التي تنافس المسلمين في هذا البحر، فشرع معاوية بن أبي سفيان في تحقيق مشروعه لفتح القسطنطينية، فقام في سنة (٤٩هـ/ ٦٦٩م) بتوجيه حملة لفتح هذه المدينة لكنها فشلت بسبب النار الإغريقية، كما قام معاوية بتوجيه حملة ثانية إلى القسطنطينية سنة (٥٤هـ/٦٧٤م)، لكنها فشلت مرة أخرى بسبب النار الإغريقية أيضاً، إضافة إلى الرياح الهوجاء التي دمرت عدداً كبيراً من السفن العربية الإسلامية[3].

وعندما تولى الوليد بن عبد الملك الخلافة الأموية سنة (٨٦-٩٦هـ/ ٧٠٥-٧١٥م) جهز حملة لفتح القسطنطينية، لكنه توفي وخلفه أخيه سليمان بن عبد الملك سنة (٩٦-٩٩هـ/٧١٥-٧١٨) الذي أكمل استعدادات أخيه وسلّم الحملة لأخيه مسلمة بن عبد

معاوية بن أبي سفيان. الكندي(أبو عمر محمد بن يوسف): كتاب الولاة وكتاب القضاة، طبع بمطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، ١٩٠٨م، ص١٤-٢٥. الجتروري: المرجع السابق، ص٣٩.

[1] – ذات الصواري: هي إحدى المعارك البحرية الكبرى في حوض المتوسط التي جرت قرب شواطئ ليكيا بين العرب المسلمين والروم البيزنطيين في العصر الراشدي، سميت بذات الصواري لكثرة صواري المراكب واجتماعها. الكندي: المصدر نفسه، ص١٢. فرح: المرجع السابق، ص ١٥٧.

[2] – الطبري: المصدر السابق، ج٤، ص ٢٨٨. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج١، ص ١١٧.

[3] – ابن الأثير: المصدر السابق ، ج٣، ص ٣١٤ – ٣٤٤ – ٣٦٥. جاويش (سليمان بن خليل بن بطرس): التحفة السنية في تاريخ القسطنطينية، دار صادر، بيروت، ط١، ١٨٨٧م، ج١، ص٨. فرح: تاريخ بيزنطة السياسي، ص ١٥٧، ١٥٨.

الملك، ففشلت الحملة مرة أخرى، ومنيت البحرية العربية الإسلامية بخسائر فادحة أثناء الانسحاب.

وعلى الرغم من هذه الخسائر التي واجهها المسلمون في محاولات فتح القسطنطينية فإنهم استطاعوا أن يفرضوا سيطرتهم على كثير من موانئ البحر المتوسط وخطوطه، وخاصة في حوضه الغربي[1].

وعندما انتقلت الخلافة العربية الإسلامية إلى بغداد بعد انتصار العباسيين على الأمويين في معركة الزاب (١٣٢هـ/٧٥٠م)، فقدت الدولة العربية الإسلامية طابعها البحري، وأصبحت دولة قارية، مما جعل مهمة الدفاع عن البلاد البحرية الإسلامية من اختصاص ولاتها أنفسهم[2].

ومع ذلك فقد تملكت بعض الخلفاء العباسيين الأوائل الرغبة في تنشيط العمليات البحرية والقضاء على دولة الروم.

فقد أراد هارون الرشيد (١٧٠ – ١٩٣ هـ / ٧٨٧ – ٨٠٩ م) أن يصل بين بحر الروم (المتوسط) وبحر القلزم (الأحمر) في بلاد الفرما (قرب بور سعيد) نحو بلاد تنيس[3]، فنصحه يحيى

---

[1] – ابن كثير: البداية والنهاية، ج٩، ص١٧٤، ١٧٥. ابن الأثير: المصدر السابق، ج٤، ص٣٠٤، ٣٠٥. فرح: المرجع السابق، ص ١٧٤ – ١٨٠.

[2] – أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، ج١، ص ٢٦٤. المسعودي (علي بن الحسين): مروج الذهب ومعادن الجوهر، علق عليه: قاسم وهب ، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ط١، ١٩٨٩م، ج٣، ص٥.

[3] – تنيس: هي جزيرة في البحر المتوسط قريبة من البر ما بين الفرما ودمياط. المسعودي (أبي الحسن علي بن الحسين): أخبار الزمان ومن أباده الحدثان وعجائب البلدان والغامر بالماء والعمران، دار الأندلس، بيروت، ١٩٩٦م، ص٤٨، ٤٩. ياقوت الحموي: معجم البلدان، مج٢، ص٥١. أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٣٩.

ابن خالد البرمكي[1] بالانصراف عن تنفيذ ذلك، وخوّفه من دخول مراكب الروم في البحر الأحمر وتهديد الحجاز، فعدل الرشيد عن فكرته[2].

وعلى نهج الرشيد تابع خلفاؤه، وخاصة في عهد حفيده المتوكل على الله أبي الفضل جعفر بن المعتصم (٢٣٢ – ٢٤٧هـ / ٨٤٧ – ٨٦١م)، حيث زاد الاهتمام بالأسطول بعد إغارة الروم على دمياط، وقُتل فيها جمع كبير من العرب المسلمين، وسبي النساء والأطفال، فأنشأت الشواني برسم الأسطول، وجعلت الأرزاق لغزاة البحر كما هي لغزاة البر، كما انتدب الأمراء له الرماة، فاجتهد الناس في تعليم أبنائهم الرماية وجميع أنواع المحاربة، وانتُخب له القواد والعارفون بمحاربة العدو، فكان لا يترل في رجال الأسطول غشيم ولا جاهل بأمور الحرب، كذلك قام عنبسة بن إسحاق والي الخلافة العباسية في مصر بتحصين كافة الموانئ المصرية، كما قام في الوقت نفسه بإنشاء صناعة السفن التي ظلت موضع عناية ولاة مصر[3].

---

[1] – يحيى بن خالد البرمكي: هو من ألمع الشخصيات الفارسية في خلافة بني العباس، كان سديداً صائب الآراء، حسن التدبير، قوياً على الأمور، عهد الخليفة المهدي إليه بتربية ابنه هارون الرشيد وتأديبه، وعندما اعتلى هارون الرشيد سدة الخلافة عهد إليه منصب الوزارة وجعل إصدار الأمور وإيرادها إليه، وعندما شعر الرشيد بخطر البرامكة على الخلافة العباسية عزله وزجه في السجن. ابن الطقطقا (محمد بن علي بن طباطبا): الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، دار صادر، بيروت، ص١٩٨-٢١٠. ابن خلكان (شمس الدين أحمد بن علي): وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨م، ج٦، ص٢٢١. الخطيب البغدادي (عبد القاهر بن طاهر بن محمد):تاريخ بغداد، تحقيق وطبع: أوفست كونرو غرافير، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٦٧م، ج٤، ص١٢٩. الجهشياري (محمد بن عبدوس): الوزراء والكتاب، تحقيق: مصطفى السقا وآخرين، مطبعة البابي الحلبي وأولاده، مصر، ط١، ١٩٣٨م، ص٢٤٣.

[2] – السيوطي: تاريخ الخلفاء ، ص ٢٢٨. مبارك (علي باشا): الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة، بولاق، ط٢، ١٣٠٥هـ، ج١٤، ص٣٣٥.

[3] – المقريزي: الخطط المقريزية، ج٣، ص ٩. الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج٩، ص١٩٣، ١٩٤، ١٩٥.

وقد ساعدت الأحداث السياسية في مصر والشام على الاهتمام بالأسطول وتقويته، فقد قامت فيها ولاية مستقلة عن بغداد استقلالاً اسمياً وهي الدولة الطولونية (٢٥٤-٢٩٢هـ/٨٦٨-٩٠٥م)، وكان أول هؤلاء الولاة أحمد بن طولون (٢٥٤-٢٧٠هـ/٨٦٨-٨٨٣م) الذي منح الأسطول عناية خاصة بتقوية تحصينات شواطئه لمواجهة البيزنطيين الذين كانوا يترقبون الفرصة للإغارة على سواحل مصر والشام، هذا بالإضافة إلى حرص أحمد بن طولون على المحافظة على طرق الاتصال البحري بين مصر وبلاد الشام[1].

مما فرض عليه ضرورة الاهتمام بالأسطول، ولا يخفى علينا أن أحمد بن طولون أحس بالحاجة إلى الأسطول عندما أقلقته سياسة الموفق أخي الخليفة العباسي المعتمد على الله (٢٥٦-٢٧٩هـ/٨٧٠-٨٩٢م) العدائية تجاهه وتفكيره في تقويض النفوذ الطولوني في مصر والشام، وهنا تأمل أحمد بن طولون وضع مصر، فرأى أنها لا تفتح إلا من جهة نيلها ، فأراد أن يبني حصناً على الجزيرة التي بين الفسطاط والجيزة (وهي جزيرة الروضة حالياً) ليكون معقلاً لحرمه وذخائره وليستعملها بعد ذلك لحرب من يأتي لغزو مصر[2].

وكذلك بنى في عكا استحكامات قوية، وجدد حصونها وأسوارها، كما أنه اهتم بتحصين بقية الموانئ الشامية، وهذا ما أدى إلى ازدياد فعالية الأسطول الطولوني في مصر والشام ، حتى عُدّ الأسطول المصري الشامي في مقدمة الأساطيل العربية الإسلامية. وأخذت الأساطيل

---

[1] – ابن أيبك الدواداري: كنز الدرر وجامع الغرر، ج١، ص١٦٩، ١٧٠. محمود(حسن أحمد): حضارة مصر الإسلامية في العصر الطولوني، دار الفكر العربي، القاهرة، ص٤٢. العبادي (أحمد مختار): في التاريخ العباسي والفاطمي، دار النهضة، بيروت، ص١٢٩-١٣٥.

[2] – البلوي (أبو محمد عبد الله بن محمد المديني): سيرة أحمد بن طولون، تحقيق: محمد كرد علي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ص ٨٦. المقريزي: الخطط، ج١، ص٨٨١. ج٢، ص٢٣.

الطولونية بمهاجمة البيزنطيين في عقر دارهم عوضاً عن خطط الدفاع. وعندما توفي أحمد بن طولون ترك أسطولاً بلغ تعداد سفنه الحربية والتجارية نحو ألف مركب[1].

وعندما قامت الدولة الإخشيدية في مصر وبلاد الشام سنة (٣٢٣-٣٥٨هـ/٩٣٥-٩٦٩م) على أنقاض الدولة الطولونية عني محمد بن طغج الإخشيدي (٣٢٣-٣٣٤هـ/٩٣٥-٩٤٦م) بإنشاء المراكب الحربية، فنقل جزءاً من دار صناعة السفن من جزيرة الروضة إلى الفسطاط في دار عرف باسم (صناعة السفن)[2].

لكن الباحث في ذلك العصر لم يستطع الوقوف على تطور أو تغيير في النظم البحرية الإخشيدية، وأمام صمت المراجع في هذا الصدد يرى الباحث أن الدولة الإخشيدية، التي قامت مباشرة على أعقاب الدولة الطولونية، لم تحدث تغييراً يذكر على أنواع السفن، أو حتى على النظم البحرية، كما أن عمر الدولة الإخشيدية لم يطل كثيراً ليمكنها من إحداث تغيير في النظم البحرية، حربية كانت أم مدنية، *اللهم إلا ما كان من أمر نقل دار صناعة السفن سنة (٣٢٥هـ/ ٩٣٦م) من جزيرة الروضة إلى دار خديجة بنت الفتح بن خاقان، زوجة أحمد بن طولون، وكانت هذه الدار بساحل الفسطاط*[3].

---

[1] - البلوي: المصدر نفسه، ص١٠٩، ١١٠. ابن تغري بردى: النجوم الزاهرة، ج٣، ص٥٤. خربوطلي (شكران) زكار (سهيل): الحضارة العربية الإسلامية ، منشورات جامعة دمشق، دمشق، ٢٠٠٦م، ص٧٦.

[2] - المقريزي: الخطط ، ج٣، ص٢٤.

[3]- أبي سعيد (علي بن موسى المغربي): المغرب في حلى المغرب، ليدن، ١٨٩٩م، ج٤، ص١٣-١٨. المقريزي: المصدر السابق، ج٣، ص٢٤. كاشف (سيدة إسماعيل): مصر في عهد الإخشيديين، مطبعة جامعة الفؤاد الأولى، القاهرة، ١٩٥٠م، ص٢٤٩، ٢٥٠.

ثم كان العصر الفاطمي الذي شهد عناية بالأسطول والبحرية، ظهرت واضحة في عهد الخليفة الفاطمي المعز لدين الله (٣٤١-٣٦٥هـ/٩٥٢-٩٧٥م) الذي قام بحركته الكبرى صوب الشرق، إذ كان يؤيده جيش ضخم بقيادة قائده جوهر الصّقليّ[1]، وسرعان ما وقعت مصر في قبضته دون قتال، فقضى على الحكم الإخشيدي فيها[2]، ورأت الخلافة الفاطمية في مصر (٣٥٨-٥٦٧هـ/٩٦٩-١١٧١م)، – على أثر تهديد البيزنطيين لبلاد الشام التي كانت تابعة لمصر، واستيلائهم على أمهات مدنها، مثل أنطاكيا وحلب – أنها بحاجة ماسة إلى أسطول قوي، لذلك نالت البحرية الإسلامية اهتمام الخليفة المعز، فأمر بإنشاء المراكب البحرية، واقتدى به خلفاؤه من بعده، الذين كان لهم اهتمام بأمور الجهاد واعتناء بالأساطيل، فواصلوا إنشاءها في الإسكندرية ودمياط، وقد تنوعت سفنهم بين شواني وشلنديات ومسطحات، سيروها إلى بلاد الساحل مثل صور وعكا وعسقلان[3].

وكانت الحاجة لهذا الأسطول أشد ما تكون، فسرعان ما هاجمت القوات البيزنطية سورية والإسكندرية، لكن القوات الفاطمية استطاعت أن تتصدى لها وتحقق الكثير من الانتصارات، وأسرت عدداً من رجال البحر البيزنطيين، عندها لم يجد البيزنطيون بداً من مهادنة الفاطميين، وكان للأسطول الفاطمي ميزانية ضخمة من غلال الإقطاعات المحبوسة عليها، ولم يزل الأسطول محل عناية الفاطميين حتى عهد العاضد لدين الله (٥٥٥-٥٦٧هـ/١١٦٠-١١٧١م)، آخر

---

[1] – جوهر الصقلي: هو من أشهر القادة العسكريين في الخلافة الفاطمية، ولد في جزيرة صقلية، كان له دور كبير في توسع الخلافة الفاطمية في المغرب الإسلامي ومصر، قام ببناء مدينة القاهرة والجامع الأزهر في مصر. إبراهيم حسن (علي): تاريخ جوهر الصّقليّ قائد المعز لدين الله الفاطمي، مطبعة السعادة، القاهرة، ط٢، ١٩٦٣م، ص٩-١٥-١٦-٧٥-٩٤-٩٥.

[2] – الذهبي: العبر في خبر من غبر، ج٢، ص ١٠٢. ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ج٤، ص٦١.

[3] – ابن العماد: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج٤، ص ٣٤٦. المقريزي: الخطط، ج٣، ص١٤.

خلفائهم، الذي توفي فاستقل وزيره صلاح الدين الأيوبي بحكم مصر مؤسساً بذلك لحقبة زمنية جديدة[1].

تطلع صلاح الدين إلى بناء أسطول بحري قوي للدفاع عن بلد يطل على أكبر وأهم بحرين (المتوسط والأحمر) ولتحرير المدن الساحلية ومراقبة السفن الصليبية (الفرنجة)، ومهاجمة القوافل الحربية وقطع خطوط المواصلات الصليبية البحرية، عندها أنشأ تغييراً شاملاً في تنظيم البحرية المصرية من خلال قيامه بعدد كبير من الإصلاحات البحرية، فأنشأ ديواناً خاصاً سماه (ديوان الأسطول) سنة (٥٧٧ هـ/ ١١٨١م) وسلمه لأخيه العادل الأيوبي، ورفع رواتب البحارة لتشجيع الناس على خدمة الأسطول، وسمح لعدد كبير من الملاحين المهرة من شمال إفريقيا بالانضمام إلى أسطوله[2].

وقد مكنت هذه الإصلاحات صلاح الدين من تحقيق الانتصارات على الصليبيين (الفرنجة)، فألحق بهم هزائم ساحقة، كما استولى على معظم قواعدهم البحرية في بلاد الشام، وأسر عدداً

[1] – المقريزي (أحمد بن علي): اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، تحقيق: جمال الدين الشيال، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، ١٩٦٧م، ج١٢، ص ٢٧٧. القلانسي (أبو يعلى حمزة): ذيل تاريخ دمشق، مكتبة المتنبي، القاهرة، ص٥٠. الأنطاكي (يحيى بن سعيد): تاريخ الأنطاكي المعروف بصلة تاريخ أوتيخا، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، جروس برس، طرابلس، لبنان، ١٩٩٠م، ص ٢٤١. ابن شداد (بهاء الدين أبو المحاسن يوسف): النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية أو سيرة صلاح الدين، تحقيق: جمال الدين الشيال، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١، ١٩٦٤م، ص٨٦. القرماني: أخبار الدول وآثار الأُوَل في التاريخ، ج٢، ص٢٥٠.

[2] – ابن مماتي (الأسعد): قوانين الدواوين، تحقيق: عزيز سوريال عطية، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط١، ١٩٩١م، ص ٣٣٩، ٣٤٠ –٣٤٦. أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج١، ص٥٩٨.

كبيراً من الصليبيين، وغنم من هذه الغزوات أقوام كانت لا تعرف عين الدرهم ولا وجه الدينار[1].

لكن القوة البحرية العربية الإسلامية في شرق المتوسط سرعان ما تعرضت لضربات موجعة من قبل الصليبيين (الفرنجة)، فانحط شأن الأسطول وصار الاهتمام به يتوقف على مدى قوة وضعفه الخطر الصليبي على السواحل العربية الإسلامية، واستفحل الأمر بالبحرية الإسلامية في أواخر عهد الأيوبيين إلى درجة أنه كان يقبض على الرجال في الطرقات ويقيدون بالسلاسل نهاراً ويسجنون ليلاً حتى لا يهربوا عندما تدعو الضرورة الملحة لتجهيز الأسطول، وقد أشار المقريزي إلى ذلك بقوله: ((... **وكان رجال الأسطول يعاملون أسوأ معاملة، بل أشد سوءاً من أسرى الأعداء، ومن أعمال السخرة، فقد كان لا يصرف لهم إلا شيء قليل من الخبز ونحوه، وربما أقاموا الأيام بغير شيء، فصارت خدمة الأسطول عاراً يسب به الرجال، وإذا قيل لرجل في مصر يا أسطولي، غضب غضباً شديداً بعدما كان خدام الأسطول يقال لهم المجاهدون في سبيل الله والغزاة في أعداء الله، ويتبرك بدعائهم الناس**))[2].

واستمر الأمر على هذه الحال حتى قيام سلطنة المماليك التي منحت الأسطول عنـــاية فائـــقة، فاستطاعت أن تحقق به الكثير من الانتصارات التي سنذكرها بالتفصيل.

---

[1] – أبو شامة: المصدر نفسه، ج٢ ، ق٢، ص ١١. ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية أو سيرة صلاح الدين، ص١٤٠-١٤٦.

[2] – المقريزي: الخطط، ج٣، ص ١٧، ١٨.

ثالثاً – اهتمام سلاطين المماليك بالأسطول والبحرية:

تشهد مياه البحر الأبيض المتوسط أنه من بين كل الأساطيل العربية لم تستطع قوة بحرية إسلامية أن تثبت وجودها في مصر والشام بشكل ملحوظ سوى القوى البحرية المملوكية، حيث لقب بعض المؤرخين دولة المماليك بدولة البرّين والبحرين، إشارة إلى أنها تحكم بريّ مصر والشام وتشرف على مياه البحرين المتوسط والأحمر(١) وهذه إشارة واضحة إلى مدى إدراك المعاصرين لأهمية الجانب البحري في حياة تلك الدولة، الأمر الذي جعل سلاطين المماليك يهتمون بالأسطول ويولونه كل عناية في عصر تحملت فيه مصر والشام عناء الدفاع عن الأمة العربية الإسلامية ضد الصليبيين (الفرنجة)، ومن أجل ذلك ترتب عليهم إنشاء الأساطيل وبناء السفن على مختلف أنواعها وتجهيزها بالرجال والسلاح وتكليفها بحراسة الشواطئ وتفقد السواحل، فإذا وجدو أحداً من قطاع الطرق قمعوه، وإن لم يجدوا أحداً كانت الجولة إرهاباً للعدو(٢).

وقد مر الأسطول من حيث الاهتمام به في عصر سلاطين المماليك بمراحل عدة من القوة والضعف، فكان يقوى بقوة السلطان الحاكم، والعكس صحيح. من ذلك أن السلطان الظاهر بيبرس البندقداري اشتهر بين سلاطين المماليك بعنايته الفائقة بأمر الأسطول، وكان قد حدث في نهاية الدولة الأيوبية في مصر أن تعرض الأسطول للإهمال، فنظر الظاهر بيبرس في أمر الشواني الحربية، وأمر بالاهتمام بالثغور وإنشاء الشواني، وقطع الخشب لعمارتها وإقامتها على ما كانت عليه في أيام الملك الصالح نجم الدين أيوب(٣).

---

١ – الدواداري المنصوري (بيبرس): زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، مكتبة الجامعة المصرية، ج٩، ص٦٦.

٢ – الظاهري: زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، ص ٦٦، ٦٧.

٣ – المقريزي: الخطط، ج٣، ص ١٨.

والواقع أن اهتمام بيبرس بالأسطول إنما كان ركناً من أركان سياسته في محاربة الصليبيين (الفرنجة) الذين سيطروا على أجزاء من ساحل الشام ودأبوا انطلاقاً منها على تهديد شواطئ العرب المسلمين في مصر وبلاد الشام[1].

ومن مظاهر اهتمام بيبرس بالأسطول منع الناس من التصرف بأخشاب الغابات واحترازه على الحراج، وتمثل هذا الأمر كذلك بذهابه بنفسه لتفقد العمل في دور الصناعة بالروضة، فاستطاع بذلك أن يعد أسطولاً مكوناً من أربعين قطعة حربية سيرها إلى جزيرة قبرص سنة ٦٦٩هـ/ ١٢٧٠م، ولكن هذا الأسطول قد تحطم قرب هذه الجزيرة ولما علم بيبرس بذلك شرع في إنشاء أسطول آخر، وظل يتردد على دار الصناعة حتى تم إعداده[2].

وسار على منوال بيبرس كل من جاء من بعده من السلاطين، فقد أدرك السلطان المنصور قلاوون (٦٧٨ – ٦٨٩ هـ/١٢٧٩-١٢٩٠م) أهمية الأسطول في محاربة الصليبيين (الفرنجة) وتأمين طرق التجارة البحرية، لذلك كان لا بد من أن يُعنى بتأمين مياه مصر ورعاية نفوذها، أما من الناحية العسكرية فقد أراد المنصور قلاوون من وراء الاهتمام بالأسطول تحرير مدينة عكا ومدن الساحل الشامي، لكن المنية عاجلته، فتابع ابنه السلطان الأشرف خليل (٦٨٩ – ٦٩٣هـ/١٢٩٠-١٢٩٣م) الاهتمام بالأسطول الذي مكنه من تحرير سواحل بلاد الشام[3].

---

[1] – الحسين (قصي): في الحضارة العربية حتى العصرين المملوكي والعثماني، المؤسسة الحديثة للكتاب، طرابلس لبنان، ط ١، ٢٠٠٤ م، ص ٣٤٨.

[2] – المقريزي: الخطط ، ج٣ ، ص ١٨.

[3] – ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ، ج٧ ، ص ٢٧٦. ج٨ ، ص ٤ – ٩. القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ج١١ ، ص ٤٠٥ – ٤٠٧. الكتبي (محمد بن شاكر): فوات الوفيات، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٧٢م، ج١، ص٤٠٦.

ولم تقتصر العناية بالبحرية على هؤلاء السلاطين بل شمل الإصلاح كامل العهد المملوكي، وكانت الأسباب التجارية والحربية هي التي دعت إلى الاهتمام بأمر الأسطول، فالسلطان الناصر محمد بن قلاوون اهتم بالأسطول لغزو بلاد اليمن وجزيرة رودس وتحرير أرواد من الصليبيين (الفرنجة) الذين تجمعوا فيها بعد تحرير مدينة عكا[1].

وليس أدل على مبلغ اهتمام مصر بالقوة البحرية في عهد الناصر محمد بن قلاوون من قول المقريزي يصف الاحتفال بإنزال الشواني إلى البحر استعداداً للسفر إلى طرابلس:

((وفي محرم سنة ٧٠٢ هـ تنجزت عمارة الشواني وجهزت بالمقاتلة والآلات مع الأمير جمال الدين أقوش القاري العلائي والي البهنسا، واجتمع الناس لمشاهدة لعبهم في البحر، فركب أقوش في الشيني الكبير وانحدر تجاه المقياس فانقلب بمن فيه، وكان قد نزل السلطان والأمراء لمشاهدة ذلك واجتمع من العالم ما لم يحصهم إلا الله تعالى؛ وبلغ كراء المركب الذي يحمل عشرة أنفس إلى مئة درهم، وامتلأ البرّان من بولاق إلى الصناعة بالناس حتى لم يوجد موضع قدم خال، ووقف العسكر على بر بستان الخشاب، وركب الأمراء الحراريق إلى الروضة، وبرزت الشواني لكثرة ما كان فيها من المقاتلة والنفوط وآلات الحرب ثم تقدم الرابع وفيه أقوش فما هو إلا أن خرج من منية الصناعة بمصر وتوسّط النيل، إذا بالريح حرّكه فمال به ميلة واحدة انقلب وصار أعلاه أسفله ،كادت تسقط منها ذات الأحمال وتكدر ما كانوا فيه من الصفو، وتلاحق الناس بالشيني وأخرجوا ما سقط منه في الماء فلم يعد منه سوى أقوش وسلم الجميع وعاد السلطان والأمراء إلى القلعة وانفض الجمع. وبعد ثلاثة أيام أخرج الشيني ووقع العمل في إعادته حتى تنجز وندب الأمير سيف الدين كهرداش الزرّاق

---

[1] – اليافعي: مرآة الجنان وعبرة اليقظان ، ج٤ ، ص ١٧٧.

المنصوري للسفر عوضاً أقوش القارئ فسار إلى طرابلس بالشواني واستجد منها ستين مقاتلاً من المماليك سوى البحرية والمطوعة))[1].

وفي عهد حفيده السلطان الأشرف شعبان[2] *(٧٦٤-٧٧٨هـ/١٣٦٣-١٣٧٧م) تعرضت الإسكندرية لغزو جزيرة قبرص بقيادة بطرس لوزينيان سنة ٧٦٧ هـ / ١٣٦٥م، حيث كان الأشرف شعبان صغير السن لم يتجاوز الحادية عشرة من عمره، وكان قد استبد بالحكم الأمير يلبغا الخاصكي*[3]*، وبعد هذه الحادثة أبدى يلبغا الاهتمام بالأسطول للرد على جزيرة قبرص، لكنه لم يتم ذلك لأن المنية وافته*[4].

واستمر الأمر على هذا الحال حتى كان العصر المملوكي الثاني، فأولى السلطان برقوق أول سلاطين المماليك البرجية (الجراكسة) (٧٨٤-٨٠١ هـ/ ١٣٨٢- ١٣٩٨م) الأسطول المصري

---

[1] - المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ق ٣، ص ٩٢٨. المقريزي: الخطط، ج٣، ص٢٠.

[2] - الأشرف شعبان: هو السلطان الأشرف شعبان بن الحسين بن الملك الناصر محمد بن الملك المنصور قلاوون، ولي السلطنة على مصر سنة ٧٦٤هـ/ ١٣٦٢م وقتل سنة ٧٧٨هـ/١٣٧٦م. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١١، ص ٧٤. المقريزي (أحمد بن علي): الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك، تحقيق: جمال الدين الشيال، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط١، ٢٠٠٠م، ص١٤٩-١٥١. ابن حجر العسقلاني (أحمد بن علي): الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٣م، ج٢، ص١٩٠.

[3] - الأمير يلبغا بن عبد الله العمري الخاصكي الناصري: أحد كبار أمراء المماليك في مصر، وكان المتكلم عن السلطان في ذلك الزمان، قتل بأمر السلطان المملوكي الناصر حسن سنة ٧٦٨هـ/ ١٣٦٦م. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١١، ص ٧٤. ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٨، ص ٧٢٤، ٧٢٥. ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة،ج١، ص٣٥٠. ج٤، ص٤٣٨، ٤٣٩، ٤٤٠.

[4] - ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ، ج١١، ص ٢٥، ٢٦. صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، تحقيق: كمال الصليبي و فرنسيس هورس، بيروت ، ١٩٦٩م، ص ١٥.

اهتماماً خاصاً لتطوير النشاط التجاري المملوكي والرد على عدوان القراصنة الصليبيين (الفرنجة) الذين دأبوا على مهاجمة سفن البلاد العربية الإسلامية وسواحلها[١].

ثم كان عصر الأشرف برسباي (٨٢٥ – ٨٤١ هـ / ١٤٢١ – ١٤٣٧م) العصر الذهبي للأسطول المملوكي في المتوسط، إذ تميز عن غيره من العصور بفتح جزيرة قبرص، وكان الاهتمام بالأسطول في هذه الفترة واضحاً إذ أدى الأسطول دوراً رئيسياً في فتح هذه الجزيرة[٢].

أما في عهد الظاهر جقمق (٨٤٢ – ٨٥٧ هـ/ ١٤٣٨ – ١٤٥٣م) الذي أراد فتح جزيرة رودس وتوسيع نشاط الحركة التجارية للعرب المسلمين في حوض المتوسط، فقد اهتم هو الآخر ببناء السفن وتشييد الأساطيل ليتوج عهده بالتاج نفسه التي تحلى به عهد سلفه الأشرف برسباي، لكن هدفه لم يتحقق في فتح جزيرة رودس[٣]*، ثم كان عهد الأشرف قانصوه الغوري (٩٠٦ – ٩٢٢ هـ / ١٥٠١ – ١٥١٦م) الذي شهد عصره أكبر صراع بين القوى العربية الإسلامية والصليبية المتمثلة بالبرتغاليين، لذلك اهتم السلطان الغوري بالأسطول للحفاظ على مكانة السلطنة المملوكية من الناحية التجارية والتصدي للبرتغاليين الذين وضعوا مع العثمانيين نهاية عصر السلطنة المملوكية في مصر وبلاد الشام*[٤].

---

[١] – ابن حجر العسقلاني (أحمد بن علي): إنباء الغمر بأبناء العمر في التاريخ، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٦م، ج٢، ص ١٢٧. الجبرتي: عجائب الآثار في التراجم والأخبار، ج١، ص٣٥، ٣٦.

[٢] – القرماني: أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ، ج٢، ص ٣٠٧. الصيرفي: نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، ج٣ ، ص ٧٦ – ٨٤.

[٣] – السخاوي (شمس الدين محمد بن عبد الرحمن): التبر المسبوك في ذيل السلوك، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ١٠٥٣هـ، ص ٨٧ – ٨٨. ابن حجر العسقلاني: المصدر السابق، ج٩، ص١٢٧، ١٩٩، ٢١٦.

[٤] – ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج٣ ، ص ١٠٤٤. الجبرتي (عبد الرحمن بن حسن): تاريخ الجبرتي، دار الشعب، مصر، ط٢ ، ١٩٩٣ م، ج١. ص ١٣.

رابعاً– صناعة السفن عند المماليك:

عُدّت العمليات البحرية عنصراً رئيسياً من القوة العسكرية المملوكية وجزءاً أساسياً من الخطط الإستراتيجية في الجيش المملوكي، وتوضح الطبيعة العسكرية لهذه السلطنة بشكل جلي الأهمية التي اكتسبها الأسطول البحري في الفكر السياسي والعسكري المملوكي إذ أنهم كانوا يمارسون بسياستهم الخارجية سياسة القوى العسكرية التي يشكل الأسطول البحري إحدى أهم كفتيها.

لذا أولى سلاطين المماليك أهمية كبرى لديوان الأسطول الذي ورثوه عن الدولة الأيوبية، ولقب رئيس هذا الديوان بصاحب الأسطول وكان له ميزانية مستقلة عن ميزانية الجيش، خصص أحد بنودها لبناء لسفن والاهتمام بالموانئ [1] *إذ بدأ الاهتمام ببناء السفن في عهد الظاهر بيبرس كما ذكرنا سابقاً، فكان يترل بنفسه كلما سنحت له الفرصة لزيارة دار صناعة السفن ومستلزماتها*[2] *وارتبطت صناعة السفن في مصر بضرورة توفر أخشابها والأدوات اللازمة لصناعتها مثل الحديد والقار والحبال والسلاسل والمسامير وما إلى ذلك من أدوات أخرى، ولذا فقد توجب على مصر أمام ذلك إقامة العلاقات التجارية مع مختلف الدول الآسيوية والأوربية المنتجة لهذه المعدات*[3] *فقد كانت مصر تستورد أخشابها من سورية ومن جبال بلاد الشام وكذلك البندقية التي كانت مصدراً لأخشاب السفن منذ القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي*[4].

---

[1] – ابن مماتي: المصدر السابق، ص٣٣٩، ٣٤٠-٣٤٦.

[2] – المقريزي: الخطط، ج٣، ص١٧.

[3] – ابن إياس: بدائع الزهور، ج٤، ص١٦٣- ١٩٦.

[4] – آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة عبد الهادي أبو ريدة، بيروت، ١٩٦٧م، ج٢، ص٤٢٣.

وقد أرسل السلطان قانصوه الغوري البعثات أكثر من مرة إلى بلاد العثمانيين وغيرها لشراء كميات من أخشاب السفن والحديد والحبال ومستلزمات سفنه التي بناها عند ميناء السويس أو رشيد بولاق[1] خاصة أخشاب السنط اللازمة لبناء السفن التي كانت توجد بكثرة في جنوب الدلتا وصعيد مصر وشبه جزيرة سيناء.

وفي عهد الفاطميين والأيوبيين أخذت تقل وصار العوام والخواص يقطعون ما يحتاجونه لعمل السواقي وآلات المعاصر وغيرها، فلم يكد ينتهي القرن الثالث عشر الميلادي إلا و حراج الدلتا حول القاهرة والمطرية وقيلوب والجيزة قد اختفت تماماً ثم تلتها حراج الصعيد، ويأتي المقريزي في القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي ليؤيد ذلك بقوله: ((**وقد بطل هذا جميعه واستولت الأيدي على تلك الأشجار فلم يبق منها شيء البتة**))[2].

هذا وقد كان شجر السنط من أهم الأخشاب التي استعملت في بناء المراكب، ولم يكن أحد يملك الحق بالتصرف في ثمرها سوى مستخدمي الديوان[3]، وكان يجر هذا النوع من الأخشاب إلى السواحل حيث يحمل في النيل إلى ساحل مصر لعمل الشواني[4]، ومن الأخشاب التي استعملت في بناء السفن خشب القتطاريات والمجاذيف، كانت من الزان، كذلك كانت هناك النشاب وألواح الصنوبر وشوح جنوى وصوارى وعيدان سنديان وحطام المراكب[5].

---

١ - ابن طولون (محمد بن علي): مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، وضع حواشيه: خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ق١، ص٣٣٧، ٣٣٨.

٢ - المقريزي: الخطط، ج١، ص١٢٠.

٣ - ابن مماتي: المصدر السابق، ص٣٤٤- ٣٤٧.

٤ - المقريزي: الخطط، ج٢، ص٢٧٢.

٥ - ابن مماتي: المصدر السابق، ص٣٦٤، ٣٦٥.

ووجد بجانب هذه الأنواع شجر اللبخ الذي وصف بأنه إذا نشر أرعف ناشره، وكان حين ينشر يبلغ ثمن اللوح منه حوالي خمسين ديناراً استعمل هذا النوع من الخشب في بناء مراكب البحر الأحمر على وجه الخصوص لأنه في حال ضم لوحان منه وجعلا في الماء لمدة سنة التحما وصارا لوحاً واحداً[1]، وكان خشب اللبخ من أغلى أنواع الخشب الذي استعمله المصريون في ذلك العصر في صناعة المراكب وكان منبته مدينة أنصنا[2]، أما عن الحديد فقد استعمل أنواع عدة منه في صنع المراكب كحديد طوب والحديد البنادقي وحديد مرزم وحديد سكين وحديد رأس الكلب وحديد سكر وحديد جنوى ومسمار وكلها كانت تستورد من الخارج مثل بلاد جنوه والبندقية وبلاد العثمانيين[3] وكانت السفينة تبنى بوضع الهراب أو سيف السفينة على الأرض وتربط إليه ألواح أفقية على كلا الجانبين بخيوط من الليف ولم تكن المسامير معروفة بل كانت عيدان النخيل تقوم مقامها كدسر وذلك حتى القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي، ثم استعملت المسامير بعد هذا التاريخ وكانت الدفة الجانبية هي السائدة ثم ظهرت الدفة المزدوجة، وأما الشراع فكان ينسج من ألياف أوراق جوز الهند أو من القطن أو الكتان[4]، ويتم ترك الخشب مدة ليجف بعد طليه وإعداده حتى تظهر الشقوق واضحة وحتى يسهل ملؤها

---

[1] - البغدادي (عبد اللطيف): الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر، مطبعة وادي النيل، ط١، ١٢٨٦هـ، ص٨.

[2] - أنصنا: هي إحدى المدن التي تقع في صعيد مصر شرقي النيل وفيها آثار كثيرة تعود إلى مراحل مختلفة من التاريخ وينسب إلى أنصنا قوم من أهل العلم. انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج١، ص٣٦٥، ٣٦٦. الحموي:(محمد ياسين) تاريخ الأسطول العربي، مطبعة الترقي، دمشق، ١٩٤٥م، ص٢٥.

[3] - ابن مماتي: المصدر السابق، ص٣٦٤، ٣٦٥.

[4] - عبد العليم: الملاحة وعلوم البحار عند العرب، ص٨٤ – ٨٦.

بالقار أو الشمع المذاب، ثم تكسى الألواح من الخارج بطبقة من القار أو الشمع أو الاثنين معاً[1].

وكانت السفن تأخذ أشكال الطيور، فيجعلون رأس السفينة أو مقدمتها على شكل طير من الطيور كالغراب، أو يصنعونها على أشكال الأسماك كالبطس وهو اسم نوع عظيم من السمك أو على أشكال الحيوانات البحرية الأخرى، وأخص هذه الحيوانات هو الحوت[2]، ولابد من التوضيح أن صناعة السفن لدى المماليك تأثرت بغارات الأوربيين على المدن الساحلية، لاسيما أن السفن كانت تصنع في الثغور كالإسكندرية وقوص ودمياط واللاذقية وعكا وفي جزيرة الروضة والمقس في القاهرة، حيث كانوا يعمدون إلى إتلاف السفن والمواد الأولية معاً كما حدث سنة ٧٨٩هـ / ١٣٨٧م عندما هاجم الجنويون ساحل بلاد الشام، وأتلفوا في طرطوس السفن والأخشاب المعدة للصناعة[3].

خامساً – أهم أجزاء السفن وبعض المصطلحات الملاحية:

١- ***القلع:*** *بالكسر وهو الشراع ويجمع على قلاع[4].*

٢- ***المجاذيف:*** *وهي آلات و أعواد خشبية طويلة استعملت لقذف السفينة في الماء، واختلفت أعدادها تبعاً لنوع السفينة وحجمها، فمثلاً كانت العربات تجري بمئة وثمانين مجذافاً والشيني يجري بثمانين مجذافاً أو تسعين. أما طريقة التجذيف في مصر فقد اختلفت*

---

[1] سعيد: البحرية في عصر سلاطين المماليك، ص٢٣٦.

[2] عبادة (عبد الفتاح): سفن الأسطول الإسلامي وأنواعها ومعداتها في الإسلام، مطبعة الهلال، مصر، ١٩١٣م، ص٢٢.

[3] الصيرفي: نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، ج١، ص١٥٢.

[4] هندي (إحسان): الحياة العسكرية عند العرب أو الجيش العربي في ألف عام ٥٠٠–١٥٠٠م، مطبعة الجمهورية، دمشق، ١٩٦٤م، ص١٨٦ – ١٨٨.

عنها في البلاد الأخرى كالعراق مثلاً فالمصريون كانوا يجذفون إلى ورائهم، فبذلك يشبهون حسب وصف عبد اللطيف البغدادي الحبالين في مشيتهم القهقرى ويشبهون في تحريكهم السفن من يجذف ثقلاً بين يديه ويمشي به إلى خلفه، وبالتالي كانت السفن المصرية تتحرك عكس الجهة التي يتجه إليها الملاح[1].

٣- **المرادي والقيقلان:** خشبة تدفع بها السفينة ورأسها في الأرض[2].

٤- **الأنجر:** هو الهلب أو المرس التي تستخدمه السفينة عند رسوها، فتلقيه في بقعة معينة من البحر، فتثبت في مكانها دون أن تقذف بها المياه بعيداً عن مرساها، وكان يصنع من أخشاب مفرغة ثم يصب فيها الرصاص المذاب فتصبح ثقيلة حتى تكاد تكون كصخرة ضخمة، وقد احتفظت كل سفينة بعدد من هذه المراسي أو الأناجر[3].

٥- **الدقل:** سهم السفينة وأصله الأول.

٦- **الجؤجؤ:** صدر السفينة.

٧- **الكوثل:** ذنب السفينة[4].

٨- **القلس:** حبل ضخم كان يصنع من الليف أو الخوص، وقد احتفظت به السفينة ليستعمل في شدها أو جذبها إلى البر أو لربط السفن بعضها ببعض عند الحرب والضرورة[5].

٩- **الدسر:** هي حبال من ليف أو كتان، تشد بها السفن[1].

١- البغدادي: المصدر السابق،ص٤١.

٢- الحموي: المرجع السابق، ص٥٠ وما يليها.

٣- آدم متز: المرجع السابق، ج٢، ص٤٢٤.

٤- هندي: المرجع السابق، ص ١٨٦ – ١٨٨.

٥- الحموي: المرجع السابق، ص٥١.

١٠- ***المتلمظة:*** *مكان خاص كان يجلس فيه رئيس الملاحين.*

١١- ***السلوقية:*** *مقعد الربان في السفينة.*

١٢- ***النول:*** *وهي ما يدفعه المسافر إلى المركب الآخر*(٢).

١٣- ***الصواري والشرع:*** *كانت الصواري والشرع من أهم أجزاء السفينة، وعليها يقع العبء الأكبر من سيرها وحركتها، اتخذت صواري السفن في العصور الوسطى من أشجار جوز الهند أو من أخشاب الساج التي استوردت من بلاد الهند*(٣).

أما الشرع فقد صنعت من التربل المكون من خليط أعشاب وألياف الكتان والبردي(٤).

١٤- ***الدفة أو السكان:*** *دفة السفينة هي التي تقع في مؤخرتها ومهمتها إدارة السفينة وتوجيهها وقد أطلقوا عليها تسمية (سكان) لأنها تسكن بها السفينة عن الحركة والاضطراب*(٥) *وكانت دفات السفن تجري في البحر تحرك بحبلين*(٦).

١٥- ***الغريفة:*** *وهي قمرة صغيرة في أعلى عمود السفينة يجلس فيها حارس يراقب البحر، في حين مشاهدته لسفن العدو يخبر طاقم السفينة ليأخذوا استعدادهم لمواجهتها، واستعملت هذه القمرة لرمي مراكب العدو بقدور النفط والحجارة*(٧).

---

١ - ابن منكلي (محمد الناصري): الأحكام الملوكية والضوابط النموسية في فن القتال في البحر، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، ص٢٧، ٢٨، ابن جبير (محمد بن أحمد): رحلة ابن جبير، دار صادر، بيروت، ص٤٧.

٢ - الحموي: المرجع السابق، ص٥١.

٣ - النويري السكندراني (محمد بن قاسم): الإلمام بالإعلام بما جرت به الأحكام المقضية في وقعة الإسكندرية، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، ج١، ص٦٧٤.

٤ - ابن جبير: المصدر السابق، ص٤٤.

٥ - ابن منكلي: المصدر السابق، ص٣٣، ٣٤.

٦ - المقدسي (شمس الدين): أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مطبعة بريل، ليدن، ١٩٠٦ م، ص١٢.

٧ - ابن منكلي: المصدر السابق، ص١٨ – ٣٣، ٣٤

أما عن أشهر المصطلحات الملاحية فهي:

١ - ***قلفظ أو قلفط السفينة:*** *أي سد خروق مراكب البحر بالدسر المصنوع من عيدان النخيل.*

٢ - ***دم السفينة:*** *طلاؤها بالقار.*

٣ - ***نتخ:*** *وهي بمعنى صدم، وتستعمل هنا لدخول المراكب إلى الموانئ، ويقال لها: ندخ البر*[1].

سادساً – تجهيز السفن المملوكية وأسلحتها:

اختلفت التجهيزات الخاصة بالقطع البحرية اختلافاً كثيراً، وذلك تبعاً لحجم كل قطعة بحرية ووظيفتها في عباب البحر، فهناك تجهيزات تموينية وأمنية وطبية، وذلك فضلاً عن المعدات والآلات الحربية.

أما التجهيزات الأمنية *الخاصة بالمحافظة على سلامة السفينة فتشمل: احتياطي العدد والآلات وقطع الغيار التي تحتاجها السفينة، ومن ذلك أعداد احتياطية من المجاذيف والحبال والبكرات والصواري والقلوع حتى إذا استهلك وتلف شيء من ذلك وجد ما يخلفه ويحل محله، ومن قطع الغيار الاحتياطية العود والبخور والقرابص وألواح من الخشب والمشاق والزفت السائل واليابس وذلك من أجل إصلاح أي ثقب أو عطب مفاجئ في عرض البحر، وذلك يستوجب بالضرورة وجود فئة من الفنيين على ظهر كل سفينة*[2].

---

[1] - عبد العليم: المرجع السابق، ص٢٦.

[2] - سعيد: المرجع السابق، ص٢٣٧.

أما المواد التموينية *فتشمل: المياه العذبة والزاد من كل شيء كالخبز والخضر والفواكه والبقول وغير ذلك من المواد التموينية الغذائية التي يحتاج إليها البحارة في عرض البحر لمدة زمنية طويلة، وكانت تخرج من مخازن الغلال السلطانية[1].*

وكان زاد رجال الأسطول من الكعك والبقسماط وذلك نظراً لصلاحيتهما للأكل لمدة طويلة وكان للقواعد البحرية أهمية كبيرة في تموين السفن، فكان من الضروري أن تضمن السفن لنفسها ثغوراً آمنة تلجأ إليها لكي تحصل على كل ما يلزمها من مواد تموينية وإصلاحات ضرورية[2].

أما المعدات الطبية *فكان لها أهميتها الكبيرة وعلى وجه الخصوص الأدوات الجراحية اللازمة لعلاج المقاتلين من الإصابات التي تحدث في أثناء القتال، وتتطلب علاجاً سريعاً[3]، وكان البحريون يصحبون معهم أيضاً القراء المؤذنين والقصاص، فيدخلون جميعاً في خدمة المقاتلين[4].*

أما المعدات الحربية والأسلحة، *فقد عرف البحريون المصريون أسلحة عدة، إذ كانوا يستخدمون في أسطولهم أثناء قتالهم مع أعدائهم الأسلحة الآتية :*

١- الدبابة: *وهي شبه برج متحرك له أربعة أدوار، أولها من الخشب وثانيها من الرصاص وثالثها من الحديد ورابعها من النحاس الأصفر، وتتحرك على عجلات ويصعد إلى طبقاتها الجنود لمهاجمة الحصون وتسلق الأسوار، وكانت توضع بالشواني[1].*

---

١ - الظاهري: المصدر السابق، ص١٢٢، ١٢٣. ماهر (سعاد): البحرية في مصر الإسلامية وآثارها الباقية، دار الكتاب العربي، الجيزة، ١٩٦٧م، ص٣٠٣، ٣٠٤.

٢ - الصيرفي: المصدر السابق، ج٣، ص٨٧.

٣ - المقريزي: السلوك، ج٢ ق٣، ص٦٤٢، رزق (علاء طه): دراسات من تاريخ عصر سلاطين المماليك، دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط ١ ، ٢٠٠٨م، ص١٥٤.

٤ - الحسين: المرجع السابق، ص٣٣٥-٣٣٧.

٢- الكباش: آلة متصلة بالدبابة، ولها رأس ضخم وقرنان يدفعها الجنود نحو الأسوار لتهديمها[٢].

٣- العرادة: أصغر من المنجنيق يرمي بها النفط المشتعل على الأعداء، وتوضع في الحراقة[٣].

٤- اللجام: أداة كالفأس طويلة محددة الرأس جداً وأسفلها مجوف كسنان الرمح تدخل من أسفلها في خشبة كقناة بارزة في مقدم المركب يقال له السطام فيصير اللجام كأنه سنان رمح بارز فيحتالون لطعن المراكب فيخترقها وتنصب المياه فيها[٤].

٥- مكاحل البارود: هي المدافع التي يرمى عنها النفط، وهي أنواع، فبعضها يرمي عنه بأسهم عظام تكاد تخرق الحجر، وبعضها يرمي عنه ببندق من حديد من زنه عشرة أرطال بالمصري إلى ما يزيد على مئة رطل. وقد صنعت هذه المدافع من النحاس أو الحديد، وكانت هذه المكاحل من أهم معدات الأسطول الحربية وخاصة في العصر المملوكي المتأخر[٥].

٦- الباسليقات: وهي عبارة عن رمانة حديد بعصا حديد مربوطة بالمركب بسلاسل، تستخدم في محاولة إحراق مركب العدو عن طريق قذفها إليه مرات عدة حتى يتحقق الغرض[٦].

٧- المَنْجَنِيْق: بفتح الميم وسكون النون وفتح الجيم وكسر النون الثانية وسكون الياء وقاف في الآخر، وقيل منجنوق بالواو ومنجميق بإبدال النون الثانية ميماً، وهو اسم أعجمي[٧]، والمنجنيق

---

١ - الزردكاش (ابن أرنبغا): الأنيق في المناجيق، تحقيق: إحسان هندي، معهد التراث العلمي العربي، جامعة حلب، ١٩٨٥م، ص١٧ حاشية (١). ابن منظور: لسان العرب، ص ١٣١٥. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج٢، ص١٤٠.

٢ - الحموي: المرجع السابق، ص٦٦. الزردكاش: المصدر نفسه، ص١٧ حاشية (٢).

٣ - المقريزي: السلوك، ج١، ص٦٢ حاشية (٤).

٤ - الحسن بن عبد الله: آثار الأول في ترتيب الدول، القاهرة، ١٣٠٥هـ، ص١٩٧.

٥ - القلقشندي: صبح الأعشى، ج٢، ص١٣٧، ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ج١١، ص٣٢.

٦ - سعيد: المرجع السابق، ص٢٤١.

٧ - القلقشندي: صبح الأعشى، ج٢، ص١٣٦.

هو من أعظم الآلات الحربية القديمة وأشدها تأثيراً ولاسيما في عمليات الحصار، فالمسلمون استعملوا المنجنيق لأول مرة في حصار الطائف وكان الرسول ﷺ أول من رمى به من المسلمين، وذلك بناءً على إشارة من الصحابي سلمان الفارسي رضي الله عنه [1] وهو آلة من خشب لها دفتان قائمتان بينهما سهم طويل رأسه ثقيل وذنبه خفيف، وفيه تجعل كفة المنجنيق التي يجعل فيها الحجر يجذب حتى ترفع أسافله أعاليه، ثم يرسل فيرتفع ذنبه الذي فيه الكفة فيخرج الحجر منه فما أصاب شيئاً إلا أهلكه وما يلتحق بالمنجنيق الزيارات وهي اللوالب والحبال التي يجذب بها المنجنيق حتى ينحط أعلاه ليرمي به الحجر[2]، وكانت المنجنيقات من أهم المعدات الحربية التي حملتها السفن، إذ لا يمكن الاستغناء عنها في البر والبحر، وإن كانت الضرورة إليها في البحر أشد وأقسى، وكانت المنجنيقات أول سلاح يستعمله الأسطول في الهجوم على مراكب العدو، ويعد المنجنيق بمترلة مدفعية التدمير في عصرنا الحديث[3].

٨- الجرخية: *جمعها جروخ، وهي آلة حربية تستعمل لرمي السهام والنفط والحجارة والبندق ويطلق على مستخدميها من الجند جرخي[4].*

٩- الزراقون: *ومعناه رامي النفط من الزراقة وهي الأنبوبة التي يزرق بها النفط[5].*

١٠- الكلاليب: *وهي عبارة عن خطاف كبير الحجم من الحديد تكون مربوطة إلى المركب بسلاسل وتستعمل لإيقاف مراكب الأعداء أو جذبها، فعندما تدنو مراكب الأعداء تلقى عليها*

---

١ - ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مج٢، ص١٤٠. الزردكاش: المصدر السابق، ص١٦-١٨.

٢ - القلقشندي: صبح الأعشى، ج٢، ص١٣٧.

٣ - ماهر: البحرية في مصر الإسلامية وآثارها الباقية، ص٢٢١.

٤ - المقريزي: السلوك، ج١، ص١٠٠٣. البستاني (بطرس): محيط المحيط، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٨٣م، ص١٠٠. زيدان (جرجي): تاريخ التمدن الإسلامي، راجعه وعلق عليه: حسين مؤنس، دار الهلال، ج٥، ص١٨٠، ١٨١.

٥ - المقريزي: المصدر نفسه، ج١، ص٥٩٨.

الكلاليب لتوقفها ثم تجذب وترمى عليها ألواحٌ كالجسور يعبر عليها الغزاة إلى مراكب الأعداء[١]، عندها تصبح المعركة أقرب ما تكون إلى معركة البر، ويتم إبطال مفعول الكلاليب بقطع سلسلتها بفأس حادة من الفولاذ فلا يستطيع الأعداء الوصول إليهم[٢].

١١- *التوابيت:* *صناديق مفتوحة وموضوعة في أعلى الصواري، يصعد إليها الرجال ومعهم حجارة صغيرة في مخلاة معلقة بجانب الصندوق فيرمون العدو بالأحجار وهم مستورون بالصناديق، وقد يستعملون قوارير النفط للاشتعال أو جراراً مملوءة بمسحوق النورة ويرمون بها مراكب العدو فيعمى الرجال بغبارها وقد تلتهب عليهم إذا تبددت، أو يرمون عليهم بقدور من الفخار يضعون فيها حيات وعقارب فتنكسر وينتشر ما فيها، ويزيد من هول فعلها في السفن لضيق المكان أو يرمون عليهم قدور الصابون اللين الذي يزلق أقدامهم فوق خشب السفن الناعم[٣].*

١٢- *اللتوت والدبابيس والمستوفيات:* *وهي على شكل عمد من حديد لها رؤوس مستطيلة الشكل مضرسة تصنع عادة من الحديد، ومقابض اللتوت عادة من الخشب المحكم التدوير، والدبابيس لا تختلف عن اللتوت إلا في رؤوسها فهي مدورة مضرسة، أما المستوفيات فهي عمد من الحديد مربعة الشكل طويلة يبلغ طول العمود منها ذراعين، وله مقبض مستدير، وكان جميعها تستخدم في تهشيم الخوذات المعدنية[٤].*

---

١ - الحسن بن عبد الله: المصدر السابق، ص١٩٧.

٢ - الحسن بن عبد الله: المصدر نفسه، ص ١٩٧.

٣ - القلقشندي: المصدر السابق، ج٢، ص١٣٨. الحموي: المرجع السابق، ص٧١. الزردكاش: المصدر السابق، ص٢٩-١٩٣.

٤ - القلقشندي: صبح الأعشى، ج٢، ص١٣٥. البستاني: المرجع السابق، ص٢٦٨-٨٠٧.

١٣- النار اليونانية أو الإغريقية: *هي من الأسلحة المهمة والفتاكة، وهي في الأصل اختراع المشارقة ومخترعها (جيبون) وهو رجل من بعلبك يسمى (كالينيكوس) نقله إليهم، استخدمت في وقت مبكر بوصفها عاملاً مؤثراً في الحروب، عرفها المماليك واستخدموها وكانت تتركب من مزيج النفط والزيت والكبريت المجمد بنوع من الصمغ القابل للاشتعال، وكان هذا المزيج يوجد في أنابيب من النحاس لها فم طويل يوقد منها وفي مؤخرتها قوس يدفعها بقوة الضغط إلى الأمام، كانت تلك الأنابيب النحاسية توضع بكميات كبيرة في اسطوانة هائلة مستديرة وتلقى في موضوع المنجنيق ثم تقذف على العدو فتصليه ناراً حامية[١].*

١٤- الستائر: *وهي آلات الوقاية من الطوارئ وما في معناها مما يستر به على الأسوار والسفن التي يقع فيها القتال[٢].*

وكذلك استخدم الغزاة في العمليات القتالية البحرية الزرد- الخوذ- التراس- الرماح — العصي- الدرع[٣].

ومن تجهيزات السفن أيضاً:

١- الإبرة المغناطيسية: *استخدمت السفن في العصور الوسطى الإبرة المغناطيسية في الملاحة لترشدها في مجاريها ولتهديها سبلها وكانت تلك الإبرة بمنزلة دليل للملاحين، أما تكوينها في عصرهم فكان عبارة عن علبة خشب تركب فيها قشرة خشب أيضاً معروفة عند أهل البحر، لها خرطوم فيه إبرة بوساطة القشرة ومربوط بها، ثم يجعل في وسط القشرة سهم قائم ويجعل فوق*

---

[١] - الزردكاش: المصدر السابق، ص١٧حاشية (٣). عدوان (أحمد محمد): العسكرية الإسلامية في العصر المملوكي، عالم الكتب، الرياض، ١٩٨٥م ص٦٦. فرج: المرجع السابق، ص١٥٧، ١٥٨.

[٢] - القلقشندي: صبح الأعشى، ج٢، ص١٣٨

[٣] - القلقشندي: المصدر نفسه، ج٢، ص١٣٢-١٣٦. ابن سيده (علي بن اسماعيل): المحكم والمحيط الأعظم، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط١، ٢٠٠٠م، ج٩، ص٢٠.

هذه الإبرة زجاجة لتحفظ ما بداخل العلبة من الهواء الخارجي، فإذا كان السحاب ليلاً ولم ير نجمة في السماء يطوف الرئيس الحجر عنها فتصبح دائرة إلى أن تقف في مقابلة القطب الثابت في السماء، فيستطيع الرئيس تعيين أو تحديد المكان الذي يريد الاتجاه إليه[1].

٢- الإسطرلاب: *آلة كان يحملها رئيس المراكب ليحدد بها ساعات النهار والليل وكذلك الجهات التي يحتاج الاتجاه نحوها كالقبلة مثلاً*[2] *وقد صنعت هذه الآلة من دائرة نحاسية لها رسومات خاصة تحدد الوقت والجهة*[3].

وكانت هناك بعض الاحتياطات التي تتخذها السفن في أثناء الحرب، فإذا جن الليل لا يشعلون في مراكبهم ناراً ولا يتركون فيها ديكاً وإذا أرادوا المبالغة في الاختفاء أسدلوا على المراكب قلوعاً زرقاً فلا تظهر من بعد[4].

سابعاً- أنواع السفن المستخدمة في العصر المملوكي:

صُنع بمصر في عصر المماليك نوعان من السفن حربية ونيلية، فالحربية هي التي كانت تبنى لغزو العدو وهي التي تكوّن منها الأسطول المملوكي، وكانت تشحن بالسلاح وآلات الحرب والمقاتلة وكان يقال لمجموع هذه السفن الحربية عند العرب مصطلح الأسطول. أما السفن النيلية فقد كانت تصنع لتبحر في النيل حاملة حاصلات البلاد بين جهات الوجهين القبلي والبحري[5].

والسفن كما عرفها ابن خلدون: ((**هي أجرام هندسية صنعت على قالب الحوت واعتبار**

---

١ - النويري السكندراني: المصدر السابق، ج١، ص٣٨٠، ٣٨١. جاويش: التحفة السنية في تاريخ القسطنطينية، ج١، ص٩.

٢ - ماهر: المرجع السابق، ص٢٥٨.

٣ - النويري السكندراني: المصدر السابق، ج١، ص٤١٣، ٤١٤.

٤ - بركات: المرجع السابق، ص١٤٣.

٥ - المقريزي :الخطط، ج٣، ص٥.

سبحه في الماء بقوادمه وكلكله ليكون ذلك الشكل أعون لها على مصادفة الماء، وجعل لها عوض الحركة الحيوانية التي للسمك تحريك الرياح وربما أعينت بحركة المجاذيف كما في الأساطيل)) *وقد احتاجت هذه الصناعة إلى جهد كبير من الفن والهندسة*[1].

أما أهم أنواع السفن البحرية فهي:

١ - السفينة: *وردت في الشعر الجاهلي والقرآن وهي الجارية في سفنه وسميت بذلك لقشرها وجه الماء وصانعها سفان وحرفته السفانة*[2] *قال تعالى: ((**فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين**))*[3].

٢ -بركوش: *أحد أنواع المراكب، قال عنها ابن مماتي: ((**والبركوش لطيف لنقل الماء لخفته يدخل على المواضع ويكون وسقه دون مائة أردب**))*[4]*، وذكر الأصفهاني أن البركوش كان يستعمل لحمل الجند والناس عامة وكذلك لنقل المتاجر والأموال، وكانت تبلغ حمولة هذا النوع من السفن من الرجال حوالي خمسة وعشرين رجلاً*[5].

---

١ - ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد): مقدمة ابن خلدون، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٩٢م، مج٢، ص٣٢٥، ٣٢٦.

٢ - سرهنك (إسماعيل): حقائق الأخبار عن دول البحار، مكتبة الاعتماد، مصر، ١٩٨٦ م، ص٥٢١، ٥٥٢. الحموي: المرجع السابق، ص٣٠ وما يليها.

٣ - القرآن الكريم: سورة العنكبوت، الآية ١٥.

٤ - ابن مماتي: المصدر السابق، ص٣٤٠. الأردب: وحدة وزن للمحاصيل الزراعية كان يستخدم زمن الدولة العربية الإسلامية. المقريزي: السلوك، ج١، ص٦٤.

٥ - الأصفهاني (العماد): الفتح القسي في الفتح القدسي، تحقيق: محمد محمود، مطبوعات من الشرق والغرب، القاهرة، ١٩٦٥م، ص٤٦١. أبو شامة: المصدر السابق، ص١٨٧.

٣-القرقور: *وهي من السفن العظيمة التي تحمل الزاد والكراع للأسطول وأصل اسمها بالأسبانية (كاراكما)[١] جمعها قراقر وقراقير كان صاحبها يسمى بلغة الفرنج (قبطان) ويسمى بالعربية (رئيس المراكب)[٢] اختلفت صفات هذا النوع من السفن، إذ كان بعضها مكوناً من ثلاثة طوابق، وقد اتخذت كل الاحتياطات اللازمة لحماية هذه السفينة في البحر، فوجد في جوانبها مياذيب مصنوعة لتصفية ما قد يعلو سطحها من مياه البحر في حالة هيجانه ويكبر حجمها، كان لها ثلاثة قلوع كبيرة تدفعها الرياح لتسييرها في البحر، وكان لكل قلع اسم خاص به، فالقلع الواحد يسمى (بنيطة) والثاني (أرفون) والثالث (دركاكو)[٣] وكانت تحمل من البضائع ما يحمله المئتان من الإبل[٤].*

٤- القوارب: *مفردها قارب، من سفن الحرب التي استعملها رماة العرب المسلمين في الحروب البحرية يكون في كل قارب أربعة أو خمسة من الرماة ليساعدوا غربان المسلمين، وقد تميزت القوارب المصرية بسرعة دورانها وخفتها وتفوقها على مراكب الفرنج[٥].*

٥- الخلية: *جمعها (خلايا)، وهي سفينة عظيمة تسير من غير أن يسيرها الملاح، وكان يتبعها زورق صغير يقال له الشبكة (أو الركوة)[٦].*

٦- القياسية: *جمعها قياييس، وهي سفينة للإبحار في المياه قليلة العمق كشواطئ البحار، وتكون عادة عريضة المساحة قليلة الارتفاع بطيئة السير[١].*

---

١ - الحموي: المرجع السابق، ص٣٠ وما يليها.

٢ - النويري السكندراني: المصدر السابق، ج١، ص٣٧٧.

٣ - النويري السكندراني: المصدر نفسه، ج١، ص٣٧٧، ٣٧٨- ٥٣١.

٤ - عبادة: المرجع السابق، ص٦. ماهر: المرجع السابق، ص٣٦٢- ٣٦٤.

٥ - النويري السكندراني: المصدر السابق، ج١، ص٣٧٨.

٦ - الحموي: المرجع السابق، ص٣١. ماهر: المرجع السابق، ص٣٤١.

٧- حمالة: *مركب مخصص لحمل الغلال كانت تستخدم في الأعمال الحربية عند الخروج للغزو في البحر، كانت تحمل غلمان الخيالة*[٢] *وصناع المراكب، واستخدمت في حمل آلات الحرب والحصار من الأخشاب والدبابات وأبراج الزحف وغيرها من معدات الأسطول*[٣]*، وكانت من السفن التي شاركت في غزو قبرص على عهد الأشرف برسباي سنة ٨٢٨هـ/ ١٤٢٥م*[٤]*.*

٨- أرباع الكيل: *وصفها ابن مماتي بأنها مراكب تعمر من الحراج، فإذا وصلت إلى ساحل السنط قومت ونودي عليها فمهما بلغت طولب مالكها بحق الربع من القيمة عما أخذه من خشب العمل*[٥]*.*

٩- البرصاني: *وهو نوع من السفن كان يستعمل في الأزواد والأقوات للجنود، وذكره خليل بن شاهين الظاهري عند كلامه على بناء أسطول جديد لغزو جزيرة قبرص عام ٨٢٨هـ/ ١٤٢٥م*[٦]*.*

١٠- درمونة: *جمعها درامين نوع من المراكب استعملت لحمل الغلال من الإقطاعات إبان زيادة النيل*[٧]*.*

١١- المعادي: *استخدمت بوصفها وسيلة لحمل الركاب والمقاتلين من الشواطئ إلى السفن الكبار التي لم تكن تستطيع الرسو في الميناء واتخذت عرض البحر مكاناً لرسوها*[١]*.*

---

١ - المقريزي: السلوك، ج٢، ق١، ص٣٣.

٢ - غلمان مفردها غلام: وهو الذي يقوم بخدمة الخيل، وهذا اللفظ في أصل اللغة مخصوص بالصبي الصغير والمملوك، ثم غلب على هذا النوع من أرباب الخدم. القلقشندي: صبح الأعشى، ج٥، ص٤٧١.

٣ - ابن مماتي: المصدر السابق، ص٣٣٩. عبادة: المرجع السابق، ص٧.

٤ - صالح بن يحيى: المصدر السابق، ص٢٢٠، ٢٢١.

٥ - ابن مماتي: المصدر السابق، ص٣٤٨.

٦ - الظاهري: المصدر السابق، ص١٤٢

٧ - النويري السكندراني: المصدر السابق، ج١، ص٣٨٨.

١٢- بطسة: *الجمع بطسات وبطس، وبطسة مركب للحرب وللتجارة اشتهر هذا النوع من السفن أيام الحروب الصليبية (الفرنجية)، حيث كان يستعمل في حمل المجانيق والمقاتلة والسلاح والذخيرة، كانت عظيمة الحجم كثيرة القلوع، وقد يصل عدد القلوع في البطسة الواحدة إلى أربعين قلعاً كما كانت مكونة من طوابق عدة كانت تفرش بالبسط، وقد تفوقت في الحرب على الشواني وقد اختلف في جملة ما تستوعبه من المقاتلين، فقيل ستمئة وخمسين وقيل سبعمئة*[2].

١٣-الصندل: *مراكب حربية كبيرة مسطحة لحمل المقاتلة والسلاح، وهي أوربية الأصل*[3].

١٤-البارجة: *نوع من المراكب أسفلها مستو مسطح، أول ما أنشاه الهولنديون، واستخدم في الأعمال الحربية*[4].

١٥-السميريات: *جمع سميرية من سفن البحر والنهر عرفت منذ القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي، وهي معدة لنقل آلات الحرب والسلاح والمقاتلة والرماة والملاحين، كان بها حوالي أربعين مجذافاً، وقيل إنها كانت تستعمل بعد انتهاء الحروب في التجارة والأسفار*[5].

١٦-بنف: *والجمع بنوف، وهي نوع من المراكب الصغيرة من توابع الأسطول في العصر المملوكي*، وقد ذكره صالح بن يحيى وقال: ((**واجتمت المراكب كلها في طرابلس، ومنها ست بنوف صغار**))[1].

---

[1] - ابن حجر العسقلاني: المصدر السابق، ج٢، ص١٣٩

[2] - النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، ج٢٩، ص٣٢٣. المقريزي: السلوك، ج١،ق١، ص٧٧. البستاني: المرجع السابق، ص٤٤. سعيد: المرجع السابق، ص٢٢١-٢٢٣. النخيلي (درويش) :السفن الإسلامية على حروف المعجم، دار المعارف مصر، ١٩٧٨م، ص٢٤. عاشور (سعيد عبد الفتاح): قبرس والحروب الصليبية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٢م، ص٩٠.

[3] - البستاني: المرجع السابق، ص٥٢٠. الخطيب (محمد) :تاريخ الحضارة، دار علاء الدين، ص٢٧٤، ٢٧٥.

[4] - بركات: المرجع السابق، ص١٥٤. الخطيب: المرجع نفسه، ص٢٧٤، ٢٧٥.

[5] - خانكي (جميل) :تاريخ البحرية المصرية، مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٤٨م، ص١٢٤، ١٢٥.

١٧ -جفن وجفنة: *وجمعها أجفان، وهي نوع من السفن أشبه بالقصعة، فهي إذاً دائرية والجفنة من سفن الغزو والحرب وقد ذكرها ابن بطوطة في الرحلة بأن الجذافين يجذفونها فيه قياماً وجميعهم في وسط المركب*[٢] وقد وضعها النويري السكندراني ضمن قائمة المراكب التي تستعمل في البحر الأبيض المتوسط[٣].

١٨ -جلاسة: *كلمة فرنسية معربة وهي نوع من السفن الحربية الكبيرة التي تسير بالشراع والمجاذيف، وهي أثقل وأقوى من النوع المسمى الشيني*[٤].

وقد نفهم من ذلك أنها تضاهي البسطة من حيث الأهمية الحربية وكانت هذه السفن شائعة الاستعمال في البحر المتوسط[٥].

١٩ -الشيني أو الشونة: *وهي مركب طويل من المراكب المعدة للغزو في البحر وهي أقدم أنواع السفن وكانت أهم القطع التي يتألف منها الأسطول العربي الإسلامي أو الروماني لأنها أكبر السفن وأكثرها استعمالاً لحمل المقاتلين للحرب، وهي على شكل قلعة مزودة بالأبراج، ومتوسط ما تحمله مئة وخمسون رجلاً*[٦]*، وعدد مجاذيفها حوالي مئة وأربعين مجذافاً*[٧] *كانت*

---

١ - صالح بن يحيى: المصدر السابق، ص٢٢٢.

٢ - ابن بطوطة (أبو عبد الله محمد اللواتي): رحلة ابن بطوطة، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ١٩٥٨م، ج٢، ص١٦٣.

٣ - النويري السكندراني: المصدر السابق، ج١، ص١٥٤.

٤ - سعيد: المرجع السابق، ص٢٢٤-٢٢٦. بركات: المرجع السابق، ص١٥٣.

٥ - زكي (عبد الرحمن): السلاح في الإسلام، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥١ م، ص١٩.

٦ - ابن مماتي: المصدر السابق، ص٣٣٩. ابن الأثير: المصدر السابق، ج١٠، ص٦٣. الكاتب: حسن المناقب السرية المنتزهة من السيرة الظاهرية، ص٣٥ حاشية (٢).

٧ - ابن مماتي: المصدر نفسه، ص٣٣٩، ٣٤٠. المقريزي: الخطط، ج٣، ص١٤-٢٠.

الشواني تجهز في أيام الحرب بالسلاح والنفطية والأزواد كما كانت تحشد بالمقاتلة والجنود البحرية، وقد ظل اسم الشيني معروفاً حتى أيام الدولة العثمانية[1].

٢٠ـــ العدولية: وهي سفينة منسوبة إلى قرية في البحر يقال لها عدولي، وبعضهم يقول عدولي قبيلة من قبائل العرب، والعدولي الملاح[2].

٢١ـــ الشلندي: جمعها شلنديات أطلق عليها العرب اسم صندل، وعرفت عند العثمانيين باسم الماعونة لاتساعها، وهي مراكب حربية كبيرة مسطحة لحمل المقاتلة والسلاح تعادل في أهميتها الشيني، وكانت لها ساريتان أو ثلاث سوارٍ يبلغ طولها ١٩٥ قدمًا، وتجهز بـــ ٢٤ مدفعاً، وحمولتها ٦٠٠ شخص[3].

٢٢ـــ الطريدة: وجمعها طرايد وطرائد والطرادات، وهي سفن كانت مخصصة لحمل الخيل وتتسع الواحدة لأربعين فرساً، وكانت تستخدم كذلك لحمل المقاتلة والمؤن والسلاح وأيضاً لانتقال الناس، وهي أكثر شبهاً بالبرميل منها بالسفينة الحربية[4]، وكان لها أبواب تفتح وتغلق وقد عدها ابن مماتي من أكثر السفن شهرة ونفعاً للعرب المسلمين[5].

---

١ - العمري (شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله): التعريف بالمصطلح الشريف، مصر، ١٣١٢هـــ، ص٢٣٦. هندي: الحياة العسكرية عند العرب، ص١٨٣.

٢ - البستاني: المرجع السابق، ص٥٨١. الحموي: المرجع السابق، ص٣٠ وما يليها.

٣ - المقريزي: الخطط، ج٣، ص١٤. ابن مماتي: المصدر السابق، ص٣٤٠. الحموي: المرجع السابق، ص٣٦، ٣٧. خانكي: المرجع السابق، ص١٢١. ماجد (عبد المنعم): تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٨م، ص٧٥. عبادة: المرجع السابق، ص٦.

٤ - ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ج١١، ص٣٠ حاشية (٢). أنور: المرجع السابق، ص١١. العدوي (إبراهيم): الأساطيل العربية في البحر المتوسط، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، ١٩٥٧م، ص١٥٣.

٥ - ابن مماتي: المصدر السابق، ص٣٣٩.

٢٣- خيطي وخيطة: *وهي مركب مصنوع من الخشب، خشب الساج مخيطة بأمراس من القنبار وهي ذات القاع العميق والمدبب الذي يترك وراءه في الماء خطاً يشبه الخيط كانت تستعمل في العصر المملوكي في حمل الأزواد والعتاد و الجنود*[١]*، وقد ذكرها خليل بن شاهين الظاهري عند كلامه عن بناء أسطول جديد لغزو جزيرة قبرص ٨٢٩هـ/١٤٢٦م*[٢]*.*

٢٤ـــ سلورة وسلارية: *والجمع سلالير، وهي سفينة وسط بين الشيطي والعشاري خصص هذا النوع من السفن لنقل الركاب والبضائع الخفيفة. كان للسفينة الواحدة ثلاثة أشرع وأربعون مجذافاً، وهي سفينة سريعة الحركة*[٣]*.*

٢٥ـــ شباك: *والجمع شباكات وشباك، وهي كلمة إسبانية الأصل وهي عبارة عن سفينة حربية صغيرة الحجم. إن هذا النوع من السفن له ثلاث صواري، وكانت هذه السفينة من توابع الأسطول*[٤]*.*

٢٦ـــ العشارى: *كانت من أكثر السفن أهمية بالنسبة للقراقير، وذلك لأنها تقوم بنقل الرجال من الساحل إلى القراقير، وذلك لكبر حجم القرقور، وعدم استطاعته الرسو بالقرب من رصيف الميناء وبالتالي فهي من توابع الأسطول، وهي على أنواع، منها ما هو خاص برسم الخليفة، ومنها ما هو برسم ولاة الأعمال*[٥] ووصفها عبد اللطيف البغدادي بقوله: ((**وأما سفنهم فكثيرة الأصناف والأشكال وأغرب ما رأيت فيها مركباً يسمونه العشرى**)) *شكله شكل شباره*

---

[١] - سعيد: المرجع السابق، ص٢٢٦. ماهر: البحرية في مصر الإسلامية وآثارها الباقية، ص٣٤٢.

[٢] - الظاهري: المصدر السابق ، ص ١٤٢.

[٣] - المقريزي: السلوك، ج٢، ص٢٧١، ٢٧٢ حاشية (٥). خانكي: المرجع السابق، ص١٢٦. ماهر: المرجع السابق، ص٣٤٧.

[٤] - بركات: المرجع السابق، ص١٥٤. ماهر: المرجع نفسه، ص٣٥١. سعيد: المرجع السابق، ص٢٢٧. العدوي: المرجع السابق، ص١٥٥.

[٥] - المقريزي: الخطط، ج٣، ص١٥-٢٠. البستاني. المرجع السابق، ص٦٠٣. عبادة: المرجع السابق، ص٧.

داخلية، سطحه ألواح من خشب سميكة ومحكمة وبني فوق هذا السطح بيت من خشب وفتح له طاقات من سائر جهاته، وقد اتخذ هذا النوع من السفن للملوك والرؤساء[1].

٢٧ــ غليون: *تجمع على غلالين وغلاوين والكلمة معربة عن الإسبانية، وهي سفينة ذات أربع صواري، وليس لها مجاذيف، وتحتوي على ساحتين للقتال في المقدمة والمؤخرة وتعد من السفن الشراعية الممتازة ذات الأسلحة الثقيلة، لذلك عملت فتحات خاصة لها على جانبي ساحة القتال*[2] *وقد عرف هذا النوع أيضاً في عصر محمد علي باشا*[3] *وهنا تجدر الإشارة إلى أن مصر استمرت في إنشاء قوتها البحرية في عصورها اللاحقة الحديثة وعلى النمط الذي كان معروفاً في العصر المملوكي.*

٢٨ــ الحراقة: *جمعها حراريق أو حراقات، تلخصت مهمتها في قذف العدو بالنار الإغريقية وأنابيب النفط*[4] *كانت في حجمها أقل من الشواني، كانت تزود بالمنجنيقات لقذف الأعداء بنارها المحرقة، كما كانت قد استخدمت في مصر المملوكية في الاستعراضات البحرية والحفلات الرسمية لخلق المقياس وكسر الخليج*[5] *إذ كانت مخصصة لركوب الأمراء ورجال الدولة*[6] ووصفها صاحب التعريف بأنها: ((**حراريق تشب لها لهباً عجباً منه كيف يوقد في الماء**))[7].

---

١ - البغدادي: المصدر السابق، ص٤٠، ٤١

٢ - البستاني: المرجع السابق، ص٦٦٦. ماهر: المرجع السابق، ص٣٦٠. سعيد: المرجع السابق، ص٢٣٣.

٣ - طرسون (عمر): الجيش المصري البري والبحري في عصر محمد علي، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط٢، ١٩٩٦م، ص٨٨.

٤ - المقريزي: السلوك، ج١، ص٣٠٦. ابن منظور: المصدر السابق، ص٨٤١.

٥ - ابن الفرات (ناصر الدين): تاريخ ابن الفرات، تحقيق: حسن محمد الشماع،١٩٧٠م، مج٥٧، ص١٨١،١٨٢. السخاوي: التبر المسبوك في ذيل السلوك،، ص١١٩.

٦ - المقريزي: الخطط، ج٣، ص١٨. ابن إياس: بدائع الزهور، ج٤، ص١٥٢.

٧ - العمري: المصدر السابق، ص٢٣٦.

استخدمت في الإشراف على إنشاء الجسور طوال العصر المملوكي[1]*، واتخذت أيضاً بوصفها وسيلة لتنزه الملوك والأمراء*[2] *وكانت الحراقة تعرف في العصر الفاطمي باسم (العشارى)*[3].

٢٩ــ الشذاوة أو الشذاة: *وهي ضرب من السفن كانت تستعمل في الحروب لنقل آلات الحرب والسلاح والمقاتلة والملاحين والرماة، وكان بها حوالي أربعين مجذافاً*[4].

٣٠ــ الشيطي: *سفينة استطلاعية مهمتها كشف الموانئ واستطلاع الطريق أمام القراقير والغربان وسواها من سفن الحرب وكذلك إيصال أخبار العدو إلى سفن العرب المسلمين، ويمتاز هذا النوع من المراكب بالخفة والسرعة، وكانت مثل هذه السفن تسير بثمانين مجذافاً*[5].

٣١ــ الغراب أو القورعة: *جمعها أغربة وغربان كانت تسير بالقلع والمجاذيف، ولها مئة وثمانون مجذافاً*[6] *تعد من أقدم أنواع السفن الحربية، وقد عرفت عند القرطاجانيين والرومان وغيرهم*[7]*، وغيرهم*[7]*، وظلت معروفة حتى الدولة العثمانية، ولم يتغير شكلها*[8] *وسميت أحياناً (بالقورعة) كان اسمها مأخوذاً من الغراب*، وقد تحدث شهاب الدين بن فضل الله العمري عنها قائلاً: **((وأطار من السفن كل خفيفة الجناح خفية الجماح تمد من القلوع أجنحة وتعد من المجازيف أسلحة تجل أن تقاس بدحم الخيل أو تشبه نجب قلوعها المنشرة بنهار أو ليل قد اتخذت سماء**

---

١ - المقريزي: السلوك، ج١، ص٤٥٠.

٢ - النويري السكندراني: المصدر السابق، ج١، ص٣٨٨.

٣ - القلقشندي: صبح الأعشى، ج٣، ص٥١٣.

٤ - بركات: المرجع السابق، ص١٥٤. ماهر: البحرية في مصر الإسلامية وآثارها الباقية، ص٣٥١.

٥ - النويري السكندراني: الإلمام بالإعلام، ج١، ٣٧٨. ماهر: المرجع نفسه، ص٣٥٢. سعيد: البحرية في عصر سلاطين المماليك، ص٢٢٨.

٦ - النويري السكندراني: المصدر نفسه، ج١، ٣٧٨. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١١، ص٣٠.

٧ - ابن حجر العسقلاني: المصدر السابق، ج٢، ص٢٣٣.

٨ - سرهنك: المصدر السابق، ج١، ٥٠٦.

البحر ميداناً وخطت على موجة البحر غرباناً))[1]، *ومن خصائصها أنها كانت مزودة بجسر من الخشب يهبط على مركب العدو ويمر على ظهره الجند فيقاتلون بالأساليب البرية*[2] *وقد ذكر الظاهري أن هذا النوع من السفن مجهز بسبعة أغربة استعداداً لغزو جزيرة قبرص*[3].

٣٢ــ مرمة: *جمعها مرمات، وهي من السفن العظيمة*[4] *يقال عنها (التعميرة)*[5] *كانت مصفحة مصفحة من الحديد لا يعمل فيها النار ومساحتها خمسمئة ذراع، وفيها المسامير زنة الواحد منها خمسة وعشرون رطلاً*[6].

٣٣ــ سطح: *والجمع مسطحات كانت أكبر السفن الإسلامية وأعظمها حجماً، كما كانت تسير وراء السفن الأصغر حجماً لحمايتها من الاعتداء ولتغطيتها في حال الحرب*[7] *وهي نوع من السفن التي لها سطوح، ومن هنا جاءت تسميتها*[8].

٣٤ــ نقيرة: *والجمع نقائر تعد إحدى القطع الحربية الصغيرة المساعدة للأسطول، وكانت تستعمل في الوقت نفسه لنقل المتاجر*[9].

---

[1] - العمري: المصدر السابق، ص٢٣٦.

[2] - بركات: المرجع السابق، ص١٥٣، الحموي: المرجع السابق، ٣٩.

[3] - الظاهري: المصدر السابق، ص١٤٢.

[4] - المقريزي: السلوك، ج١، ص١٨٩.

[5] - صالح بن يحيى: المصدر السابق، ص٣٤.

[6] - سعيد: المرجع السابق، ص٢٣٤. ماهر: المرجع السابق، ص٣٦٨.

[7] - ابن مماتي: المصدر السابق، ص٣٣٩. الحموي: المرجع السابق، ص٤١.

[8] - عاشور: العصر المماليكي في مصر وبلاد الشام، ص٤٧١. سعيد: المرجع السابق، ص٢٣٥. ماهر: المرجع السابق، ص٣٦٩.

[9] - سعيد: المرجع نفسه، ص٢٣٥.

ثامناً – أسلوب الحرب البحرية والتشكيل الحربي للأسطول:

لما كان الأسطول الحربي مكوناً من أنواع عدة من المراكب الكبيرة والصغيرة فقد تحدد لكل نوع منها عمل يتعين على رئيسه تأديته على الوجه الأكمل حتى تكتمل حلقة الحرب، وتتم دائرة المعركة دفاعاً أو هجوماً.

فالشواني مثلاً كانت تكلف بجانب مهمتها الحربية بجدب المراكب الكبار أو سحبها إلى مكان المعركة، وذلك في حال سكون الريح، وهنا يتبين مدى أهمية الرياح في البحر، *ولا ينبغي أن تأتي الشواني أو المراكب الصغار خلف البطس والمسطحات، فإنها ربما تؤثر على سير المعركة أثناء الحرب، كذلك كان من مهامها أيضاً مقابلة هذه السفن عن بُعد لتصدمها بالقياس الذي أسموه (باللجام)، واللجام هو عبارة عن عمود من حديد طويل محدد الرأس جداً أسفله مجوف كسنان الرمح يدخل عند الحرب في أسطام المركب، وهي الخشبة التي في مقدم الشيني*[1].

أما إذا أرادوا الفتك بمراكب عدوهم فكان عليهم أن يزيدوا من قوة الاصطدام، وذلك بأن يتأخروا قليلاً أي يتراجعوا إلى الوراء، ثم يقذفوا قذفة واحدة، فيصدم المركب صدمة قوية فيخرقها فيغمرها الماء فتغرق في المحيط الخضم.

ومن الحيل التي انتهجوها ضد أعدائهم، أنه إذا اقتربت المراكب بعضها من بعض كالشواني مثلاً طرحت الشواني العربية الإسلامية إلى شواني العدو كلاليب كبار من الحديد، فيها سلاسل معقودة ومثبتة إلى مراكب المسلمين، وبسرعة ومهارة فائقة يطرح المسلمون الألواح بينهما، فتصبح كالجسر، فيدخلون إلى مراكب العدو فيقاتلونهم، وبذلك تكون هذه المعركة أشبه بالمعركة التي في البر[2].

---

[1] - الحسن بن عبد الله: المصدر السابق، ص١٩٦.

[2] - ابن منكلي: الأحكام الملوكية، ص١١٨.

وقد استعملت هذه الحيلة في غزوة ذات الصواري من قبل، واتبعها المسلمون في كل عصورهم، والمعروف أن حرب البحر كانت تختلف في أسلوبها عن حرب البر، فحرب البر تشبه في تخطيطها الشطرنج، على حين أن حرب البحر كانت تشبه النرد، وكانت الحروب البحرية شديدة وصعبة، وذلك بسبب ضيق ميدانها لضيق المجال في البحر، ومن هنا لا تكاد السهام أو الأحجار تخطئ الهدف كما لا يمكن الهرب أو الفرار أو الاستتار وراء حاجز أو ساتر إن اقتضت الأمور ذلك. واعتادت الأساطيل المملوكية في تلك الحقبة من تاريخ مصر أن تنسق تشكيلها الحربي في البحر، فتكون ميمنة، وتكون هناك أيضاً ميسرة[١]*، ويكون مركب الرئيس في مكان القلب لتدبير الأمور وترتيب ما يجب فعله*[٢]*، وكان لزاماً على القائد في ذلك الميدان المائي الخطير أن يقسم مراكبه، فيقاتل ببعضها، ويريح بعضها الآخر، أي لابد أن يكون هناك تبادل بين المراكب في الحرب، وكان عليه أن يستعمل كل أنواع الخديعة والمكر والدهاء لإحلال الهزيمة بعدوّه*[٣]، وأدت الرياح دوراً مهماً في ذلك من حيث هبوبها أو سكونها وقت الحاجة إليها كما سبق أن أوضحنا.

تاسعاً – حفظ الثغور:

أدى اهتمام المماليك بالأسطول إلى الاهتمام بأمر الثغور، إذ هي الموانئ أو المراسي المعدة له، واهتم العرب المسلمين بحفظ الثغور وحمايتها والعناية بها وضبطها لأنهم اعتقدوا أن من إهمالها خللاً في العناية بالأسطول، فكان على ولاتها ملاحظة أمورها ومهماتها، والتيقظ لمهمات الثغر واستجلاب قلوب التجار واستمالة خواطرهم ومعاملتهم بالرفق والعدل حتى يتواصل التجارة

---

[١] - ابن منكلي: المصدر نفسه، ص١١٨.

[٢] - ابن منكلي: المصدر نفسه، ص١١٨.

[٣] - ابن منكلي: المصدر نفسه، ص١٢٣.

وتعمر الثغور[1]، لذلك أكثروا في الثغور من ذوي الشجاعة والخبرة والقتال والأنفة والحمية والدين المتين، وكانوا يهتمون بتفقد الأعمال والحصون والثغور، وذلك لدفع المفسدين وردع المعتدين[2]، بالإضافة إلى ذلك كان لابد من ترتيب الحراس على الأبراج والحفاظ على الشرفات ليلاً ونهاراً مع تزويدهم بكل أنواع الأسلحة والدروع والخوذ والرماح والسيوف والقسي والجروح والدرق والتراس والمنجنيقات وما إلى ذلك، أما من ناحية الأبواب فكان من واجبهم الحيطة في فتحها، وكان عليهم ألا يهملوا أمر ظواهر الثغور وضواحيها من المطالعة ورصد العيون من جهة العدو حتى لا يباغت الثغر مفاجئ أو يطوقه وهم غافلون، هذا ما كان من واجب حراس الثغور.

أما ما كان من واجب الدولة، فقد تعين على المسؤولين أن يوسعوا في نفقات هؤلاء الحراس ويدخروا لهم أقواتهم، ويوفروا لهم كل أنواع الدفاع عن ثغرهم، وكان لابد أن تؤلف كلمتهم على المصالح العائد نفعها على حراسة ثغرهم وحفظه[3].

وكان اهتمام المماليك بتحصين الثغور وإقامة الأبراج أو السلاسل اهتماماً بالغًا بسبب عبث الفرنج بسواحل البلاد، وكثيراً ما شدوا السلاسل الثقيلة المعوقة لحركة السفن في الموانئ المصرية[4]، وقد داوموا السفر إلى هذه الثغور لهذا الغرض[5].

ومن أهم الثغور البحرية على المتوسط في مصر وبلاد الشام في العصر المملوكي هي دمياط والإسكندرية واللاذقية وطرابلس وعكا وصيدا وبيروت، فقد أدت هذه الموانئ دوراً مهماً في

---

[1] – القلقشندي: صبح الأعشى، ج١٣، ص٩٦.

[2] –الظاهري: زبدة كشف الممالك، ص٥٨.

[3] –الحسن بن عبدالله: المصدر السابق، ص١٦٧.

[4] –النويري السكندراني: المصدر السابق، ج١، ص١٣٥–١٣٧.

[5] –ابن إياس: بدائع الزهور، ج٣،ص١٥٥، ١٥٦.

الحياة الحربية والاقتصادية، وفيما يلي لمحة جغرافية وتاريخية عن تلك الموانئ حتى نهاية العصر المملوكي.

عاشراً – أهم الموانئ البحرية على المتوسط في مصر وبلاد الشام:

١– الموانئ المتوسطية في مصر:

*أ– **دمياط**: تقع على شاطئ المتوسط الذي يحدها شمالاً وفي الجنوب الدلتا ومن الشرق قناة السويس، وتعد مدينة دمياط إحدى المدن العريقة، فقد ذكرت في التوراة باسم كغتور، وعرفت في العصر اليوناني باسم تامياس، وفي العصر القبطي تامياتي ويقال: إن معنى هذا اللفظ في اللغة المصرية القديمة هو الأرض الشمالية أو الأرض التي تنبت الكتان، ولعل السر في غموض تاريخها القديم أن فرع دمياط كان أقل فروع النيل السبعة أهمية[١]*، ذكرت دمياط أيضاً على لسان ياقوت الحموي الذي وصفها في كتابه معجم البلدان قائلاً: ((**مدينة قديمة تقع بين تنيس ومصر على زاوية عبر الروم والنيل مخصوص بهواء طيب وفي شمال دمياط يصب ماء النيل إلى البحر المالح في موضع يقال له: الأشموم[٢] وعرض النيل هناك نحو مئة ذراع، وعليه من جانبيه برجان بينهما سلسلة حديدية**))[٣].

ودمياط هو اسم الفرع الشرقي للنيل[٤]، فتحت هذه المدينة على يد عمرو بن العاص سنة ٢١ هـ/٦٤٢م[١]، وقد أسست دار لصناعة السفن في جزيرة الروضة سنة ٥٤هـ/٦٧٤م في

---

[١] – الشيال (جمال الدين): مجمل تاريخ دمياط سياسياً واقتصادياً، مطبعة دون بوسكو، الإسكندرية، ١٩٤٩م، ص٨. دي فتري (جاك): المنتقى من تاريخ القدس، الموسوعة الشامية، دار الفكر، دمشق، ١٩٩٨م، ج٣٣، ص ١٥٥.

[٢] – أشموم: بلدة في مصر قرب مدينة دمياط. ياقوت الحموي: معجم البلدان، مج١، ص٢٠٠.

[٣] – ياقوت الحموي: المصدر نفسه، مج٢، ص٤٧٢، ٤٧٣.

[٤] – يوسف (نقولا): تاريخ دمياط، الاتحاد القوي، دمياط، ص١٥١.

عهد معاوية بن أبي سفيان، ثم عني أحمد بن طولون في توسيعها وتحسينها، ومن ثم نقلت إلى الفسطاط أيام الإخشيد في أول القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، وفي الفترة اللاحقة أنشأ الخليفة الفاطمي المعز لدين الله دار المقس بقرب القاهرة لدعم أسطول دمياط[2]*، ولكن دمياط في العصر الأيوبي تعرضت لهجمات من الفرنجة التي كان أخطرها في سنة ٦٤٧هـ/١٢٤٩م بقيادة لويس التقي الذي خسر في المنصورة*[3]*.*

ولكن نظراً لما قاساه العرب المسلمون من الشدة مرة بعد مرة بسبب قصد الفرنج لمدينة دمياط، فقد خربت المدينة من قبل المعز أيبك سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م، ومحيت آثارها، ولم يبق فيها سوى الجامع وهو جامع الفتح، وبني بالقرب منها بلدة صغيرة سميت دمياط، وسرعان ما ازدهرت هذه البلدة، وأصبح فيها سوق وحمامات[4]*، وكذلك أمر الظاهر بيبرس سنة ٦٥٩هـ/١٢٦١م، بردم فم بحر دمياط*[5]*، فكان يخرج من دمياط قناة إلى بحيرة المنزلة حيث تدخل إليها السفن الكبيرة من البحر المتوسط حتى تنيس*[6]*، ولكن -بعد حملة بطرس لوزينيان على الإسكندرية وتخريبها- نرى أن دمياط تحولت إلى الحاضرة الأولى بحرياً والثانية مملوكياً*[7]*،*

---

[1] ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج٢، ص٤٠٥. العيسى (سالم سليمان): المعجم المختصر للوقائع التاريخية العسكرية — الاجتماعية — الدينية — من بدء الهجرة حتى عام ١٩٥٠ ميلادية، دار النمير، سورية، ط١، ١٩٩٨م، ص ١٥.

[2] المقريزي: الخطط، ج٢، ص٧٨٧. ج٣، ص٢٣، ٢٤.

[3] اليافعي: المصدر السابق، ج٤، ص٩٠، ٩١. الجبرتي: عجائب الآثار في التراجم والأخبار، ج١، ص٢٦.

[4] أبو الفداء: تقويم البلدان، ص١١٧.

[5] اليعقوبي (أبو العباس أحمد بن يعقوب بن جعفر): تاريخ اليعقوبي، دار صادر، بيروت،١٩٩٦م، ج٧، ص١٩٩.

[6] يوسف: المرجع السابق، ص٤١.

[7] ابن شداد، (محمد بن علي): تاريخ الملك الظاهر، اعتناء أحمد حطيط، المعهد الألماني للأبحاث، بيروت، ١٩٨٣م، ج١، ص١٠٥.

وبالوصول إلى عهد الأشرف برسباي تشهد دمياط تحرك أساطيلها لغزو جزيرة قبرص، فخرجت حملتان الأولى سنة ٨٢٧هـ/ ١٤٢٤م والثانية ٨٢٨هـ/ ١٤٢٥م، ولكنهما فشلتا فخرج أسطول الإسكندرية وتمكن من فتح قبرص[١]، وعندما قام الظاهر جقمق بإرسال حملاته الثلاث على جزيرة رودس(٨٤٣- ٨٤٧- ٨٤٨هـ/ ١٤٤٠- ١٤٤٣- ١٤٤٤م) نرى أن دمياط أسهمت إسهاماً كبيراً بالسفن[٢] وذلك بسبب بناء دار بولاق لصناعة السفن[٣]، ونظراً لما تمتعت تمتعت به مدينة دمياط من أهمية تجارية وحربية وموقع مهم فقد أحيطت بسور[٤]، وبنيت فيها الفنادق، وذلك لكثرة التجار الوافدين عليها[٥]، ولما بلغ التطور الذي ارتقت إليه مدينة دمياط فقد ذكر ابن بطوطة في رحلته أن الدخول إليها عن طريق طابع الوالي (جواز سفر)[٦]، ومع انتصار العثمانيين على المماليك عادت دمياط لتزدهر من جديد في العصر العثماني، وذلك لكونها أقرب الموانئ المصرية إلى آسيا الصغرى[٧].

ب- الإسكندرية: *تقع على شط بحر الروم[٨]، غربي نهر النيل على شاطئ رملي، في جنوبها بحيرة بحيرة مريوط وامتدادها طولاني[٩]، قام ببناء المدينة غازي الشرق الإسكندر المقدوني[١] وكان بها*

---

١ - ابن تغري بردي: المصدر السابق، ج١٤، ص٣٠٥.

٢ - ابن حجر العسقلاني: المصدر السابق، ج٩، ص١٢٧،١٩٩، ٢١٦.

٣ - شلش (علي): البحر المتوسط، دار المفارق، مصر، ١٨٦٣م، ٩٥.

٤ - ابن تغري بردي: المصدر السابق، ج٧، ص١٨.

٥ - ابن إياس: نزهة الأمم في العجائب والحكم، ص٢٠٩.

٦ - ابن بطوطة: المصدر السابق، ص٣٣.

٧ - الجبرتي: تاريخ الجبرتي، ج١، ص١٣.

٨ - أبو الفداء: تقويم البلدان، ص١١٣.

٩ - طرسون (عمر): تاريخ خليج الإسكندرية وترعة المحمودية، مطبعة العدل، الإسكندرية، ١٩٤٢م، ص١٤.

بها منارة مشهورة تعد من عجائب الدنيا القديمة[2]*، ووصفها ابن جبير الذي زارها سنة ٥٧هـ/ ٦٧٦م* بقوله: ((**إن الماء في النيل يخترق جميع ديارها وأزقتها تحت الأرض فتتصل الآبار بعضها ببعض ويمد بعضها بعضاً ومن أعظم ما شاهدناه من عجائبها المنار الذي قد وضعه الله عز وجل على يدي وسخّر لذلك آية للمتوسّمين وهداية للمسافرين**))[3].

فتحت على يد عمرو بن العاص سنة ٢٠هـ/ ٦٤١م[4] *وقد قام عمرو بن العاص ببناء صناعة الإسكندرية واعتمد على خشب السنط الذي كان يوجد في جنوب الدلتا وصعيد مصر وشبه جزيرة سيناء*[5] *وجددها والي مصر عبد الله بن أبي سرح، وأدت دوراً في العصر الطولوني والفاطمي، وصولاً إلى العصر الأيوبي حيث اهتم بها الأيوبيون لإنشاء السفن*[6]*، أما في العصر المملوكي فقد ارتفعت مكانة الإسكندرية حتى أصبحت ميناء مصر الأول وثاني مدينة بعد القاهرة، وقد تجلى ذلك لسببين أساسيين: أحدهما اقتصادي، والثاني حربي، أما السبب*

---

١ - لوبير (جراتيان): مدينة الإسكندرية، ترجمة: زهير الشايب،١٩٩١م، ص٦. مبارك (علي باشا): الخطط التوفيقية لمدينة الإسكندرية، مطبعة بولاق، مصر، ١٨٨٩م، ص٢٠. يحيى (لطفي عبد الوهاب): مقدمة حضارة الإسكندرية، دارنشر الثقافة، الإسكندرية، ١٩٥٨م، ص٢٣.

٢ - ابن الفقيه (أحمد بن محمد الهمزاني): مختصر كتاب البلدان، دار صادر، مطابع بربك ليدن، ١٣٠٢، ص١١٨.

٣ - ابن جبير: رحلة ابن جبير، ص١٤.

٤ - ابن الأثير: المصدر السابق، ج٢، ص٤٠٥.

٥ - شلش: المرجع السابق، ص٩٣.

٦ - سالم (السيد عبد العزيز): تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٨٢م، ص٦٧-٧١-١٥٨-١٥٩-٢٠١-٢٤٣-٢٤٤.

الاقتصادي فمرجعه أن تجارة مصر الخارجية مع الشرق والغرب قد زاد نشاطها وازدهارها في هذا العصر حتى أصبحت الرسوم التي تجبى من التجار الأجانب جزءاً كبيراً من دخل الدولة[١].

أما السبب الحربي فمرجعه إلى تحول أنظار الصليبيين (الفرنجة) أو بقاياهم في جزر البحر المتوسط وأوربا إلى الإسكندرية بعد أن منيت الحركة الصليبية بالفشل الذريع في حملتيها على دمياط في عهدي الملك الكامل والملك الصالح نجم الدين أيوب، نرى أن هؤلاء الصليبيين أخذوا يغيرون من هذه الجزر على مصر، ويتوجهون دائماً إلى مدينة الإسكندرية، ولهذا نالت عناية دائبة متصلة من قبل سلاطين المماليك بثغر الإسكندرية[٢]، فالظاهر بيبرس أمر بعمارة أسوارها وإقامة المجانيق عليها مع إقامة عرض للشواني لحراستها[٣]، وكذلك حفر خنادقها وخصص في كل شهر جملة من الأموال تصرف من نفقة العماير، وبنى مرقباً لثغر الرشيد لكشف مراكب الفرنج[٤]، وفي زمن السلطان الناصر محمد بن قلاوون عنيت مدينة الإسكندرية باهتمام السلطنة المملوكية، إذ أمر بترميم منارة الإسكندرية حيث شهدت مصر سنة ٧٠٢هـ/ ١٣٠٢م زلزالاً عنيفاً عند طلوع الشمس، اهتزت أرض مصر كلها إلى القاهرة وأعمال الديار المصرية ودمشق والسواحل[٥]، وبالإضافة إلى ذلك أقام الناصر محمد الخليج الناصري سنة٧١٠هـ/ ١٣١٠م، وذلك بعد أن طمرت الرمال الترعة القديمة وتعطل جريانها[٦]، وكانت تعمل في الإسكندرية داران للصناعة: إحداهما شرقية والأخرى غربية، فالشرقية كانت تقع بين السورين ومجاري

---

١ - الشيال (جمال الدين): تاريخ مدينة الإسكندرية في العصر الإسلامي، دار المعارف، القاهرة، ص٨٧.

٢- الشيال: المرجع نفسه، ص٨٧.

٣- المقريزي: السلوك، ج١، ص٦٠٨.

٤- النويري: نهاية الأرب، ج٢٨، ص٤.

٥- السيوطي: حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، ج١، ص٩١. ابن أيبك الدواداري: المصدر السابق، ج٩، ص١٠٠، ١٠١.

٦- المقريزي: الخطط، ج١، ص ٤٣٨، ٤٣٩.

الأقنية، وكانت تشرف على الميناء الشرقي، أما دار الصناعة الغربية فهي مستحدثة في العصر المملوكي، وكانت تقع عند نهاية المطرق الغربي الذي أنشأه نائب الإسكندرية الأمير صلاح الدين خليل بن عرام سنة ٧٦٩هـ/ ١٣٦٧م داخل الإسكندرية[1]*، وعين المماليك في الإسكندرية والياً سمي (بوالي ثغر الإسكندرية)، وكان برتبة أمير*[2] *إلى أن طرقها القبارصة سنة ٧٦٧هـ/ ١٣٦٥م، وفتكوا بأهلها، فتطورت إلى نيابة في عهد الأشرف شعبان بن حسين*[3].

وعرف رئيسها في ذلك الحين بنائب السلطنة الشريفة بثغر الإسكندرية المحروس[4]*، وكان عليه عليه أن يحرس جوانب هذا الثغر ليحميه ويصون ما فيها ومن فيها وليكلأه براً وبحراً*[5]*، وفي عهد الظاهر أبي سعيد برقوق نجد أن الجنويين أخذوا يغيرون على سواحل الشام ومصر، ويهاجمون السفن التجارية المتجهة إلى هذين البلدين، وقد أثر ذلك في سواحل الإسكندرية بشكل كبير،* يقول المقريزي: ((**حيث قل الواصل بين بلاد الفرنج إلى الإسكندرية وعز وجود الخشب وغلا وتعذر وجود الرصاص والقصدير والزعفران**))[6]، *وفي عهد الأشرف قايتباي (٨٧٢-٩٠١هـ / ١٤٦٧-١٤٩٥م) قبض الأمير قجماس الإسحاقي نائب ثغر الإسكندرية على جماعة من الفرنج سنة ٨٧٧هـ/ ١٤٧٢م كانوا يعبثون بسواحل البحر المالح، فأمر السلطان بسجنهم في المقشرة بمصر*[7]*، وكان اكتشاف البرتغاليين لطريق رأس الرجاء الصالح في سنة ٩٠٣هـ/ ١٤٩٨م قد أدى إلى تغيير واضح المعالم في الواقع الاقتصادي والسياسي*

---

[1]- سالم: المرجع السابق، ص٤٩٤.

[2]- المقريزي: السلوك، ج٢، ص٤٨٧.

[3]- القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ج٤، ص٢٤-٦٣-٦٤.

[4]- القلقشندي: المصدر نفسه، ج٧، ص ١٥٦.

[5]- القلقشندي: المصدر نفسه، ج١١، ص ٤٠٥-٤٠٧

[6]- المقريزي: الخطط، ج٢، ص٨٢٦.

[7]- الشيال: المرجع السابق، ص١١٧.

والاستراتيجي التي عاشته مدينة الإسكندرية[1]، ومع انتصار العثمانيين في معركة مرج دابق واصلوا التقدم إلى أن سقطت الإسكندرية بعد معركة الريدانية سنة ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م[2].

٢- الموانئ المتوسطية في بلاد الشام :

أ- عكا: *تعد عكا من أهم المدن القديمة على الساحل الجنوبي للبحر المتوسط، ففي فلسطين قامت فوق لسان صخري في نهاية الرأس الشمالي لخليج عكا، ويحيط بها سور عظيم يتحدى البحر، وتشرف المدينة على سهل واسع، وكانت من أهم المدن الكنعانية الأولى التي بنيت في الألف الثاني ق.م على طول الساحل السوري[3].*

ويقول فيها ياقوت الحموي: ((**عكا بفتح أوله وتشديد ثانيه، وطولها ثمان وخمسون درجة وخمس وعشرون دقيقة وعرضها ثلاث وثلاثون درجة وثلث، وهي اسم بلد على ساحل الشام من أعمال الأردن**))[4]، *فتحت عكا على يد يزيد بن أبي سفيان بأمر من أبي عبيدة بن الجراح سنة ١٥هـ/٦٣٦م[5]، وتعود دار الصناعة التي توجد في عكا إلى عهد معاوية بن أبي*

---

[1] - أباظة (فاروق عثمان): أثر تحول التجارة العالمية إلى رأس الرجاء الصالح على مصر وعالم البحر المتوسط أثناء القرن السادس عشر، دار المعارف، القاهرة، ط ٢، ص ٤٧.

[2] - ابن أجا (محمد بن محمود الحلبي): العراك بين المماليك والعثمانيين الأتراك مع رحلة الأمير يشبك بن مهدي الدوادار، تحقيق: محمد أحمد دهمان، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٩٨٦م، ص٢٤٨. الجبرتي: تاريخ الجبرتي، ج١، ص١٣.

[3] - الماضي (مروان): قصة مدينة عكا، المنظمة العربية والثقافة، مصر، ص٢٢.

[4] - ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٤، ص١٤٣.

[5] - البلاذري: المصدر السابق، ص١٦٠. ياقوت الحموي: المصدر نفسه، ج٤، ص١٤٤.

سفيان، وقد ظلت حتى نقلها هشام بن عبد الملك إلى صور، ومن ثم اهتم بها أحمد ابن طولون، وأراد أن يجعل لعكا وصور برجين وسلسلة تشد، فلا تسمح بدخول السفن إليها[1].

تعود أهمية هذه المدينة إلى وجود ميناء طبيعي يحميها وقت الحرب والشدائد، ويستقطب التجارة وينشطها وقت السلم. ظلت عكا زمن الفرنجة من أنشط موانئ فلسطين على الساحل، وكانت الميناء الطبيعي لدمشق، إذ لم تستخدم لتصريف إنتاج مصانع دمشق وأراضي حوران فقط، بل أفاد منها التجار القادمون من اليمن الذين سلكوا طريق الحج على امتداد حافة ساحل بلاد العرب، كما كانت الميناء الوحيد لفلسطين، فالمسافرون إلى الأماكن المقدسة يؤثرون النزول بها[2].

وفي عصر السلطان قلاوون أخذت عكا تعد الأيام الباقية من عمرها في قبضة الصليبيين (الفرنجة)، وخاصة بعد فتحه لمدن الساحل الشامي: طرابلس واللاذقية، إلا أن السلطان قلاوون لم ينوِ مهاجمة عكا عقب فتحه طرابلس مباشرة، فاتجه إلى دمشق حيث استقبل فيها رسل الملك هنري الثاني بشأن تجديد الهدنة بين الطرفين، استجاب السلطان لهذا الطلب، وجدد الهدنة المعقودة مع عكا لمدة عشر سنوات وعشرة أشهر وعشرة أيام[3] وبينما الصليبيون في الشام يخطبون ود السلطان قلاوون، ويسألون الله أن يبقي لهم البقية الباقية من مدنهم بالشام إذ ببعض الجموع الصليبية الإيطالية تصل إلى عكا سنة ٦٨٩هـ/١٢٩٠م، وتعكر الجو بين العرب المسلمين والصليبيين باعتداء الصليبيين على المسلمين خارج أسوار عكا، مما أنذر بتجديد الحرب

---

[1]- المقدسي: المصدر السابق، ص ١٥١. ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج٤، ص١٤٤. البلاذري: المصدر نفسه، ص١٦١.

[2] - الماضي: المرجع السابق، ص٣٣.

[3]- النويري: نهاية الأرب، ج٣١، ص ٤٩-١٦٣.

بين العرب المسلمين والصليبيين(الفرنجة)[1]، *وعندما وصلت أخبار مذبحة عكا إلى مسامع السلطان قلاوون أخذ يستعد لفتح عكا، وعند مغادرته لمدينة القاهرة توفي فجأة فخلفه ابنه الأشرف خليل في قيادة الحملة*[2] وتمكن من تحقيق هدف والده وطموحه وطموح العرب المسلمين بفتح عكا وتحريرها من الصليبيين (الفرنجة)، وهذا ما سوف نأتي على ذكره بالتفصيل في الفصل القادم.

وبعد فتح الأشرف خليل لمدينة عكا قام بهدمها، وتحولت هذه المدينة إلى خراب[3].

بعد أن دمر السلطان المملوكي الأشرف خليل المدينة لم تشهد لمدة أربعين سنة سوى فئة قليلة من الفلاحين الفقراء يسكنون في خرائب، وظلت عكا أطلالاً حتى منتصف القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي.

وفي سنة ٧٤٢ هـ /١٣٤١م مر الرحالة الألماني (أدولف فون سوخم)، بعكا فقال: ((**عكا اليوم تسكنها حامية صغيرة من المسلمين لا يتجاوز عددها الستين تتولى حراسة المدينة والمينا ويعيش أفرادها من الحرير والطيور لأن طير الحجل في جانبها كثير**))، وذكر الرحالة بروكيه عكا في القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي إذ قال: ((**هذا ميناء جميل عميق ويدور به سور يحميه ومع أنه يظهر أن المدينة كانت قوية وكبيرة فإنها الآن لا يوجد بها أكثر من ثلاثمئة من البيوت**)) *وبدأت الحياة تدب في المدينة بعد ذلك واستمرت في تقدمها العمراني المتواضع، ونشطت الحركة التجارية وأعيد ترميم الميناء، وظلت هذه حال المدينة إلى أن استولى عليها العثمانيون بعد دخولهم إلى بلاد الشام*[4].

---

[1]- الدواداري: المصدر السابق، ج٨، ص ٣٠٠، ٣٠١.

[2]- ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٨، ص ٤.

[3]- ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٧، ص ٦٣١-٦٣٧. المقريزي: السلوك،ج٣ ق١،ص٧٦٦.

[4]- الماضي: المرجع السابق، ص٤٠، ٤١.

ب– اللاذقية: *مدينة عريقة وذات تاريخ موغل في القدم تقع على خليج طبيعي شبه مغلق وفي موقع بحري مهم جذب إليها منذ أقدم العصور البحارة والتجار، ومن المعلوم أن الفينيقيين قد أنشؤوا ثغورهم على هذا الشاطئ منذ وَطِئَت أقدامهم هذه الأرض*[1]*، ويذكر ياقوت الحموي أن اللاذقية مدينة في ساحل بحر الشام تعود إلى أعمال حمص وهي غرب جبلة بينهما ستة فراسخ*، قال بطليموس في كتابه: ((**مدينة اللاذقية طولها ثمان وستون درجة وعشرون دقيقة وعرضها خمس وثلاثون درجة وست دقائق في الإقليم الرابع**))[2] *عرفت اللاذقية في القديم باسم راميتا، وهذا الاسم قد ورد في رسائل تل العمارنة، كما عرفت بأسماء عديدة، فالفينيقيون سموها في البداية (ياريموتا)، ثم حملت في العصر الحديدي اسم (مزبدا) الذي له غالباً علاقة بزبد البحر، وأطلق عليها اليونان لاحقاً اسم (لوكيه أكيته) أي الشاطئ الأبيض لقربها من ميناء البيضاء إلى ميناء العقبة، وفي عصر الإسكندر المقدوني عرفت باسم (لاذوكية) إلى أن فتحت على يد القائد العربي الإسلامي عبادة بن الصامت الأنصاري سنة ١٥هـ/٦٣٦م*[3] *فسموها لاذقية، ومن ثم لاذقية العرب لتميزها من المدن التي تأخذ الاسم نفسه*[4].

وفي سنة ٤٩١ هـ/ ١٠٩٨م احتل الصليبيون مدينة اللاذقية التي كانت تحت يد السلاجقة لكن السلطان صلاح الدين الأيوبي تمكن من تحرير المدينة سنة ٥٨٤ هـ/ ١١٨٨م، وبعد وفاته تسلّم ابنه الظاهر غازي مدينة حلب وكانت اللاذقية تحت إمرته، فعمل على تحسينها، وحاول بوهيموند الثالث أمير إنطاكية احتلالها، لكنه فشل في ذلك إلا أن محاولات الصليبيين (الفرنجة)

١- حجازي: المرجع السابق، ص ٢٠١.

٢ – ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج٥، ص٥.

٣ – ابن الأثير: المصدر السابق، مج٢، ص٣٤٠.حجازي: المرجع السابق، ص٢٠٣.

٤ – حجازي: المرجع نفسه، ص٢٠٣

المتكررة الهجوم على اللاذقية نجحت في السيطرة عليها[1]، *وفي سنة ٦٨٦ هـ/ ١٢٨٧م استغل السلطان المنصور قلاوون فرصة انشغال الصليبيين بمنازعاتهم الداخلية وحدوث زلزال عنيف في المدينة، ألحق بها أضراراً جسيمة وخاصة في تحصينات المرفأ ولاسيما في برجها الكبير، فأرسل المنصور قلاوون حملة بقيادة الأمير حسام الدين طرنطاي تمكن من تحرير المدينة، وكانت اللاذقية آخر ما تبقى للصليبيين من إمارة إنطاكيا*[2].

بعد ذلك ازدهرت اللاذقية وعمرت وازدانت بالعمائر الفخمة، فهي تعد من أهم مدن الساحل وأكثرها عمراناً، ومن ثم أصبحت من أعظم نيابات طرابلس[3].

وفي سنة ٧٤٠هـ/ ١٣٣٩م وصل إلى اللاذقية الرحالة ابن بطوطة بقصد زيادة واليها، وأهم ما لفت انتباهه فيها الميناء، إذ قال فيه: ((**وميناء هذه المدينة عليه سلسلة بين برجين لا يدخله أحد ولا يخرج منه حتى تحط له السلسلة وهو من أحسن المراسي بالشام**))[4].

ج – *بيروت:* *بالفتح ثم السكون وضخم الراء وسكون الواو والتاء فوقها نقطتان، ويذكر لنا* ياقوت الحموي: ((**أن بيروت مدينة مشهورة على ساحل بحر الشام تعد من أعمال دمشق بينها وبين صيدا ثلاثة فراسخ قال بطليموس: بيروت طولها ثمان وستون درجة وخمس وأربعون دقيقة وعرضها ثلاث وثلاثون درجة وعشرون دقيقة**))[5]، *وبيروت من المدن القديمة على الساحل الكنعاني، وكانت رقعة تضيق وتتسع باختلاف الدول التي مرت عليها، وقد أدت*

---

[1] – ابن الأثير: المصدر السابق، مج١٠، ص٣٧-١٦٨. ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية أو سيرة صلاح الدين، ص ١٤٥، ١٤٦.

[2] – أبو الفداء: المختصر، ج٤، ص٣١.

[3] – القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص١٤٥.

[4] – ابن بطوطة: المصدر السابق، ص ٤٨.

[5] – ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج١، ص٢٥٢.

دوراً مهماً في الاقتصاد والثقافة، وارتبطت منذ القدم بعلاقات مختلفة مع الدويلات الكنعانية الممتدة على الساحل الشرقي للمتوسط ومع دول المنطقة المجاورة والبعيدة[1].

فتحت هذه المدينة على يد يزيد بن أبي سفيان فتحاً يسيراً سنة ١٣هـ/ ٦٣٤م، وبقيت في أيدي العرب المسلمين على أحسن حال حتى احتلها الفرنج عنوة في يوم الجمعة ٢١ من شوال سنة ٥٠٣هـ/ ١٩ أيار ١١١٠م[2]، إلا أن السلطان صلاح الدين الأيوبي تمكن من تحريرها من الصليبيين سنة ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م، لكن الفرنجة استعادوا المدينة من أيدي العرب المسلمين ثانيةً وذلك في سنة ٥٩٣هـ/ ١١٩٦م، وبقيت في حوزتهم إلى أن تم تحريرها على أيدي العرب المسلمين في عهد السلطان المملوكي الأشرف خليل سنة ٦٩٠هـ/ ١٢٩١م[3]، واتبعت هذه المدينة بنيابة دمشق وأدت بيروت مع غيرها من موانئ الساحل الشامي دوراً كبيراً في التجارة العالمية وفي الثقافة بكونها مرفأ طبيعياً كبيراً ونشيطاً، وفي عصر حكم المماليك أصبحت بيروت مركزاً مهماً لإدارة الشؤون التي تدار على ساحل البحر المتوسط، وازدانت بالمباني الرائعة والفخمة، وظلت على هذا الوضع إلى أن دخلت في حوزة العثمانيين[4].

د- طرابلس: تقع مدينة طرابلس الشامية على منتصف ساحل البحر المتوسط الشرقي ويحمي طرابلس عدة جزر بحرية أمام رأس ميناء على ضفتي نهر قاديشا المعروف بأبي علي، ويقوم على ضفة لنهر اليسرى تل يشرف على مدينة طرابلس اسمه تل الحجاج، والساحل الصخري، وطرق

[1] -الخطيب(نسمة): بيروت التراث، شركة المطبوعات للنشر والتوزيع، بيروت، ط١، ١٩٩٣م، ص١٢.

[2] -ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج٢، ص٢٨٠. ج٩، ص١٣٦.

[3] - ياقوت الحموي:المصدر السابق،ج١،ص٢٥٢.أبو شامة: الذيل على الروضتين، ص١١. ابن كثير: المصدر السابق، ج١٧، ص٦٣٥.

[4] -الخطيب:المرجع السابق،ص١٣-١٨.

مؤدية إلى بيروت واللاذقية شمالاً[1]، ومدينة طرابلس في الإقليم الرابع[2] طولها ستون درجة وخمس وثلاثون دقيقة وعرضها أربع وثلاثون درجة[3]، فتحت هذه المدينة على أيدي المسلمين سنة ١٥هـ/٦٣٦م مع عدد من المدن الساحلية في بلاد الشام[4]، وكانت طرابلس قاعدة بحرية، وهي دار لصناعة السفن لتوافر أخشاب الأرز والصنوبر[5].

احتلها الصليبيون سنة ٥٠٣هـ/ ١١٠٩م[6] وبقيت تحت نيرهم إلى أن حرّرها العرب المسلمين في عهد السلطان المملوكي قلاوون الألفي سنة ٦٨٨هـ/ ١٢٨٩م عنوة، ثم أمر أن تهدم المدينة بما فيها من العمائر والبيوت والأسوار الحصينة التي كانت عليها وأن يبنى على ميل منها بلدة صغيرة أمكن منها، ففعل ذلك في البلدة التي يقال لها طرابلس، ثم عاد إلى دمشق مؤيداً منصوراً[7].

وقام نواب السلطنة المملوكية في طرابلس بالاهتمام بتحصين مينائها بسلسلة من الأبراج الدفاعية الضخمة، وأبقوا على بعض القلاع الصليبية الساحلية التي تقع إلى الجنوب من طرابلس

---

[1] - سالم (عبد العزيز): طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ص١٠، ١١، ١٢.

[2] – الإقليم الرابع: عمد المصنفون الأوائل إلى تقسيم العالم إلى أقاليم جعلوها في أربعة عشر إقليماً ستة منها عربية وثمانية غير عربية وطرابلس في هذا الإقليم الذي هو إقليم الشام. الإدريسي(محمد بن عبد الله): نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٩٨٩م، مج٢، ص ٦٤٣. المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص٥٤.

[3] - ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج٤، ص٢٦.

[4] - ابن الأثير: المصدر السابق، مج٢، ص٣٣٩، ٣٤٠.

[5] - اليعقوبي: المصدر السابق، ج٢، ص٣٢٠.

[6] - الذهبي: العبر في خبر من غبر، ج٢، ص٣٨٤. ابن الأثير: المصدر السابق، ج٩، ص١٣٦.

[7] - ابن العماد: المصدر السابق، ج٥، ص٤٠٣. القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص١٤٢، ١٤٣. الذهبي: المصدر نفسه، ج٣، ص٣٦٥، ٣٦٦.

لحماية الساحل الممتد من طرابلس إلى بيروت، وأصبحت مدينة طرابلس في عصر المماليك صورة مصغرة لمدينة القاهرة من حيث كثرة المساجد والمدارس بقبابها ومآذنها ومن حيث نشاط سوقها الاقتصادي بفضل الصادرات والواردات[1].

وبقيت مدينة طرابلس تحت حكم المماليك إلى أن سقطت بأيدي العثمانيين بعد معركة مرج دابق سنة ٩٢٢هـ/ ١٥١٦م[2].

هـ– صيدا: بفتح الصاد المهملة وسكون الياء وفتح الدال المهملة وألف مقصورة في الآخر، تقع مدينة صيدا على بعد ٤٥كم من بيروت جنوباً وعن صور ٤٠ كم شمالاً في سهل ساحلي شديد الخصوبة وافر المياه، ولكنه ضيق ينحصر بين السفوح الغربية لجبال لبنان الجنوبية وبين البحر، وتشغل المدينة بقعة من الأرض على شكل مثلث قاعدته إلى الداخل ورأسه شبه جزيرة أو نتوء بارز من البحر، ويحيط بالمدينة في الشرق والجنوب والشمال الشرقي بساتين غنية بالفاكهة، وكان لموقع صيدا الجغرافي وقيامها على شبه جزيرة ضاربة في البحر أعظم الأثر في تقرير مصيرها كميناء تجاري وحربي مهم في حقب التاريخ[3].

أما من حيث التسمية فتنسب إلى صيدون بن صدقاء بن كنعان بن حام بن نوح عليه السلام، وطول صيدا تسع وخمسون درجة وعرضها ثلاث وثلاثون درجة وثلثان، وهي في الإقليم الرابع[4] تعد مدينة صيدا في مقدمة مدن الساحل الشامي التي افتتحها يزيد بن أبي سفيان سنة

---

[1] - القلقشندي: المصدر نفسه، ج٤، ص١٤٣- ١٤٦.

[2] - ابن أجا: العراك بين المماليك والعثمانيين الأتراك مع رحلة الأمير يشبك بن مهدي الدوادار، ص٢٤٨. الجبرتي: تاريخ الجبرتي، ج١، ص١٣.

[3] - أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٢٤٨، ٢٤٩.سالم (عبد العزيز): تاريخ مدينة صيدا في العصر الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة للنشر، إسكندرية، ١٩٨٦م، ص٩، ١٠- ١٢.

[4] - ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٣، ص٤٣٧.

١٣هـ/٦٣٤م[١]، وبقيت المدينة في أيدي العرب المسلمين إلى أن زحفت إليها الفرنجة بقيادة مغدون صاحب القدس سنة ٥٠٤هـ/١١١٠م، في جمع كثير، فاحتلها وأسر أهلها، وبقيت في أيديهم إلى أن استعادها العرب المسلمين في عهد السلطان صلاح الدين الأيوبي مع عدد من المدن الساحلية سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م[٢]، وبعد وفاة السلطان صلاح الدين الأيوبي اشتعلت الحروب بين ورثته، وهذا ما مكن الصليبيين (الفرنجة) من استعادة صيدا ثانيةً عندما قام الملك الصالح إسماعيل صاحب دمشق والملك الناصر صاحب الكرك بتسليم الفرنج عدداً من المدن العربية الإسلامية ومن بينها صيدا وبقيت في أيديهم إلى أن تم تحريرها على يد العرب المسلمين في عهد السلطان المملوكي الأشرف خليل بن قلاوون سنة ٦٩٠هـ/١٢٩١م، فقام بهدمها مع عدد من المدن التي كانت بحوزة الصليبيين في السابق، وهكذا تحولت صيدا إلى خراب[٣].

وأصبحت تابعة إلى نيابة دمشق، وتعرضت صيدا لهجمات متكررة من قبل القبارصة، واستمر هذا الوضع إلى أن تم عقد صلح بين ملك قبرص بطرس الثاني دي لوزينيان والسلطان المملوكي المنصور علاء الدين سنة ٧٧٢هـ/١٣٧٠م، ومع تراكم الرمال على ميناء صيدا أخذ يفقد صلاحيته في الملاحة، واستمر الوضع على هذه الحال إلى أن أصبحت صيدا مدينة عثمانية بعد معركة مرج دابق بين المماليك والعثمانيين سنة ٩٢٢هـ/ ١٥١٦م[٤].

---

١ - البلاذري: المصدر السابق، ١٧٣. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج٢، ص٢٨٠.

٢ - أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر،ج٣، ص٩٢. ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج٣، ص٤٣٨. الزين (أحمد عارف): تاريخ صيدا، مطبعة العرفان، صيدا، ١٣٣١هـ، ص٥٧.

٣ - الذهبي: العبر في خبر من غبر، ج٣، ص٣٧١. ابن أبيك الدواداري: المصدر السابق، ج٧، ص٣٤٤، ٣٤٥.

٤ - ابن أجا: العراك بين المماليك والعثمانيين الأتراك مع رحلة الأمير يشبك بن مهدي الدوادار، ص٢٤٨. سالم تاريخ مدينة صيدا في العصر الإسلامي، ص١٦٤، ١٦٥- ١٧٢.

الفصل الثاني :

الصراع الحربي البحري بين المماليك والصليبيين في الحوض الشرقي للمتوسط منذ تحرير عكا حتى فتح جزيرة قبرص

تمهيد- أحوال العالمين الشرقي والغربي في القرنين السابع والثامن الهجريين/الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين :

لم ينته القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي حتى أخذت الفكرة الصليبية تخمد بين ظهراني العالم المسيحي مقابل يقظة عربية إسلامية شهدها الشرق الأدنى، حيث اتحدت جبهاته، وبادروا بالهجوم رداً للعدوان في وقت التزم فيه الغرب بسياسة الدفاع عن النفس وعن معاقلهم الصليبية في المشرق العربي الإسلامي، وتطلع العالم الإسلامي إلى القضاء على المعاقل الصليبية (الفرنجة) على ساحل بلاد الشام[1] وجاء سقوط عكا آخر المعاقل الصليبية٦٩٠هـ/ ١٢٩١م على يد السلطان المملوكي الأشرف خليل بن قلاوون تتويجاً للنشاط الحربي للعرب المسلمين ضد المواقع الصليبية في المشرق العربي الإسلامي[2] فبعد تحرير عكا وطرد الفرنج من سواحل بلاد الشام تدهورت حال الحركة الصليبية لأسباب عديدة، منها ضياع القواعد الصليبية، مثل أنطاكية وطرابلس وصور التي كان يعتمد عليها الجيش القادم من أوربا ليباشر منها عملياته الحربية[3] وضعف الاندفاع الملكي لإقامة التحالفات كما لم تعد الملكية تأبه بتنفيذ أمر البابا، وإن إعداد حملة حربية ضخمة كان بعيد الوقوع بعد أن أصبحت الإمبراطورية البيزنطية طيفاً وحسب، وإن صيحات البابوية لم تعد تثير اهتمام أوربا وشعوبها التي أصبحت تميل إلى الهدوء والسلام كما أن الطوائف الدينية والعسكرية (الداوية – الإسبتارية)[4] عجزت عن مباشرة واجباتها على النحو

---

[1]- نعينع (سهير محمد إبراهيم): الحروب الصليبية المتأخرة حملة بطرس الأول لوزسنيان الصليبية على الإسكندرية ٧٦٧هـ /١٣٦٥م، عين للدراسات الإنسانية والاجتماعية، الهرم، ط١، ٢٠٠٢م، ص٣٥.

[2]- ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج٨، ص٣.

[3]- اليافعي: مرآة الجمان وعبرة اليقظان، ج٤، ص١٢٥. الذهبي: العبر في خبر من غبر، ج٣، ص٣٦٥. ابن كثير: البداية والنهاية، ج٧، ص٦٣٤.

[4] – الداوية والإسبتارية: هي تنظيمات عسكرية دينية في العصور الوسطى خلال الحروب الصليبية.

السليم في قبرص، ولم يعد بوسعها تعهد حملة صليبية من دون مساعدة، وهكذا أمست أوربا تفضل مصالحها على إرضاء الكنيسة والبابوية[1] واكتفت ببعض الاعتداءات على سواحل مصر وبلاد الشام بين الحين والآخر، حيث كانت معظم هذه الاعتداءات تنطلق من جزيرة قبرص، وهذا ما سوف نشير إليه في هذا الفصل، لكن قبل أن نتحدث عن هذه الاعتداءات لابد أن نعرج على الحدث الكبير وهو تحرير مدينة عكا وما ترتب عليه من مشاريع صليبية (فرنجية)

الإسبتارية أو فرسان القديس يوحنا في بيت المقدس، كانوا في الأصل هيئة غرضها تأسيس الفنادق والخانات لراحة المسافرين الحجاج إلى بيت المقدس وتأسيس المستشفيات، طردت من عكا بعد تحريرها على يد الأشرف خليل، استطاعت بمساعدة الجنوية السيطرة على جزيرة رودس.

أما الداوية فهي منظمة رهبانية عسكرية مهمتها حماية الصليبيين القادمين من أوربا إلى بيت المقدس ومحاربة المسلمين، وقد عرفت هذه الطائفة بفرسان المعبد أو الهيكل وسرعان ما انقلبت إلى محاربين أشداء يرتدي فرسانها أردية بيضاء عليها صلبان حمراء، وبعد تحرير عكا تركز نشاطهم في أوربا إلا أن تم تصفيتهم في القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي من قبل ملك فرنسا فليب الجميل. للمزيد انظر:

زابوروف (ميخائيل): الصليبيون في الشرق، ترجمة: إلياس شاهين، دار التقدم، موسكو، ١٩٨٦م، ص١٦٠-١٦٢. زكار (سهيل) وآخرون: حروب الفرنجة، جامعة دمشق، ٢٠٠٧م، ص٢٢٠-٢٢٢-٢٢٣. سمباط: التاريخ المعزو إلى القائد سمباط الأرمني، الموسوعة الشامية، دار الفكر، دمشق، ١٩٩٩م، ج٣٥، ص٣٥. دوبوا (بيير): استرداد الأرض المقدسة، الموسوعة الشامية، دار الفكر، ١٩٩٩م، ج٣٦، ص١٠٥. إ. ج (كنغ): ملاحق كتاب الإسبتارية في الأرض المقدسة، من خلال الموسوعة الشامية، ترجمة: سهيل زكار، دمشق، ١٩٩٨م، ج٣٣، ص٢٤٨. عاشور(سعيد عبد الفتاح): الحركة الصليبية صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد في العصور الوسطى، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط١، ١٩٦٣م، ج٢، ص١٢٣٣، ١٢٣٤. عاشور: العصر المماليكي في مصر وبلاد الشام، ص١٠٧. الصوري (الفارس الداوي): أعمال القبارصة، الموسوعة الشامية، تحقيق وتأليف وترجمة: سهيل زكار، دمشق، ٢٠٠٦م، ص٨٠٤.

[1]- رنسيمان (ستيفن): تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة: الباز العريني، دار الثقافة، بيروت، ١٩٩٧م، مج٣، ق٢، ص ٧١٧، ٧٢٣.

عرضت على البابوية لإعادة الممتلكات الصليبية في المشرق العربي الإسلامي التي تم تحريرها على يد العرب المسلمين.

أولاً– تحرير مدينة عكا آخر المعاقل الصليبية في بلاد الشام على أيدي المماليك:

بعد قيام دولة المماليك في مصر وبلاد الشام في النصف الثاني من القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي بدؤوا يتطلعون إلى تحرير مدن سواحل بلاد الشام من أيدي الصليبيين (الفرنجة) الذين جعلوها مركزاً لقيادة الحملات الصليبية إلى الشرق، *ومن أهم هذه المدن وأعظمها مدينة عكا التي غدت مركز مملكة بيت المقدس الصليبية منذ استيلاء العرب المسلمين على بيت المقدس*[1] وهنا يتبادر إلى أذهاننا سؤال عن الأسباب التي دفعت المماليك إلى القيام بهذا العمل العسكري الكبير، لتحرير مدينة عكا، وهل كان للأسطول المملوكي دور في تحرير هذه المدينة ؟

وعند الإجابة لابد من الإشارة إلى بعض الأحداث التي جرت في مدينة عكا من قبل الصليبيين بعد نشوء دولة المماليك التي دفعت سلاطينها إلى التفكير جدياً بتحرير عكا والقضاء على الوجود الصليبي فيها.

بعد انتصار فرقة المماليك البحرية في أواخر عهد الدولة الأيوبية في مصر على الصليبيين في حملتهم السابعة وأسر ملكهم لويس التاسع جرت مفاوضات بين الطرفين (الإسلامي – الصليبي) أطلق بموجبها سراح قائد الحملة الصليبية الملك لويس التاسع مقابل دفع فدية كبيرة للعرب المسلمين حينها توجه لويس التاسع إلى مدينة عكا ليراقب عن كثب الصراع بين المماليك في مصر والأيوبيين في بلاد الشام[2]*، فخشي السلطان المملوكي المعز أيبك حدوث تفاهم بين الأيوبيين في بلاد الشام ولويس التاسع زعيم الصليبيين* ولكي يؤمن شر هجوم غادر يقوم به

---

[1]– العيني: عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، ج١، ص٣١. عاشور (سعيد عبد الفتاح): أضواء جديدة على الحروب الصليبية، دار القلم، القاهرة، ١٩٦٤م، ص٤٧.

[2]– ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٦، ص٣٢٣–٣٢٩. أبو شامة: الذيل على الروضتين، ص١٨٤.

لويس التاسع على مصر ويثأر لما حل به من هزيمة في المنصورة، فقد أمر أيبك بهدم تحصينات مدينة دمياط، لكي لا يتمكن الصليبيون من اتخاذها مرة أخرى قاعدة لهم يهددون من خلالها المدن الداخلية في مصر[1] وفي سنة ٦٧٠هـ/١٢٧١م وصلت إلى مدينة عكا حملة صليبية (فرنجية) صغيرة بقيادة الأمير إدوارد الإنكليزي الذي بدأ بتنظيم أمور الدفاع عن عكا والاتصال مع المغول لاحتلال مصر وبلاد الشام من أيدي المماليك لكن هذه الحملة لم تحقق أية نتيجة، وذهبت أحلام اليقظة الصليبية أدراج الرياح[2] وفي سنة ٦٨٩هـ/١٢٩٠م وصلت إلى عكا حملة صليبية من إيطالية، ولم تكد تطأ أرجل الصليبيين أرض عكا حتى أرادوا أن يعبروا عن حماسهم الديني، فهاجموا الفلاحين، ثم ذبحوا كل من كان بداخل مدينة عكا من التجار المسلمين الذين كانوا قد قصدوها في ظل الأمان المعطى لهم بعد عقد الصلح بين السلطان المملوكي المنصور قلاوون والصليبيين، فلما رأى السلطان قلاوون ملابس ضحايا المسلمين مضرجة بالدماء استشاط غضباً، وأقسم أن ينتقم لهم من الصليبيين (الفرنجة)، ولما أفاق الصليبيون من غفوتهم خشوا عاقبة ما فعله أولئك الصليبيون الجدد لذلك أرسلوا إلى السلطان قلاوون يعتذرون عما حدث ووعدوه بمعاقبة المذنبين، ولكن السلطان رفض الاعتذار[3]، وأخذ يعد العدة للانتقام وأعلن الحرب على الصليبيين، ولم يكد قلاوون يفرغ من كافة الاستعدادات الحربية، ويغادر القاهرة لحرب الصليبيين بالشام حتى وافته المنية سنة ٦٨٩هـ/١٢٩٠م[4] حينها أتم ابنه السلطان

---

[1]- ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٧، ص٣١٣.

[2]- عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص ١١٥٨، ١١٦٢، ١٢٠٢.

[3]- ابن الوردي (زين الدين عمر): تتمة المختصر في أخبار البشر، ج٢، ص٢٣٥. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٧، ص٢٥٥، ٢٥٦- ٢٧٦. ماهر: البحرية في مصر الإسلامية وآثارها الباقية، ص١١٥. زيتون: تاريخ المماليك، ص٤٨.

[4]- الصفدي (خليل بن أيبك): الوافي بالوفيات، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠٠ م، ج٢٤، ص٢٠٠. الذهبي: العبر، ج٧، ص٣٧٠. قاسم (قاسم عبده): عصر

الأشرف خليل ما بدأه والده وتوج بالظفر جهود كافة أسلافه في صراعهم مع الصليبيين (الفرنجة)[1].

وكانت عكا آخر مدينة كبرى باقية للصليبيين في بلاد الشام، ولذلك أدركوا أن ضياعها يعني نهاية عهدهم بالشام، فمالوا لصرف الأشرف خليل بن قلاوون عن قصده[2]، وقد حملت استعدادات الأشرف خليل سكان مدينة عكا الصليبيين إلى توجيه استغاثات عاجلة إلى أوربا الغربية، فوصل إلى مدينة عكا عدد من الفرسان الإنكليز أرسلهم إدوارد ملك إنكلترا وتناست الطوائف الدينية والجاليات الصليبية خلافاتها القديمة، وتكاتفت للدفاع عن عكا وحشد الداوية والإسبتارية وكل قادر على حمل السلاح داخل المدينة ليقوم بدوره في الدفاع عن مدينة عكا، واستدعى قائد طائفة التيوتون[3] عدداً من أتباعه، كما أرسل هنري الثاني ملك قبرص عدداً من

سلاطين المماليك التاريخ السياسي والاجتماعي، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط١، ١٩٩٨م، ص١٢١.

[1]- ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٧، ص٢٧٦. ج٨، ص٤. الكتبي: فوات الوفيات،ج١، ص٤٠٦. ابن الوردي: تتمة المختصر في أخبار البشر، ج٢، ص٢٣٥.

[2]-اليافعي: مرآة الجنان وعبرة اليقظان، ج٤، ص١٥٨. طقوش: تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام ٦٤٨-٩٢٣هـ / ١٢٥٠-١٥١٧م، ص٢٠٣.

[3] - التيوتون: هو تنظيم ألماني، تأسس في القدس من قبل واحد من الحجاج الألمان سنة ٥٢١هـ/ ١٢٢٧م وتحول إلى تنظيم عسكري في سنة ٥٩٥هـ/ ١١٩٨م، ارتدى هؤلاء أردية بيضاء عليها صلبان سوداء، وعندما حرر المسلمون عكا تم نقل ديرهم إلى البندقية. وللمزيد عن طائفة التيوتون انظر :

حسين (حسن عبد الوهاب): تاريخ جماعة التيويون في الأراضي المقدسة حوالي ١١٩٠-١٢٩١م/ ٥٨٦-٦٩٠هـ، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٩م، ص٩٤-٩٨-١٢١-٣٣٥. كنغ: ملاحق كتاب الإسبتارية في الرض المقدسة، ص٢٥١-٢٥٣. الفيتري (يعقوب): تاريخ بيت المقدس، ترجمة: سعيد البيشاوي، دار الشروق، ١٩٩٨م، ص٨٥.

الجنود، وعهد إلى أخيه عموري بالدفاع عن عكا[1]*، وكان عدد الجيش العربي الإسلامي كما قدره المؤرخون ٦٠ ألفاً من الفرسان و١٦٠ ألفاً من المشاة*[2]*، وكانت عكا تضم بين ظهرانيها كل عناصر المقاومة من إفرنج سورية وقبرص*[3]، وقد تحدث أبو الفداء في كتابه (المختصر في أخبار البشر) عن تحضيرات الأشرف خليل بن قلاوون لفتح عكا يقول: ((**في هذه السنة ٦٩٠هـ في جمادى الآخرة فتحت عكا، وسبب ذلك أن السلطان الملك الأشرف سار بالعساكر المصرية إلى عكا وأرسل إلى العساكر الشامية وأمرهم بالحضور، وأن يحضروا صحبتهم المجانيق، فتوجه الملك المظفر صاحب حماه وعمه الملك الأفضل وسائر عسكر حماه، وكان نزول العساكر الإسلامية عليها في أوائل جمادى الأولى من هذه السنة واشتد عليها القتال ولم يغلق الفرنج غالب أبوابها بل كانت مفتحة وهم يقاتلون فيها**))[4].

وكان المطوعة في الجيش العربي الإسلامي أكثر من الجند ومن في الخدمة، ونصب عليها من المجانيق الكبار خمسة عشر منجنيقاً، منها ما يرمى بقنطار دمشقي[5] *وأكبر، ومنها دونه، وأما المجانيق الشيطانية وغيرها، فكانت كثيرة، وتمكنت القوات العربية الإسلامية من إحداث عدة نقوب في أسوار مدينة عكا، فلما كان سحر يوم الجمعة سابع عشر جمادى الأولى ركب السلطان والعساكر العربية الإسلامية، وزحفوا عليها قبل طلوع الشمس وضربوا الكوسات*[6]*،*

---

[1]- ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج٨، ص٥، ٦، ٧. طقوش: المرجع نفسه، ص٢٠٤. قاسم: عصر سلاطين المماليك التاريخ السياسي والاجتماعي، ص١٢٢.

[2]- عاشور: أضواء جديدة على الحروب الصليبية، ص٤٧، ٤٨.

[3]- برجاوي (سعيد): الحروب الصليبية في المشرق، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط١، ١٩٨٤م، ص٦٣٦.

[4]- أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، ج٤، ص٣٤.

[5]- القنطار الدمشقي: وحدة وزن تعادل ١,٨٥ كغ

[6] - الكوسات: مفردها كوسة وهي صنوجات من نحاس شبه الترس الصغير، يدق بأحدهما على الآخر بإيقاع مخصوص، والشخص الذي يضرب الكوسات يسمى الكوسي. القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص٩-١٣.

فكان لها أصوات مهولة وحس عظيم مزعج، وعندما اقترب الجيش العربي الإسلامي من المدينة وأسوارها هرب الفرنج[1] *وعندها أمر السلطان أن تضرب عكا كلها دفعة واحدة، وركب السلطان وضربت، فهال ذلك أهل عكا، وزحف بعساكره ومن اجتمع معه قبل شروق الشمس، فلم ترتفع الشمس حتى علَت الصناجق الإسلامية على أسوار مدينة عكا*[2] ويقول ابن أيبك: ((**فقتل منهم عالم لا يحصى بعدد الرمل والحصى**))[3].

واقتحم أهالي المدينة الميناء وتجمعوا على ظهر السفن الراسية هناك بغية الفرار، وقد تسبب الزحام الشديد بغرق بعض السفن الصليبية (الفرنجية) وحدوث هلع واضطراب في جميع أنحاء الميناء[4] *وكانت مدة حصار مدينة عكا من قبل القوات الإسلامية أربعة وأربعين يوماً*[5] *والعجيب أن الله سبحانه وتعالى قدر فتح عكا في مثل اليوم الذي أخذها الفرنج ومثل الساعة التي أخذوها فيها*[6] *وشرع السلطان المملوكي الأشرف خليل في هدم أسوارها من أول يوم السبت صبيحة الفتح المبارك*[7].

---

[1] – ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٨، ص٥. ابن الوردي: تتمة المختصر في أخبار البشر، ج٢، ص٢٣٥.

[2] – المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ص٥٢٨.

[3] – ابن أيبك الداوداري: كتر الدرر وجامع الغرر، ج٨، ص٣١٠.

[4] – المقريزي: السلوك، ج١، ص٥٢٩.

[5] – المقريزي: المصدر نفسه، ج١، ص٥٢٨.

[6] – ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٨، ص٧.

[7] – ابن أيبك الداوداري: المصدر السابق، ج٨، ص٣١٠.

وعند مهاجمة الأشرف خليل عكا أنفذ فريقاً من جنده تحت قيادة الأمير علم الدين سنجر الصوابي، وذلك لحفظ الطرق والتضييق على مدينة صور، فقام هذا الأمير بهجمته وحال دون دخول المراكب المحملة بالمنهزمين من عكا إلى ميناء صور[1].

بعد ذلك قامت القوات العربية الإسلامية بفتح المراكز القليلة الباقية بأيدي الصليبيين (الفرنجة) مثل صور وصيدا وعثليث وأنطرطوس وجبيل وهدم الجميع ما عدا بيروت التي اختارت التسليم للنجاة من هذا المصير، ولم يبقَ في السواحل الشامية معقل للفرنج إلا واستولى عليه العرب المسلمون[2]، والواضح من مجريات الأحداث أن دور البحرية العربية الإسلامية لم يكن يوازي دور العملية العسكرية البرية في حرب الاسترداد للثغور الشامية إلا أننا نلاحظ بعد ذلك حقيقة مهمة وهي أن امتلاك العرب المسلمين لسواحل بلادهم بعد تحريرها من الصليبيين جعلهم يشعرون بمسؤولية المحافظة عليها ويهتمون بوسائل الدفاع عنها، وهذا ما سوف نشير إليه فيما بعد[3]، وأعقب سقوط عكا حال مفرحة لدى العرب المسلمين، وأخذوا الأطفال والنساء إلى مصر أسرى، ولما عاد الأشرف خليل إلى القاهرة زينت له المدينة أحسن زينة فدخلها مظفراً يسوق عدداً هائلاً من الأسرى[4] وقد رأى الشيخ شرف الدين البوصيري في منامه قبل أن يخرج يخرج الأشرف خليل إلى عكا قائلاً ينشده:

وقد أخذ المسلمون عكا وأشبعوا الكافرين صكا

---

[1]- سعيد: البحرية في عصر سلاطين المماليك، ص٢٥٥. النهار: العصر المفترى عليه عصر المماليك البحرية، ص٤٠.

[2]- أبو الفداء: المصدر السابق، ج٤، ص١٤. ابن كثير: البداية والنهاية، ج٧، ص٦٣٤، ٦٣٥. الكتبي: فوات الوفيات، ج١، ص٤٠٩.

[3]- سالم وعبادي: تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام، ص٣٠٧، ٣٠٨.

[4]- أبو الفداء: المصدر السابق، ج٤، ص١٥.

وساق سلطاننا إليهم *خيلاً تدك الجبال دكا*

وأقسم الترك منذ سارت *لا تتركوا للفرنج ملكا*[1]

وأنشد الشهاب محمود الحلبي كاتب الإنشاء عن تدمير عكا:

مررت بعكا بعد تخريب سورها *وزند أوار النار في وسطها واري*

وعاينتها بعد التنصير قد غدت *مجوسية الأبراج تسجد للنار*[2]

وبعد تحرير عكا وبقية المعاقل الصليبية على أيدي القوات العربية الإسلامية ساد السكون والأمان على امتداد الساحل الذي ظل زمناً طويلاً ميداناً تسمع فيه قعقعة سلاح هذا الصراع، وبذلك زالت إمارات الصليبيين (الفرنجة) نهائياً من الشام وعادت بلاد الشام لا يقطنها إلا أبناؤها الأصليون ولا يتمتع بخيراتها إلا أصحابها الحقيقيون، ونتيجةً لسقوط عكا أخذت فلول الصليبيين الهاربين من عكا تتجمع في جزيرة قبرص وتعتدي على المماليك وسفنهم، ومن قبرص انطلقت حملة صليبية توجهت نحو الإسكندرية فكانت مأساة كبرى ولها أفردت مساحة في هذا الفصل، وذلك لأهميتها وما ترتب عليها من أحداث فيما بعد.

ثانياً – الأساليب الصليبية البحرية في مواجهة الدولة المملوكية بعد تحرير عكا:

١– مساعي البابوية: *شهدت الأوضاع العربية وأوضاع كل من الطرفين المملوكي والفرنجي تغييرات مهمة مع نهاية العصور الصليبية التقليدية (نهاية القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي)، فمن جهة أصبحت الدولة المملوكية مركز الخلافة الإسلامية في مصر ولمدة ثلاثة قرون، وقد ظلت ما يقرب من القرنين تمثل القوة العسكرية الأولى في العالم الإسلامي وأكثر النظم التي عرفتها مصر منذ الفتح العربي الإسلامي قوةً ونفوذاً*[3]، *وفي المقابل أخفق الصليبيون في*

---

[1]- المقريزي: السلوك، ج١، ص٥٣٠.

[2]- المقريزي: المصدر نفسه، ج١، ص٥٢٩.

[3]- السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص٣٧٢.

الحفاظ على مملكة أورشليم اللاتينية والدفاع عن مدينة عكا، ولذلك كان على أوربا أن تبحث عن أسباب إخفاقها في مواجهة العرب المسلمين، حينها نشط عدد كبير من بابوات وملوك وأمراء ودعاة أوربا للتضييق على السلطنة المملوكية وعلى كافة الصعد[١].

فأيسر ما نقوله وأصدقه هو أن الحروب الصليبية (الفرنجة) لم تنقطع، بل جرى توقيفها ولم تتوقف إلا لأنها لم تعد ملائمة للأزمنة والعصور، فما اشتهرت به أوربا في سنة ١٣٠٠م تختلف عما اتصفت به أوربا سنة١١٠٠م؛ فالحروب الصليبية التي تجسم فيها كل ما اتصفت به أوربا سنة١١٠٠م من الروح الدينية والاستشهاد والتفكير في الحياة الآخرة صارت غريبة سنة١٣٠٠م عن أوربا التي اشتهرت بالعلمانية والدنيوية ودراسة القانون والفلسفة[٢]، ومع ذلك فقد ظهر عدد من البابوات والدعاة الذين قاموا بنشاط واسع لتوجيه حملة صليبية إلى الشرق للقضاء على الدولة المملوكية واستعادة الممتلكات الصليبية التي تم تحريرها على يد العرب المسلمين، وكان هذا سبب تدفق أدب الحروب الصليبية الذي يميز هذه الفترة[٣].

وبرز من ثنايا هذه المتغيرات أنماط من الصراع الاقتصادي والعسكري، فما هي الأسباب التي أفرزت هذا النمط وكيف تم تقويمه ؟

---

[١]- أبو الفداء (عماد الدين): التبر المسبوك في تواريخ الملوك، تحقيق: محمد زينهم محمد عزب، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط١، ١٩٩٥م، ص٨٥. زكار (سهيل): الإعلام والتبيين في خروج الفرنج الملاعين على ديار المسلمين، مكتبة دار الملاح، دمشق، ١٩٨١م، ص٨٢-١٠٦. عطية (عزيز سوريال): الحروب الصليبية وتأثيرها على العلاقات بين الشرق والغرب، ترجمة: فيليب صابر سيف، دار الثقافة، القاهرة، ط٢، ص٨٢.

[٢]- باركر (أرنست): الحروب الصليبية، ترجمة: السيد الباز العريني، دار النهضة العربية، بيروت، ط٢، ١٩٦٧م، ص١٣٤، ١٣٥.

[٣]- عطية (عزيز سوريال): العلاقات بين الشرق والغرب تجارية- ثقافية- صليبية، ترجمة: فيليب صابر سيف، دار الثقافة المسيحية، القاهرة ط١، ١٩٧٢، ص٨٢.

شهد نهاية القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي تصفية الوجود الصليبي في بلاد الشام على يد المماليك؛ ولذلك نشأ فكر وأدوات جديدة أوربية لتوجيه ضربات مهمة وقوية للعرب المسلمين في حوض البحر المتوسط، وكانت دولة المماليك هي الهدف الأول، فتبلور الإدراك البابوي في هذه المرحلة حول ضرورة ضرب مصالح النشاط التجاري المصري بفرض حصار اقتصادي عليها ليحاربها في أعظم موارد ثروتها، الذي يمثل المصدر الأول لغنى دولة سلاطين المماليك وقوتها بعد احتكار مصر لطريق التجارة الوحيد والآمن والمستقر والبعيد عن سيطرة وتهديد المغول بين الشرق والغرب[١].

فها هو البابا نقولا الرابع (٦٨٧-٦٩٢هـ/ ١٢٨٨-١٢٩٣م) يصدر مرسوماً حرم بموجبه الاتجار مع المماليك، وهدد كل من يخالفه بقرار الحرمان، وذلك اعتقاداً منه أن هذا سيحرم المماليك من أهم موارد قوتهم فيصبحون فريسة سهلة للغرب، وطلب من الداوية والإسبتارية توحيد نظامهما والعمل معاً ضد المماليك، وعمل على إضفاء الصفة الدينية على تحركاتهم[٢]، بالإضافة إلى هذه الإجراءات قام البابا نقولا الرابع بعدة أعمال أخرى ضد المماليك، فحاول إنقاذ مملكة أرمينيا منهم فأرسل إليها الجيش الذي أعده لاحتلال عكا، وأرسل أسطوله البحري إلى مملكة قبرص للاشتراك معها في تهديد مدينة الإسكندرية، واستمر في اتصالاته التي كان قد بدأها أسلافه سابقاً مع المغول للاشتراك معاً في الهجوم على بلاد الشام ومصر للقضاء على دولة المماليك [٣]، فقد سادت فكرة التعاون مع المغول بعد التبشير بينهم لاعتناق المسيحية لتوجيه

---

[١]- مصطفى (ناديه محمود): العصر المملوكي من تصفية الوجود الصليبي إلى بداية الهجمة الأوربية الثانية، المعهد العالي الإسلامي، القاهرة، ط١، ١٩٩٦م، ص٣٨ -٤٣.

[٢]- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، مج٣، ق٢، ص٧٢٠، ٧٢١.

[٣]- برجاوي: المرجع السابق، ص٦٤٢، ٦٤٣.

جهود الجميع نحو القضاء على دولة المماليك في مصر والشام، وهو ما أطلق عليه في بعض الأحيان (صليبية التتار)، واعتنق هذه الفكرة بعض البابوات وملوك أوربا[1].

غير أن هذه المساعي من قبل البابا نقولا الرابع باءت بالفشل، وظل التحالف مع المغول منذ البداية حتى النهاية لغزاً محيراً، واختفى آخر أمل وهمي عندهم حين اعتنق المغول الإسلام في آخر الأمر[2]، وكذلك أدار ملوك أوربا ظهورهم لدعواته في إرسال حملة صليبية (فرنجية) إلى الشرق كما فشل في الحصار الاقتصادي على دولة المماليك عندما عاد التجار الأوربيون وبخاصة المدن الإيطالية للمتاجرة مع المماليك وفي سنة ٦٩٢هـ/١٢٩٣م مات نقولا الرابع كاسف البال خائب الآمال[3]، ولم يكن البابا نقولا الرابع الساعي الوحيد للفكرة الصليبية، فها هو البابا بونيفاس الثامن (٦٩٣-٧٠٢هـ/ ١٢٩٤-١٣٠٣م) وكذلك بندكت الحادي عشر (٧٠٢-٧٠٣هـ/ ١٣٠٣-١٣٠٤م) يصدران قرارات بحرمان المتاجرة مع العرب المسلمين، فالهدف من هذه القرارات هي إضعاف سلطة المماليك اقتصادياً التي أصبحت أرضها المعبر الرئيسي لتجارة الشرق إلى الغرب مما كان له أثره في الثروة الضخمة التي تمتع بها المماليك.

وقد رأت المدن الإيطالية أو البرفنسالية أو الأرجوانية التجارية أن مثل هذه القرارات يتعذر عليها تنفيذها من الناحية العملية لأن رخاءها يتوقف على التجارة الشرقية التي تمر بجزء كبير منها عبر ممتلكات الدولة المملوكية[4]، فإذا توقفت تجارة هذه المدن فلن يكون بوسعها إبقاء أساطيلها

---

[1] - نعينع: المرجع السابق، ص٨٧.

[2] - الذهبي: العبر في خبر من غبر، ج٣، ص٣٠١. ابن العماد: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج٧، ص٥٢٨- ٧٤٨. باركر: المرجع السابق، ص١٣٦.

[3] - عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص١١٩٢. زيادة (نقولا): رواد الشرق العربي في العصور الوسطى، بيروت، ١٩٤٣م، ص٢٥.

[4] - رنسيمان: المرجع السابق، ص٧٢١.

في البحر المتوسط، لذلك ستخسر جانباً كبيراً من دخلها الذي يضمن لها تفوقها البحري عبر مياه هذا البحر، عندئذ يصبح من السهل على العرب المسلمين السيطرة على شرق البحر المتوسط؛ لذلك يمكننا أن نرى بوضوح أن التجارة قد أضحت في ذلك الوقت رهن الكنيسة وقراراتها لأن حياة هذه المدن التجارية ووجودها إنما يتوقف على تجارتها[1]، وعندما اعتلى البابا كليمون الخامس (٧٠٤-٧١٣هـ/ ١٣٠٥-١٣١٤م) السدة الرسولية شرع بإصدار سلسلة من القرارات حرم بموجبها - ودون تمييز - إرسال كافة السلع إلى سلطنة المماليك، بل ذهب إلى أبعد من ذلك عندما أصدر تحذيراً هدد بموجبه جميع التجار المسيحيين الذين يخالفون هذه القرارات بأنهم سوف يتعرضون إلى المصادرة وفقدان الحرية الشخصية وعدهم فاسقين ويتعرضون للاستبعاد وما يتبع ذلك من حرمانهم من حقوقهم المدنية والشرعية بالإضافة إلى حرمانهم الكنسي والذي لا يرفع عنهم إلا في حال إقدامهم على وهب كل أرباحهم من تلك التجارة لصالح الحملة الصليبية (الفرنجية) التي يجري الإعداد لها تحت إشرافه لتوجيهها إلى سلطنة المماليك[2]، وكذلك أباح البابا (حنا الثاني والعشرون) سنة ٧٣١هـ/١٣٣٠م للملك الفرنسي فيليب السادس جمع ضريبة العشور لمدة سنتين فقط لإعداد حملة صليبية وإرسالها إلى السلطنة المملوكية، كما أباح له في السنة التالية بيع صكوك الغفران للغرض نفسه[3]، كما سنرى في المبحث التالي الحماس الكبير للبابا أوربان الخامس في حملة بطرس لوزينيان على الإسكندرية.

---

[1]- Atiya (Aziz suryal):The Crusade in the Later Middle Ages,Oxford,1938,p,4.

[2]- الخادم (سمير علي): الشرق الإسلامي والغرب المسيحي عبر العلاقات بين المدن الإيطالية وشرقي البحر المتوسط ١٤٥٠-١٥١٧م، دار الرياحين، بيروت، ط١، ١٩٨٩م، ص٤٢٥.

[3]- عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص١١٩٥.

وكذلك تكريس كل من بطرس دي توماس القاصد الرسولي للشرق وخلفه فيليب دي مزيير حياتهما في سبيل الدعوة الصليبية[1].

مما سبق نلاحظ الحماس البابوي لتبني مشروع يدور حول فكرة تجديد الحملات الصليبية (الفرنجية)، وإن كان مخالفاً لقواعد الكنيسة، وهذا دليل جديد على أن أطماع البابوية كانت أكثر من كونها دينية، بل كانت سياسة بالدرجة الأولى لتبسط جناحها على العالمين الشرقي والغربي، ولكن الآمال خابت فمقاطعة مصر تجارياً عاد بالخسائر على أوربا قبل الشرق الإسلامي، فتحايلت العديد من المدن الأوربية على قرارات البابا لإعادة نشاطها التجاري مع مصر.

٢- المشاريع المطروحة للقيام بحملة صليبية جديدة على السلطنة المملوكية:

لم تنته الحركة الصليبية بسقوط عكا وخروج الصليبيين (الفرنجة) من الشام في أواخر القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي، بل دخلت في مرحلة جديدة تتفق مع مجريات الأحداث في كل من الشرق الإسلامي والغرب المسيحي، وقد سمي القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي وخصوصاً النصف الأول منه بعصر التبشير والدعوة لإحياء الحروب الصليبية، وحاولت البابوية الإفادة من كتابات بعض الدعاة ودعواتهم لتجديد الحروب الصليبية، الذين قدموا مشاريع متنوعة للقيام بهذه الحملة والطرق التي يجب أن تسلكها والوسائل اللأزمة لها وسأورد بعض هذه المشاريع على سبيل المثال لا الحصر:

أ- تقرير فدنزيو (fidonzio):

كان واحداً من الرهبان الفرنسيسكان ثم أصبح رئيساً لجماعته في الأراضي المقدسة سنة ٦٦٥هـ/ ١٢٦٦م، وشهد بنفسه سقوط صفد ثم أنطاكية بيد المماليك[1] طلب البابا

---

[1]- باركر: المرجع السابق، ص١٣٧، ١٣٨.

جريجوري العاشر (٦٦٩-٦٨٤هـ/ ١٢٧١-١٢٨٦م) من فدنزيو أن يوافيه بتقرير عن مشروع لحملة صليبية، فقام برحلاته إلى الشرق لجمع المعلومات التي ضمنها في مشروعه الذي عرضه في تقرير إلى البابا نقولا الرابع الذي اعتلى كرسي البابوية بعد جريجوري العاشر، وقد ساعدته خبرته بالمماليك وجيشهم، ومعرفته اللغة العربية في وضع خطته التي قدمها للبابا قبل سقوط عكا ولكن بسقوطها لم تعد لآرائه أهمية للموقف الجديد[٢]، وقد جاء في مشروعه الذي رفعه إلى البابا فرض حصار بحري على مصر بأسطول مكون من مئة سفينة حربية، واجبه الأول القضاء على المسيحيين الذين ما زالوا يتاجرون مع المسلمين متحدين قواعد الكنيسة، وسيكون ذلك ضربة قاسية للمماليك الذين يجهلون فن الملاحة، وأوضح مرابح المماليك من التجارة التي يمكن حرمانهم إياها بالتحول التجاري الهندي إلى فارس وأرمينية بدلاً من البحر الأحمر وأثناء نقاش هذا المشروع في روما وصلت أخبار سقوط عكا والساحل الشامي بيد المماليك، ولذا لم تعد خططه وآراؤه صالحة بعد أن تغير الموقف[٣].

ب- كتابات ثاديوس النابوليتاني (thaddeus) :

كان شاهداً عياناً على فتح عكا سنة٦٩٠هـ/ ١٢٩١م بجهود الأشرف خليل، فنشر تقريره عن هذا، ودعا في كتابه إلى حرب صليبية (فرنجية) جديدة، وكانت دعوته الأولى من نوعها بعد

---

[١]- ابن العماد: المصدر السابق، ج٧، ص٥٤٦. اليافعي: المصدر السابق، ج٤، ص١٢٥. أبو عليان (عزمي عبد محمد): مسيرة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين في عهد المماليك، دار النفائس، الأردن، ط١، ١٩٩٥م، ص١٠٣.

[٢]- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج٣، ص٧٢٢. عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص١١٩٣. Atiya: The Crusade ,pp,37,44.

[٣]- ابن قاضي شهبه (بدر الدين محمد): تاريخ ابن قاضي شهبه، تحقيق: عدنان درويش، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، ١٩٩٤م، ج٢،ص٣٥١. نعينع :المرجع السابق،ص٨٩.

سقوط عكا، وقد اختار في كتاباته الحوادث التي تثير مشاعر الكاثوليك ضد العرب المسلمين المنتصرين، وأرسل ينذر البابا نقولا الرابع بخطر المسلمين وضرورة استئصالهم، وقد قصر دعوته على الدعاية والتشجيع للنهوض لتخليص البلاد المقدسة من أيدي العرب المسلمين، التي تعد تراث المسيحيين[1].

ج- تقرير ريمون لل (Raymon Lull):

وهو داعية ومبشر إسباني ولد في ميورقة من جزر البليار سنة٦٢٠هـ/ ١٢٢٣م ومات على شواطئ تونس سنة ٧١٥هـ/ ١٣١٦م، وهو من أهم دعاة أواخر القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي، أجاد اللغة العربية، وشهد سقوط المعاقل الصليبية (الفرنجية) في الشام بأيدي العرب المسلمين، تميزت كتاباته بطابع فلسفي خاص، وهو طابع العالمية[2] وسعى لتطبيق فلسفته بضم جميع الأمم المسيحية أو الإسلامية أو التترية تحت لواء الكنيسة الرومانية الكاثوليكية، فدعا إلى ضرورة إيفاد بعثات تبشيرية لنشر تعاليم الكنيسة بين التتار قبل أن يجذبهم المسلمون أو اليهود، هذه الفكرة التي سيطرت على عدد من البابوات والملوك أمثال أنوست الرابع ولويس التاسع ملك فرنسا، وفي رمضان ٧٠٤هـ/نيسان ١٣٠٥م أتم ريمون لل تأليف كتابه (كتاب النهاية) (Liber de fine) الذي يتضمن أفكاره ومقترحاته[3]، وفكرته الرئيسية أنه في الوقت

---

[1]- الدواداري المنصوري: مختار الأخبار تاريخ الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية حتى سنة ٧٠٢هـ، ص٩١، ٩٢. عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص١١٩٣. رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج٣، ق٢، ص٧٢٣.

[2]- عطية: الحروب الصليبية وتأثيرها على العلاقات بين الشرق والغرب، ص٨٣.

[3]- Danial (N.A) " The Sack Alexandria " in :Archaeological and Historical Studies , 1979,Publication of the Archaeological society of Alexandria , Alexandria ,1979,p 56.

عاشور: الحركة الصليبية، ص١١٩٣، ١١٩٤.

نفسه الذي يتم فيه إرسال البعثات التبشيرية يتم إرسال حملة صليبية (فرنجية) إلى الشرق يرأسها أحد ملوك أوربا تشارك فيها فرسان من الداوية والإسبتارية والتيوتون ويوضع تصور لكيفية سير هذه الحملة مقترحاً أن تبدأ من إسبانيا بعد طرد المسلمين منها ثم الزحف إلى شمال إفريقيا فتونس فمصر في الوقت الذي يتخذ فيه الأسطول الصليبي قاعدتين في مالطا وردوس لمساعدة الحملة البرية، كما دعا للاستيلاء على القسطنطينية ذات العلاقة الودية مع المماليك. هذا ما نادى به في كتابه الجديد ٧٠٩هـ/ ١٣٠٩م (استرداد الأراضي المقدسة) Liber de acquisitions terrae Sanctae[1]

د- رسالة بطرس ديبوا (Pierre Dubois):

وهو من رجال القانون الفرنسي، تقدم إلى الملك الفرنسي فيليب الجميل برسالة يوجه شطراً منها لأمراء أوربا يطالبهم فيها بالاشتراك في حملة صليبية تحت زعامة ملك فرنسا، قدم بطرس توصيات خاصة تتعلق بالطريق الذي يجب على الحملة أن تسلكه والوسائل اللازمة لتحويلها وأنه يجب على الكنيسة أن تنفض يدها من الأمور الدنيوية والزمنية وضرورة سحق الداوية ومصادرة أملاكها وأملاك جميع الأديرة غير القابلة للإصلاح[2].

هـ- آراء وليم أدم (William Adam):

كان دبلوماسياً بابوياً طاف أرجاء واسعة في الشرق، حتى إنه وصل إلى لهند. اقترح أن يكون للمسيحيين أسطولٌ في المحيط الهندي يقطع تجارة المماليك مع الشرق الأقصى، كما أشار إلى ضرورة الاستيلاء على القسطنطينية[3].

---

[1]- رنسيمان: المرجع السابق، ج٣، ق٢، ص٧٢٢- ٧٢٤. Atiya :The Crusade,pp.5-84

[2]- عطية: العلاقات بين الشرق والغرب تجارية – ثقافية – صليبية، ص٨٣، ٨٤.

[3]- عاشور الحركة الصليبية، ج٢، ص١١٩٥. رنسيمان: المرجع السابق، ج٣، ق٢، ص٧٢٧.

و- تقرير جيمس مولاي (**Games Molay**):

وهو مقدم الداوية[1] أرسل تقريراً إلى البابا يوصي فيه أن تقوم عشر سفن كبيرة بتطهير البحار ثم يتلو ذلك إرسال جيش عظيم لمحاربة العرب المسلمين، وينبغي حمل الجمهوريات الإيطالية على أن تتعاهد بنقلهم وضرورة حشد رجال الحملة في قبرص لمهاجمة دولة المماليك في مصر والشام[2].

ز- مشروع هيثوم الأول:

ملك أرمينيا السابق الذي اعتزل في أحد أديرة فرنسا وكان من أصحاب الخبرة، وعندما استشارته الكنيسة اقترح إعداد حملتين: الأولى بحرية تتخذ من أرمينيا وقبرص قاعدتين لها، والثانية: برية تتحالف مع الأرمن والمغول[3].

ح- الداعية مارينو سانودو (**Marino Sanudo**):

وهو من ألمع الدعاة الذين ظهروا في القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي ولد في البندقية سنة ٦٦٩هـ/١٢٧٠م، قام بجولة واسعة في شرق البحر المتوسط وفي إيطالية واليونان والشام ومصر، ومن أهم مؤلفاته كتاب (سر المؤمنين) (Secreta Fidelium Crucis) الذي يعرف أحياناً باسم (أحوال الأرض المقدسة) (Conditiones Terrae Santae)[4]، وتناول في كتابه هذا ثلاث خطوات كان يراها مناسبة للقيام بحملة صليبية (فرنجية) ناجحة ضد

---

[1] - مقدم الداوية: هو حاكمٌ لمنظمة الداوية يقوم بإدارة أعمالها القانونية والمالية والحربية. سميث (جوناثان رايلي): الإسبتارية فرسان القديس يوحنا في بيت المقدس وقبرص، ترجمة: العميد صبحي الجابي، مركز الدراسات العسكرية، ١٩٨٤م، ص ٢٧١-٢٧٣.

[2] - رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج٣، ق٢، ص٧٢٨.

[3] - أبو عليان: المرجع السابق، ص١٠٧.

[4] - نعينع: المرجع السابق، ص٩٧، ٩٨.

المماليك، ففي الخطوة الأولى كان يرى ضرورة إضعاف مصر والتضييق عليها اقتصادياً، وإذا ما تمت هذه الخطوة يشرع في إتباعها بالخطوة الثانية التي تتلخص بغزو المماليك في مصر، أما الخطوة الثالثة والنهائية فقد أوضح فيها الوسائل والطرق التي يمكن أن تؤدي إلى نجاح الغزو وإلى أن تصبح الأرض المقدسة في أيدي اللاتين، ومن مقترحات سانودو أن يقوم البابا بتهيئة أسطولٍ لوقف المعاملات التجارية مع مصر(١)، إلا أن سانودو أدرك في الوقت نفسه استحالة وقف المتاجرة مع الدولة المملوكية فجأة، وعلى هذا لا بد من البحث عن طرق تجارية أخرى تحقق للمسيحيين موارد بديلة، فكانت دراسته تتسم بالعمق واشتهرت اقتراحاته بأنها كانت بعيدة النظر فضلاً عن شمولها(٢)، ولذا فقد كان من الصعب على ولاة الأمور أن يغفلوا خطته، فكانت النتيجة أن أعلنت الحرب الاقتصادية على مصر، ولكن عمليات الحصار فشلت كما ذكرنا من قبل لأن البندقية وجنوه وغيرهما من الجمهوريات الإيطالية التي كانت تعتمد في حياتها على التجارة وما تدره عليها من أرباح، لم تكن على استعداد لأن تضحي بمكانتها التجارية ومكاسبها المادية التي كانت بالنسبة إليها فوق كل اعتبار آخر(٣)، بالإضافة إلى أن مقترحات سانودو هذه فيما يتعلق بالحملة لم تكن لتتحقق إلا إذا كان هناك تعاون بين جميع الدول الأوربية، وهو أمر لم يكن من المستطاع تحقيقه في ذلك الوقت(٤).

ط- مشروع هنري الثاني:

ملك قبرص الذي تقدم بمشروع رفعه للبابا كليمون الخامس (٧٠٤-٧١٣هـ/ ١٣٠٥-١٣١٤م) دعا إلى ضرب حصار بحري على سواحل مصر والشام بأسطول مستقل عن

١- الخادم: المرجع السابق، ص٤٢٧، ٤٢٨، ٤٢٩.

٢- رنسيمان: المرجع السابق، ج٣، ق٢، ص٧٣٩.

٣- عطية: الحروب الصليبية وتأثيرها على العلاقات بين الشرق والغرب، ص٨٦.

٤- Atiya: The Crusade ,pp , 126,127.

الجمهوريات الإيطالية التجارية، ورأى أن هذا الحصار سوف يضعف دولة المماليك لدرجة تجعلها عاجزة عن مقاومة حملة صليبية (فرنجية) تترل بأرض مصر، ثم احتلال بلاد الشام والاستيلاء على الأراضي المقدسة بكل سهولة ويسر مادامت قبرص تتولى إمداد القوات إلى أن يتحقق الهدف، غير أن هنري الثاني لم يعش طويلاً ليرى ثمرة مشروعه الصليبي، فقد تكفل بتنفيذه بطرس الأول ملك قبرص[١].

كل هذا الحماس الأدبي والدعائي لدعاة القرنين السابع والثامن الهجريين/الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين نراه يمر في مرحلة نشاط ملحوظ في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي، حيث تحولت الأفكار إلى مرحلة التنفيذ، فأصبحت الاتصالات الدبلوماسية وإجراء المفاوضات المباشرة بديلاً من الدعايات الدينية والرسائل، وقد ساعد بطرس لوزينيان لتحقيق هذا الهدف رجلان هما بطرس دي توماس وفيليب دي مزيير[٢].

مما سبق نرى أن هذه الأجواء الأوربية المشحونة بآراء الدعاة للحرب الصليبية (الفرنجية) ومشاريعهم هي الأجواء التي عاش فيها بطرس لوزينيان، فقد حرك ذلك فيه الروح الصليبية التي دفعته للقيام بحملته الغادرة على الإسكندرية ٧٦٧هـ/١٣٦٥م، التي سنتحدث عنها بالتفصيل فيما بعد.

ثالثاً– الاعتداءات الصليبية على سواحل السلطنة المملوكية منذ تحرير عكا حتى اجتياح القبارصة لمدينة الإسكندرية:

كتب لبعض المشاريع السابقة أن تدخل في حيز التنفيذ، ولكن إلى حدّ ما، وذلك بسبب وقوف دولة المماليك لها بالمرصاد.

---

[١]– حسين (حمدي عبد المنعم محمد): دراسات في تاريخ الأيوبيين والمماليك، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ٢٠٠٠م، ص٢٠٣، ٢٠٤.

[٢]– عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص١١٩٩.

أصبحت مملكة قبرص ملجأ للصليبيين الفارين بعد تحرير عكا سنة ٦٩٠هـ/١٢٩١م، لذلك أصبحت هذه المملكة الخطر الأول على سلطنة المماليك، وترتب عليها نتائج بالغة الأهمية بالنسبة إلى هذه الجزيرة ودورها في الحروب الصليبية (الفرنجية)، وذلك أن قبرص التي كانت قبل سقوط عكا مركزاً مهماً من مراكز الصليبيين في الشرق، غدت بعد سنة ٦٩٠هـ/١٢٩١م أهم هذه المراكز وأقواها، وأن قبرص أصبحت بعد سقوط عكا الجبهة الرئيسية في الحروب الصليبية في الشرق الأدنى، وأضحى ملوك لوزينيان وسلاطين المماليك وجهاً لوجه والصراع بينهما دون وساطة.

وفي الواقع إذا دققنا النظر في موقف قبرص بالنسبة إلى موضوع اهتمامها بالأراضي المقدسة نجد أن هناك خطراً كبيراً كانت تخشاه تلك الجزيرة بحكم قربها من الساحل الشامي، وهو خطر الإغارة عليها من هذا الساحل وتهديد أمنها من جانب الدولة المملوكية، وعلى الرغم من أن المماليك قد عمدوا إلى ترك موانئ سواحل الشام مهجورة خوفاً من قدوم حملة صليبية عليها فإن هنري الثاني دي لوزينيان ملك قبرص في ذلك الوقت كان يخشى من تعرض مملكته إلى غزو من جانب المماليك[1]، فقد آثر سياسة الهجوم دفعاً للعدوان، فما كان منه إلا أن أرسل سنة ٦٩٢هـ/ ١٢٩٢م حملة مؤلفة من خمس عشرة سفينة تساندها عشر سفن من البابا نقولا الرابع، فأغار على مدينة الإسكندرية إلا أنها كانت محاولة فاشلة لم تؤدِ إلا إلى غضب السلطان الأشرف خليل وعزمه على فتح قبرص[2]، فأمر السلطان بإنشاء أسطول قوي وشحنه بالعتاد وآلات الحرب ورتب به عدة من المماليك السلطانية وألبسهم السلاح، فأقبل الناس لمشاهدتهم من كل مكان قبل ركوب السلطان، حيث لم يبقَ بيت بالقاهرة ومصر إلا وخرج أهله لرؤية

---

[1] - القلقشندي: مآثر الإنافة في معالم الخلافة، ج٢، ص١٢٢. نعينع: المرجع السابق، ص٧٠.

[2] - رنسيمان: المرجع السابق، ج٣، ص٧٣٥.

ذلك فصار جمعاً عظيماً[1]، ولكن السلطان الأشرف خليل اضطر إلى تأجيل غزو جزيرة قبرص إلى أن يتخلص من الخطر المغولي في بغداد، ولم يتمكن على أية حال من تحقيق مشروعه هذا لأنه اغتيل على يد بعض أمرائه في المحرم ٦٩٣هـ/كانون الأول ١٢٩٣م[2]، وفي عهد الناصر محمد بن قلاوون هاجم الصليبيون وحلفاؤهم المغول سنة ٦٩٩هـ/ ١٢٩٩م بلاد الشام وسواحلها وتفصيل ذلك أنه بعد وفاة الخان[3] المغولي أرغون تولى ابنه غازان الذي لم يمنعه اعتناقه الإسلام من تلبية طلب ملك أرمينية المغولي ضد المماليك، فتفاوض غازان مع ملك قبرص هنري الثاني في سبيل تجهيز حملة مشتركة على سورية ومصر، ولكن المفاوضات لم تقترن بنتيجة نظراً لعدم اتفاق رئيسي فرقتي الداوية والإسبتارية[4]، ومع ذلك فإن غازان وحلفاءه الكرج والمزندة والأرمن نزلوا إلى سورية بجمعهم الغفير وتغلبوا على المماليك في المعركة التي دارت بينهم بالقرب من مجمع المروج شرقي حمص، وبعد الهزيمة تراجع المماليك فتبعهم غازان وحلفاؤه إلى دمشق، فخرج للقائهم الملك الناصر محمد بجيشه البالغ عشرين ألفاً من المقاتلين[5]، فانتصروا عليه، وكان جيش المغول يقارب مئة ألف، لكنه ارتد عن بلاد الشام عائداً إلى بلاده بعد أن ترك فيها حامية

---

[1]- المقريزي: الخطط، ج٣، ص١٩.

[2]- ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٧، ص٦٦٣، ٦٦٤. الصفدي: الوافي بالوفيات، ج١٣، ص٢٤٩، ٢٥٠. الكتبي: فوات الوفيات، ج١، ص٤٠٩.

[3] - الخان أو الخاقان هو لقب يطلق على ملك التتار. المقريزي: السلوك، ج١، ق١، ص٢٩١. العريني (السيد الباز): المغول، دار النهضة، بيروت، ١٩٨١م، ص٣٢٦.

[4]- الذهبي: العبر في خبر من غبر، ج٣، ص٣٩٤. ابن تغري بردي (جمال الدين أبي المحاسن يوسف): الدليل الشافي على المنهل الصافي، تحقيق: فهيم محمد شلتوت، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط٢، ١٩٩٨م، ج٢، ص٥١٧. الشوكاني: البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، ج١، ص٣٥٤، ٣٥٥. الأنطاكي: معركة عين جالوت ٦٥٨هـ/١٢٦٠م، ص٦٤، ٦٥.

[5]- العيني: عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، ص٩-٤٥.

من أتباعه[1]، وفي تلك الأثناء كان هنري يرسل قطع إنزال إلى الساحل السوري وصلت مقدمتها إلى البترون منتظرة الجيش الملكي، وانضمت إليه وحدات نصرانية مارونية من جبل لبنان، واتجه الجميع إلى طرابلس إلا أن القوات العربية الإسلامية المرابطة في المدينة كانت لهم بالمرصاد حيث هزمت جيوش الصليبيين (الفرنجة)، وقتلت قادتهم وأسرت الوحدات، وفي الوقت نفسه كان صاحب يافا السابق (غي ديبلن) على أسطول جنوي اقتحم مدينة جبيل واستولى عليها ثم تركها دون أن يُبقي له فيها أي أثر[2].

وهنا ظهرت إستراتيجية المماليك التخريبية لسواحل بلاد الشام بعد تحريرهم لها فلو تمكنت إحدى هذه الحملات الصليبية البحرية من الدخول إلى أحد الموانئ التي كانت في حوزتهم قبل تحريرها وتخريبها من قبل المماليك، لكان من الصعب على السلطنة المملوكية إخراجهم منها، ولاسيما أن الصليبيين قد تحالفوا في هذا الوقت مع طرف قوي له تجارب عسكرية ألا وهو المغول[3]، ولا أدل على ذلك من الحملة القبرصية التي انطلقت من مرفأ فاماجوستا، واتجهت إلى مدينة الرشيد لترسو فيها سنة ٧٠٠هـ/ ١٣٠٠م بقيادة ريموند فيسكونت، يرافقه مندوب الخان غازان الذي اجتمع في الجزيرة بملكها وبصاحب صور السابق وبقادة الداوية والإسبتارية، ثم قام مئة فارس باقتحام المدينة وتخليص الأسرى المغول والصليبيين الذين كانوا فيها منذ تحرير عكا، ثم اخترق الأسطول مياه الإسكندرية إرهاباً لأهلها قاصداً الساحل الشامي[4] وهو سهل واسع يمكّن أي عدو – له تفوق بحري – من النزول فيه بسهولة نسبية وضمان تقدمه في تلك المنطقة[5]

---

[1] – العيني: المصدر نفسه، ص٩-٤٥.

[2] – المقريزي: السلوك، ج١، ق٣، ص٨٧٥. أبو عليان: المرجع السابق، ص١٠٥.

[3] – سعيد: المرجع السابق، ص٢٩٨.

[4] – برجاوي :الحروب الصليبية في الشرق، ص٦٤٥.

المنطقة[1] ونزلت القوات الصليبية (الفرنجية) في عكا وطرطوس واشتبكت مع القوات العربية الإسلامية المرابطة فيها، ثم عادت الحملة إلى قبرص دون إحراز أية نتيجة مهمة[2] وتنفيذاً للتعاهد بين الإفرنج والمغول قام هنري الثاني ملك قبرص بإرسال حملة صليبية جديدة إلى سواحل بلاد الشام قوامها عدة سفن تحمل ثلاثمئة فارس قبرصي ومثلهم من الداوية والإسبتارية وكمنت هذه الحملة بالقرب من ساحل طرابلس بانتظار الخان غازان الذي كان قد تعهد للإفرنج بالقيام بحملة مشتركة على مصر سنة ٧٠٠هـ/ ١٣٠٠م وأثناء انتظارهم تمكن الصليبيون من احتلال أرواد ثم مدينة طرطوس إلا أن الجيش المغولي تأخر بالوصول إلى بلاد الشام حينها اضطر الجيش الصليبي إلى الانسحاب وإخلاء مدينة طرطوس بعدما اقترب الجيش المملوكي منها[3]، وتوجه الصليبيون إلى حلفائهم المغول الذين وصلوا إلى أنطاكية بجيشهم سنة ٧٠١هـ/ ١٣٠١م بقيادة قطلوشاه ومعه أربعون ألف فارس ولم يصحبه غازان لمرضه، وأقام الجيش المغولي ببلاد سرمين والمعرة وتيزين والعمق وغيرها ينهب ويقتل بعد أن أغاروا على ضواحي حلب[4] وبقي المغول في حلب ما يقرب ثلاثة أشهر، ثم عادوا إلى بلادهم بعدما وردهم نبأ الخلاف بين غازان وخان تركستان الذي هاجم حدود مملكة غازان[5]، إلا أن البابوية والأرمن والقبارصة لم يتخلوا عن فكرة استعادة الأراضي المقدسة المفقودة، وهذا ما دفع الصليبيين (الفرنجة) الذين تجمعوا في أرواد، واتخذوها مقراً لهم بعد تحرير مدينة عكا، وبنوا لهم فيها حصوناً وأحاطوها بأسوار ضخمة إلى

---

[1] – سعيد: المرجع السابق، ص٢٩٨.

[2] – برجاوي: المرجع السابق، ص٦٤٥.

[3] – أبو عليان: المرجع السابق، ص١٠٥، ١٠٦.

[4] – الحلبي (محمد راغب الطباخ): إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، صححه وعلق عليه: محمد كمال، دار القلم العربي، حلب، ط١، ١٩٢٣م، ج٢، ص٢٨٥.

[5] – أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، ج٤، ص٥٨.

شن غاراتهم الغادرة على سكان المدن الساحلية في بلاد الشام، ويقطعون الطرق على السابلة مما هدد أمن وسلامة السكان. الأمر الذي جعل نائب هذا الساحل يستغيث بالسلطان[1] *وما كاد السلطان الناصر محمد يفرغ من التصدي للمغول والصليبيين في بلاد الشام وسواحلها حتى بادر بتجهيز الأسطول المصري، وعين لقيادته أمير البحر سيف الدين كهرداش الزراق المنصوري وزود الشواني بالسلاح والنفط، وأقلعت المراكب من الشواطئ المصرية سنة ٧٠٢هـ/١٣٠٢م*[2]*، وسارت إلى ميناء طرابلس حيث انضمت إليها بعض السفن التي كانت راسية هناك، فحاصرت القوات البرية والبحرية جزيرة أرواد، وقضت على الصليبيين (الفرنجة) المقيمين بها قضاءً مبرماً بعد أن هدم الأسطول العربي الإسلامي أسوارها وحصونها بقوة نيرانه ومجانيقه وامتلك الناصر* محمد الجزيرة بعد أن قتل من أهلها نحو ألفين نسمة ووقع في *الأسر ما يناهز خمسمئة شخص*[3].

وبعد تحرير جزيرة أرواد سنة ٧٠٢هـ/ ١٣٠٢م بلغ بهنري الثاني ملك قبرص الحماس بأن شرع بتجهيز حملة صليبية بالاتفاق مع بعض ملكيات أوربا على بناء ستين قطعة حربية لغزو دمياط، وهنا تظهر إستراتيجية المماليك البحرية، حيث كانوا على اطلاع بخطط هنري، وكان السلطان بيبرس الجاشنكير[4] *يراقب الوضع عن كثب فأمر ببناء جسر يصل بين القاهرة ودمياط خشية نزول الصليبيين في وقت فيضان النيل، كما أمر ببناء جسر آخر على طريق الإسكندرية في وقت لم تتم فيه حملة هنري بعد*[5].

---

[1] – ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٨، ص١٢٣. العيني: المصدر السابق، ص١٨٤.

[2] – المقريزي: السلوك، ج١، ق٣، ص٩٢٨، ٩٢٩.

[3] – ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٨، ص١٦.

[4] – جاشنكير: كلمة فارسية مركبة من لفظين أحدهما جاشن ومعناه الذَّوق والثاني كير ومعناه الذي يذوق، والجاشنكير هو الذي يذوق المأكول والمشروب قبل السلطان خوفاً من أن يدس عليه فيه سم أو نحوه. القلقشندي: صبح الأعشى، ج٥، ص٤٦٠.

[5] – أبو عليان: مسيرة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين في عهد المماليك، ص١٠٧.

كما استغل الملك الفرنسي فيليب الرابع هذه الأحداث وهذا الاندفاع الصليبي للقيام بحملة جديدة، فأعلن عن عزمه قيادة هذه الحملة، وأخذ يحصل على الأموال الكنيسة تحت ستار هذا الاستعداد، كما أخذ يصادر أموال فرقة فرسان الداوية، وذلك سنة ٧١٢هـ/١٣١٢م[1]. وعندما تولى فيليب السادس عرش فرنسا ظن أنه يستطيع تحقيق ما يصبو إليه وتحقيق المجد والسيطرة على الأراضي المقدسة دون أن يخرج على رأس حملة صليبية (فرنجية) لقتال العرب المسلمين، فأرسل سفارة للسلطان الناصر محمد سنة ٧٣٠هـ/ ١٣٢٩م طالباً تسليم القدس والساحل إليه غير أن سفارته عادت مطرودة مهانة[2] فأخذ فيليب بتجهيز حملة صليبية بعد أن أباح له البابا حنا الثاني والعشرون سنة ٧٣١هـ/ ١٣٣٠م جمع الضرائب الكنيسة وصكوك الغفران، كما استشار فيليب الخبراء فنصحه بركارد أحد الدعاة بالهجوم البري عبر القسطنطينية، لكن فيليب مال إلى رأي مستشاريه الذين عارضوا هذا المشروع، وفضلوا الطريق البحري، فعقد فيليب اجتماعاً مع ملك قبرص وممثلي الإسبتارية والبندقية في حضرة البابا حنا، وتم الاتفاق على تسيير الحملة، ولم يبقَ إلا التنفيذ، لكن مشروع الحملة لم يلبث أن تحطم فجأة عندما تجددت حرب المئة عام بين إنكلترا وفرنسا، إذ بلغ فيليب السادس وهو بمرسيليا يشرف على الترتيبات النهائية للإقلاع إلى الشرق نبأ هجوم الإنكليز على بلاده، مما اضطره إلى العودة مسرعاً إلى باريس[3] فشلت هذه الحملة الصليبية (الفرنجية)، لكن الاعتداءات لم تتوقف على الموانئ الإسلامية، فقد استمرت قبرص وحلفاؤها في شن الحملات البحرية عبر المتوسط على موانئ السلطنة المملوكية في مصر وبلاد الشام بين الفينة والأخرى، وأشهر هذه الحملات الحملة التي حدثت سنة ٧٥٧هـ/ ١٣٥٦م فقد قدمت حملة بحرية مكونة من سبعة مراكب اخترقت مياه

---

[1]- عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص١١٩٤. رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج٣، ص٧٣٤.

[2]- المقريزي: السلوك، ج٢، ق٢، ص٣١٩.

[3]- عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص١١٩٥ - ١١٩٨.

بيروت ثم صيدا، وفاجئ الصليبيون الناس فجر يوم الجمعة، فدخلوا المدينة وقتلوا وأسروا ونهبوا شيئاً كثيراً، غير أن تلك الحملة لم تحقق ما كان يتمناه الصليبيون، فسرعان ما تصدى لها العرب المسلمون وقتلوا منها بضعة وثلاثين رجلاً ثم أرسلوا رؤوسهم إلى دمشق لتعلق على القلعة هناك[1]، كما جاء الأمير شهاب الدين بن صبح نائب صفد إلى صيدا وسبق العسكر الشامي، وطارد المراكب الصليبية (الفرنجية) القريبة من صيدا، فتحصنوا في جزيرة قبرص، عندها راسلهم المسلمون لافتكاك الأسرى من أيديهم، حيث تم الاتفاق على دفع خمسمئة درهم مقابل كل أسير مسلم، فدفع ثلاثون ألف درهم، ثم رحل الصليبيون بما حصلوا من غنائم[2].

نلاحظ مما سبق أن جميع التحركات الصليبية بعد سقوط عكا لم يكن لها الأثر الكبير لأسباب عدة، فمن ناحية أوربا رأينا التفكك والافتقار للحلفاء عدا الحروب والتنافس وزاد أمرهم سوءاً فقدانهم لمراكزهم الحيوية في المشرق العربي.

أما من الجانب الإسلامي فنلاحظ وقوف المماليك على أهبة الاستعداد براً وبحراً لردّ أي اعتداء صليبي، فقد كانوا دائماً بالمرصاد لأي حركة صليبية، لكن الحملة الأكثر أهمية والأعمق تأثيراً كانت حملة القبارصة على الإسكندرية سنة ٧٦٧هـ / ١٣٦٥م، التي أفردت لها مساحة واسعة في هذا الفصل.

رابعاً – الحملة الصليبية على الإسكندرية

١- وصف مدينة الإسكندرية وتحصيناتها :

تقع مدينة الإسكندرية على شط بحر الروم[3] غربي نهر النيل على شاطئ رملي في جنوبها بحيرة مريوط، وامتدادها طولاني، قام ببناء المدينة غازي الشرق الإسكندر المقدوني[1]، فقد عهد بعد

---

[1]- ابن قاضي شهبه: تاريخ ابن قاضي شهبه، ج٤، ص٩٧. الزين: تاريخ صيدا، ص٦٠، ٦١.

[2]- ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٨، ص٥٧٢، ٥٧٣. الزين: المرجع نفسه، ص٦١.

[3]- أبو الفداء: تقويم البلدان، ص١١٣.

دخوله مصر إلى مهندسه دينواكراتوس المعماري المقدوني الشهير لتخطيط المدينة فاختار لها النمط اليوناني المعروف وقتها في تخطيط المدن[2]، وكانت هذه المدينة مستطيلة الشكل، تحتل الشريط الممتد ما بين بحيرة مريوط والبحر المالح وتمتد في خطوط مستقيمة، فشارعها الرئيسي (الكانوبي) مازال موجوداً بشكل جزئي في شارع رشيد، وهو يتجه غالباً من الشرق إلى الغرب، وهو اتجاه سيئ لأنه يبتعد عن الرياح الشمالية الباردة التي هي القديس الحقيقي الحارس لمدينة الإسكندرية، والموقع الذي وهب الله فيه مدينة الإسكندرية لم يكن هناك أي تخطيط يمكن عمله، لقد كان هذا الطريق ينتهي غرباً في البحر ويمتد شرقاً حتى كانوبس (أبو قير) كان شارع السوما وهو الشريان الرئيسي الثاني متقاطعاً مع الشارع الكانوبي، وفي نفس مسار النبي دانيال الحالي، وكان الشارع يبدأ من ميناء البحيرة، ويمتد شمالاً حتى البحر، وعند تقاطعه مع الشارع الكانوبي يوجد مكان السوما أو دفن الإسكندر[3] ومما تجدر الإشارة إليه أن المهندس دينواكراتوس جعل الإسكندرية ميناء ذا قسمين بتوصيله جزيرة فاروس بشاطئ القرية المصرية راقودة أصبح ميناء مصر الأول في المياه العميقة، فميناء بلوزيوم (الفرما) على ما يذكره لنا سترابون كان تقع على فرع النيل البلوزي (الشرقي) على بعد عشرين ستادا من ساحل البحر، بينما كانت الميناء النهرية نقراطيس

---

[1]- ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة، ص٥٧، ٥٨. طرسون: تاريخ الإسكندرية وترعة المحمودية، ص١٤.

[2]- جراتيان: مدينة الإسكندرية، ص١٠٥. الشيال: تاريخ مدينة الإسكندرية في العصر الإسلامي، ص١٦.

[3]- الظاهري: زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، ص٤١. المقريزي: الخطط، ج١، ص٤١٨. ابن الوردي (سراج الدين أبي حفص عمر): خريدة العجائب وفريدة الغرائب، القاهرة، ١٨٣٥م، ص٣٠، ٣١، ٣٢. فورستر (أ.م): الإسكندرية تاريخ ودليل، ترجمة: حسن بيومي، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، ٢٠٠٠م، ص٥٣.

يقع على الفرع الكانوبي (الغربي) بعيداً جداً عن البحر وموغلة في داخل الدلتا[1] ويتابع سترابون قائلاً: ((**إن الإسكندرية كانت تغرقها من الشمال مياه البحر، ومياه البحيرة من الجنوب ولم يكن من المستطاع الوصول إليها براً إلا عن طريق لسانين ضيقين يسهل الدفاع عنهما، وكانت تغطيها جزيرة فاروس التي تشكل بالنسبة لها ميناءً طبيعياً في منأى عن رياح الشمال والشمال الغربي، وحتى تتم الإفادة من هذه الميزة الكبيرة فقد تم توصيل اليابسة بالجزيرة عن طريق جسر ضيق يبلغ طوله ٧ غلوات ويقدر هيريتوس طوله ب٩٠٠ خطوة**)[2].

وربما كان اختيار الإسكندر لهذا الموقع لمدينته الجديدة كان متأثراً كما هو الاعتقاد السائد حديثاً بما وجده من تشابه بين هذا الموقع وموقع مدينة صور[3]*، التي أراد لمدينته الجديدة أن تبلغ ما بلغته صور من الأهمية التجارية والبحرية، وللإسكندرية مزايا حقيقية لها قيمتها فتكوين الساحل الشمالي الغربي لمصر ووجود جزيرة فاروس على مقربة من الشاطئ أثارا في نفس الإسكندر فكرة القيام بهذه الأعمال، وسهّلا تنفيذها*[4] وكان الإسكندر صائباً في اختياره لموقع مدينته التي أصبحت فيما بعد من أهم الموانئ البحرية في حوض المتوسط.

---

[1] – ياقوت الحموي (شهاب الدين): منجم العمران في المستدرك على معجم البلدان، جمعه ورتبه: محمد أمين الخانجي، مطبعة السعادة، مصر، ط١، ١٩٠٧م، ج١، ص٢٥٦، ٢٥٧. يحيى (لطفي عبد الوهاب): مقدمة لحضارة الإسكندرية – دراسة في حضارة البحر الأبيض، مطبعة دار نشر الثقافة، ١٩٥٨م، ص٢٧.

[2] – المقريزي: الخطط، ج١، ص٤٨٢. جرايتان: المرجع السابق، ص١٠٨.

[3] – مدينة صور: تعد صور من مدن الساحل الهامة في البحر المتوسط، وهي مدينة تمتلك أبنية كثيرة الجمال. فوقاس (يوانس): وصف مختصر للقلاع والمدن من أنطاكية حتى القدس، الموسوعة الشامية، ١٩٩٨م، ج٣٤، ص ٣٨٢. رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج٣،ص ٧١٠.

[4] – ياقوت الحموي: منجم العمران في المستدرك على معجم البلدان، ج١، ص٢٥٦، ٢٥٧. علي (زكي): الإسكندرية في عهد البطالمة والرومان، دار المستقبل، ص٣.

أما تحصينات الإسكندرية فقد أشار كل من ابن ظهيرة والمقريزي إلى أنه كان لمدينة الإسكندرية سبعة أسوار وسبعة حصون منيعة وسبعة خنادق[1] إلا أن هذه الأسوار والحصون والخنادق قد تهدمت وردمت نتيجة للعمليات العسكرية والكوارث الطبيعية التي تعرضت لها مدينة الإسكندرية عبر تاريخها الطويل[2].

وعندما تولى أحمد بن طولون حكم مصر وبلاد الشام سنة في عهد الخليفة العباسي المعتمد على الله اهتم بثغر الإسكندرية بشكل ملحوظ نتيجة لاهتمامه بالنشاط العسكري البحري في المتوسط، وهذا ما دفعه لبناء أسوارها بشكل محكم، وتم الاهتمام بهذه الأسوار وترميمها في كل عصر إسلامي وخاصة في عهد صلاح الدين الأيوبي[3]، وبعد إغارة القبارصة على ميناء الإسكندرية سنة ٧٦٧هـ/ ١٣٦٥م اهتم الأشرف شعبان بتحصين مينائها الغربي الذي نزلت فيه الحملة بإقامة سلسلة تربط بين طرفي الميناء بعد تضييق فوهته لتدعيم الدفاع البحري، أما عن أبواب مدينة الإسكندرية فكان يوجد لها أربعة أبواب (باب السدره، باب رشيد، باب البحر، باب الأخضر)، كما أضيف إليها أبواب عدة في العصر المملوكي، أما عن أبراجها فكان يوجد فيها عدة أبراج أشهرها برج شرقي، برج ضرغام، برج باب السدة، برج باب الزهري، برج كوم النظورة، قلعة السلسلة، قلعة قايتباي، وقاعة رماة القرافة[4].

---

[1]- ابن ظهيرة: المصدر السابق، ص٥٩. المقريزي: الخطط، ج١، ص٤١٨.

[2]- أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، ج٤، ص٦٣.

[3]- أبو شامة: كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج١، ق٢، ص٤٨٦. الظاهري: المصدر السابق، ص٣٩. سالم (عبد العزيز): تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي حتى الفتح العثماني، دار المعارف، مصر، ط١، ١٩٦١م، ص١٥٩، ١٦٠.

[4]- ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٨، ص٧٠٤. ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة، ص٢٠. سالم: تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي، ص٤٣٥ - ٤٦٩.

مما سبق نلاحظ أن ثغر الإسكندرية قد تم الاهتمام به بشكل كبير من قبل القائمين على أمره لموقعه الاستراتيجي البحري منذ أن تم بناء هذا الثغر وإلى يومنا هذا.

٢- ظروف ما قبل حملة الإسكندرية:

أ- مصر قبيل حملة الإسكندرية :

اكتسب عهد أسرة قلاوون طابعاً خاصاً ومميزاً في تاريخ المماليك حتى استطاعت هذه الأسرة أن تحكم أكثر من مئة عام (٦٧٨-٧٨٤هـ/ ١٢٧٩- ١٣٨٢م) كما نضجت ونمت جميع مميزات العصر المملوكي وخصائصه في عهد هذه الأسرة، واستقر الحكم لها تماماً في مصر والشام، وأخذت تتبلور النظم والقواعد التي سارت عليها سلطنة المماليك حتى نهاية حكمها، وظهرت بشائر النشاط التجاري الذي عاد بالثروة على المماليك فضلاً عن نشاط المماليك الدبلوماسي على مستوى العالم .

وأجمع المؤرخون على أنه في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون بلغت الدولة أقصى درجات الاتساع والمجد والعظمة، وبلغت مصر في عهده مكانة سامية، ولكن مع وفاة الناصر سنة ٧٤١هـ/١٣٤٠م دخلت دولة المماليك البحرية طوراً جديداً من التطور السياسي، حيث تركزت السلطة بيد الأتابكة[1]، فاشتد التنافس بين الأمراء على السلطة، واعتلى العرش سلاطين صغيرو السن أصبحوا ألعوبة بيد الأتابكة، وكان مصير هؤلاء السلاطين القتل أو النفي[2].

ففي العشرين سنة التي تلت وفاة السلطان الناصر محمد (٧٤١-٧٦٢هـ/١٣٤٠-١٣٦٠م) تولى منصب السلطنة ثمانية من أولاده ومنهم من لم يحكم إلا أشهراً، ومنهم من حكم عاماً

---

[1] - الأتابكة: مفردها أتابك وهو مقدم العسكر والقائد العام للجيش المملوكي. القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ج٤، ص١٨.

[2] - ابن العماد: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج٨، ص٢٣٣-٢٣٥. أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، ج٤، ص١٥٤، ١٥٥.

واحداً وهو الكامل سيف الدين شعبان بن الناصر محمد (٧٤٦-٧٤٧هـ/١٣٤٥-١٣٤٦م)، وساعد على هذه الاضطرابات عدم وجود نظام ثابت لاختبار السلاطين مما أدى إلى الفتن[1].

هذا إلى جانب انتشار بعض المجاعات لفساد الزراعة وانتشار الطواعين[2] والأوبئة التي قضت على الآلاف من الناس، وهذا ما انعكس على الحالة الاقتصادية والعمرانية للبلاد[3] يضاف إلى ذلك العداء والتنافر بين طوائف المماليك الذين انقسموا شيعاً وأحزاباً في عهد خلفاء الناصر محمد، فأدى ذلك لانحلال خلقي وسادت حالة من الفوضى[4]، وبقي الوضع على هذه الحال حتى وصل السلطان الأشرف شعبان لسدة الحكم، حيث اعتلى تخت الملك وعمره عشر سنين في نصف شعبان لسنة أربع وستين وسبعمئة وقام بأمر الملك الأمير يلبغا العمري الخاصكي[5]، واشتد التنافس بين الطوائف المملوكية حتى استطاع الأشرف شعبان القبض على زمام الأمور وأصبح سنة ٧٦٩هـ/ ١٣٦٧م مطلق التصرف في شؤون دولته يتصرف كيف يشاء دون مشاورة الأمراء، حتى عام ٧٧٨هـ/ ١٣٧٦م عندما خرج للحج ثار به بعض المماليك، وقاتلوه، فهرب ثم عاد إلى القاهرة حيث وكان ابنه علي قد تمت توليته، فلجأ إلى إحدى دوره

---

[1] - العيني: السيف المهند في سيرة الملك المؤيد شيخ المحمودي، ص٢١٤.

[2] - مفردها طاعون وهو وباء فتاك وجاء تحت اسم الموت الأسود لشدة ما أحدث هذا المرض من فناء للناس وظهور بقع سوداء على رقبة المصاب وتحت الإبط. المقريزي: السلوك، ج٢، ص ٧٥٩ حاشية رقم (٢). البستاني (بطرس): دائرة المعارف، دار المعرفة، بيروت، ج١١، ص ١٥٦، ١٥٧.

[3] - المقريزي (أحمد بن علي): المختار من إغاثة الأمة في كشف الغمة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص٢٦. المقريزي: السلوك، ج٢، ق٣، ص٧٦٣، ٧٦٤-٧٨٠. أبو العباس (أحمد بن حسن): الوفيات، تحقيق: عادل نويهض، دار الإقامة الجديدة، بيروت، ١٩٧٨م، ص٣٥٤.

[4] - ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١١، ص٦، ٧.

[5] - السيوطي: حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، ج٢، ص١١٨.

حيث افتضح أمره وقتل[1] وطبعاً في عهد الأشرف شعبان ستكون الحملة الصليبية (الفرنجية) على الإسكندرية، وإن المتمعن في حال مصر قبيل عهد الأشرف شعبان يلاحظ أنها فقدت كثيراً من الاستقرار الداخلي والأمن الذي كان يسود في عصر الناصر محمد، وهذا التدهور الداخلي ساعد كثيراً على اجتياح بطرس لمدينة الإسكندرية[2] كما أثر هذا الاضطراب في حركة التجارة الخارجية فضلاً عن اعتداء قطاع الطرق واللصوص على التجار وطرق القوافل، فأخذت المراكب الآتية من الشرق تتجه إلى اليمن لتسلك طريق البحر الأحمر، وهذا ما أدى لتراجع في حركة التجارة الغربية في سواحل مصر المتوسطية[3]، وعندما تم ردم بعض أجزاء دمياط زمن الظاهر بيبرس خوفاً من قدوم حملة صليبية عن طريقها بعد فشل حملة لويس التاسع على مصر، أخذت السفن الأوربية تقصد الإسكندرية بدلاً من دمياط، فصارت الإسكندرية من أكبر المراكز التجارية وكبرى موانئ المماليك المتوسطية وقبلة التجارة العالمية والمعبر الرئيسي لتجارة الشرق في طريقها إلى الغرب[4]، ومن هنا بدأت سياسة المماليك بالمحافظة على ثروتها التجارية في اتجاهين: الأول هو تأمين طرق التجارة الآتية من الشرق ببسط نفوذها على الدول المجاورة أو إقامة علاقات دبلوماسية معها، والثاني تشجيع حركة التجارة مع الدول الأوربية بإبرام المعاهدات والاتفاقيات التجارية ومنح التسهيلات لها لضمان سير التجارة دون عوائق، وتنفيذاً للاتجاه الأول

---

[1]- المقريزي: الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك، ص١٤٩-١٥١.

[2]- ابن قاضي شهبه: تاريخ ابن قاضي شهبه، ج٣، ص٢٧٠. المقريزي (أحمد بن علي): درر العقود الفريدة في ترجمة الأعيان المفيدة، تحقيق: عدنان درويش ومحمد المصري، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٩٥م، ص٩٣-٩٦. عاشور: قبرس والحروب الصليبية، ص٦٢.

[3]- ابن جبير: الرحلة، ص٣٤. عاشور: مصر في عصر دولة المماليك البحرية، ص٧١.

[4]- المقريزي: الخطط، ج١، ص٦٢٣. عاشور: العصر المماليكي في مصر والشام، ص٢٩٩.

فقد تدخل المماليك في سياسة بلاد النوبة[1] وأصبح الخطباء منذ تولى أولاد الكنز[2] المسلمون يدعون على المنابر للخليفة العباسي بالقاهرة وسلطان مصر، أما الحبشة فقد كانت ترتبط بكرسي البطريركية في الإسكندرية، وتطلب رضاها، وكان ملوك الحبشة يبعثون بهداياهم وكتبهم إلى سلاطين المماليك، وحرصوا على إحكام أواصر الصداقة معهم، أما عن علاقة المماليك بالمغول في فارس والعراق فقد تأرجحت بين المهادنة والصلح تارة والحرب تارة أخرى[3]، بينما كانت العلاقة علاقة تحالف مع الدولة البيزنطية في عهد ميخائيل الثامن والظاهر بيبرس، بينما اختلف الأمر في العلاقة مع مملكة أرمينية الصغرى التي كانت تمتد حدودها بين الدول الإسلامية والمسيحية، فقد قامت بدور بارز في تاريخ الحروب الصليبية (الفرنجية) مما

---

[1] – النوبة: هي المنطقة الممتدة على شاطئ جنوبي أسوان حتى دنقلة في السودان، يسمى الجزء الواقع في مصر بين أسوان ووادي حلفا: النوبة السفلى، والجزء الواقع في السودان: النوبة العليا، وسكان النوبة مسلمون ولهم لغة خاصة بهم. العمري (شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله): مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق: حمزة أحمد عباس، قطعة منه بعنوان: ممالك اليمن والغرب الإسلامي وقبائل العرب، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ط١، ٢٠٠٢م، ص٩٩ حاشية رقم (١). أبو الفداء: تقويم البلدان، ص١٥٣. المقريزي: السلوك، ج١، ص٥٠.

[2] – الكنز: هو لقب كافأ به الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله أمير ربيعة أبا المكارم هبة الله لنجاحه في القبض على أبي ركوة (من ولد هشام بن عبد الملك الأموي) بعد انكساره أمام جيش الفاطميين وفراره إلى نوبة مصر في سنة ٣٩٧هـ/١٠٠٦م وقد توارث أبناؤه هذا اللقب، وعرف بنو ربيعة ببني الكنز. العبادي (أحمد مختار): في تاريخ الأيوبيين والمماليك، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٩٥م، ص٢٠٠ حاشية رقم (٢).

[3]– القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ج٥، ص٢٧٨. نعينع: الحروب الصليبية المتأخرة، ص٤٨–٥٤.

عرضها لغزو المماليك وإرغامها على دفع الجزية، وكان للعامل الاقتصادي دوره الحاسم في سوء العلاقة بين المماليك ومملكة أرمينية[1].

أما عن شمال إفريقيا فقد امتد نفوذ المماليك فيها حيث خطب لهم على منابر تونس وطرابلس الغرب، وكان صاحب تلمسان يراسل الناصر محمداً، وحرص على التودد إليه، كما نجد رسائل الود بين سلطنة مصر وسلطان غرناطة زمن الأشرف شعبان[2].

هذا ما كان عن العلاقات الدبلوماسية، أما عن تنفيذ الاتجاه الثاني وهو تشجيع التجارة الخارجية، فقد حرص المماليك على تشجيع حركة التجارة مع الدول الأوربية وخاصة الجمهوريات الإيطالية كالبندقية وجنوه وبيزا، فقد عقدت معها معاهدات تجارية منحتها فيها تسهيلات تجارية على الموانئ المصرية وتتعهد فيها برعايتها وبحماية أموالها[3].

والظاهرة الملفتة للنظر هي استعداد كل من العرب المسلمين من جهة والغرب من جهة أخرى لمتابعة التبادل التجاري رغم كل ما نشب بينهما من قتال، فقد فرق المماليك بين قتالهم للفرنج والاتجار معهم، فقد ظل التبادل التجاري قائماً بين مصر وأوربا. الأمر الذي أشعر البابوية بالخطر وخاصة بعد تحرير عكا، فشرعت تثير الدول الأوربية للقيام بحرب صليبية (فرنجية) جديدة، وخير

---

[1]- الذهبي: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، مج٥٢، ص٥. ابن الوردي (زين الدين عمر): تاريخ ابن الوردي، دار الكتب العلمية، لبنان، ١٩٩٦م، ص٢٤٦. أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، ج٤، ص٥٩، ٦٠. عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص١٢١٦.

[2] – ابن الخطيب (لسان الدين): الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق: محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٢، ١٩٧٣م، مج١، ص٥٧. القلقشندي: صبح الأعشى، ج٧، ص٤٤٠-٤٤٤.

[3] – نسيم (جوزيف): دراسات في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٨٣م، ص١٠٤، ١٠٥. عاشور: العصر المماليكي في مصر والشام، ص٣٠٠.

مثال على ذلك جهود البابا نقولا الرابع (٦٨٧-٦٩٢هـ/ ١٢٨٨-١٢٩٣م) وخلفائه من البابوات الذين ذكرنا جهودهم سابقاً[1].

مما سبق نلاحظ أن الدولة المملوكية رغم كل القلاقل التي اعترضتها في عهد خلفاء الناصر محمد، بقيت على جانب كبير من الثراء الناتج عن التجارة، وهذا ما مكنها من الصمود جبهة واحدة في وجه الأخطار الخارجية، فكانت قوتها الاقتصادية والعسكرية سبباً في إزعاج الكنيسة، لهذا ظهر الدعاة لحملة صليبية (فرنجية) جديدة تضرب الدولة المسلمة اقتصادياً ريثما يتم سحقها عسكرياً.

ب- أوضاع العالم الغربي قبيل الحملة:

على الرغم من موجة الغضب والحزن التي أثارها سقوط عكا وضياع الشرق الصليبي فإنه لم يثر رد فعل عنيف لدى الغرب الذي كان مشغولاً بمشاكله ومنازعاته، وقد خبت جذوة الحماس التي دفعت أسلافهم إلى الشرق، وخاصة بعد أن شهد الغرب موجة تغيير في المفاهيم القديمة التي صاحبت الحركة الصليبية منذ نشأتها .

فقد خرجت البابوية منتصرة في الظاهر في صراعها ضد الإمبراطورية الرومانية حيث انتصر الجيش البابوي الفرنسي سنة ٦٦٧هـ/ ١٢٦٨م، على الرغم من هذا الانتصار فإن البابوية ما لبثت أن أصبحت في أواخر القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي تحت رحمة أمراء روما[2]*، ثم اتخذ البابا كلمنت الخامس (٧٠٥-٧١٤هـ/ ١٣٠٥-١٣١٤م) من مدينة (أفينون*

---

[1]- اليافعي: مرآة الجنان وعبرة اليقظان، ج٤، ص١٥٧، ١٥٨. نعينع: الحروب الصليبية المتأخرة، ص٥٩، ٦٠.

[2]- عاشور (سعيد عبد الفتاح): أوروبا العصور الوسطى (التاريخ السياسي)، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٥م، ط٨، ص٤٩٨. فشر(هـ.أ.ل): تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ترجمة: مصطفى زيادة والسيد الباز العريني، دار المعارف، مصر، ١٩٧٦م، ج١، ص٢٥٣، ٢٥٤- ٢٥٦.

Avignon) الفرنسية على نهر الرون مقراً جديداً للبابوية، وبعد انتصار البابوية على الإمبراطورية الرومانية وأسرة هوهنشتاوفن الألمانية أصبحت فرنسية بعد أن اعتلى كرسي البابوية بابا فرنسي الأصل أحاطت به بطانة من الكرادلة الفرنسيين في مأمن من منازعات الأمراء في إيطالية خاصة بعد أن اشترى البابا كلمنت السادس سنة ٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م مدينة أفينون، وأصبحت ملكاً للبابوية[١]، يقابل هذا الاستقرار البابوي في مدينة أفينون خسارة معنوية؛ فقد عدّ المعاصرون الإقامة في هذه المدينة أسراً للبابوات الذين أصبحوا صنيعة ملوك فرنسا، فأطلق على هذه الفترة من التاريخ البابوي (الأسر البابلي)[٢]، ثم تبع هذا فقدان الكنيسة لهيبتها السابقة بعد التطور السياسي والاجتماعي الذي طرأ على عقول الأوربيين، فأصبحت تنادي بعض الاتجاهات بنقد الكنيسة وتصرفاتها وتجريح رجال الدين والتوجه الفردي على حساب زعامة الكنيسة مما أفقد الحركة الصليبية روحها التي بدأت بها تحت زعامة الكنيسة والبابوية[٣].

وفيما يلي عرض سريع لأوضاع أهم الملكيات الأوربية آنذاك:

إن اهتمام الأباطرة بإيطاليا أدى لإهمالهم ألمانيا التي انشغلت بتكوين دولة حديثة فخطت خطوات واسعة على طريق الانتعاش التجاري والصناعي والاستقرار السياسي، أما فرنسا وإنكلترا القطبان المهمان في القضية الصليبية في القرنين السادس والسابع الهجريين/الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين فقد اشتعلت حرب المئة عام بينهما مما استنفد موارد الدولتين إضافة إلى حرب إنكلترا مع أسكتلندا وحرب فرنسا مع صقلية[٤].

---

[١]- عاشور: أوروبا العصور الوسطى (التاريخ السياسي)، ص٤٩٩.

[٢]- فرح (نعيم): الحضارة الأوروبية في العصور الوسطى، منشورات جامعة دمشق، ١٩٩٩-٢٠٠٠م، ص٢٠٧.

[٣]- عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص١٠٥١، ١٠٥٢.

[٤]- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج٣ ق٢، ص٧١٨، ٧١٩.

أما إسبانيا فكانت مقسمة سياسياً لعدة وحدات (أراغون، قشتالة، ليون، البرتغال، نافار)، كانت متنافسة فيما بينها، لكنها متحدة ضد المسلمين في إسبانيا حيث أبعدت المسلمين إلى أقصى جنوب غرناطة، حيث بنو الأحمر، هذه الخطوة لا تقل خطورة عن الحروب الصليبية (الفرنجية) في المشرق العربي الإسلامي[1]، وأما إيطاليا فقد أصبحت في شغل شاغل عن الحروب الصليبية بما قام فيها من نشأة القومونات، وهي المدن ذات الكيان السياسي والاقتصادي المستقل، فقد وجدت بعض هذه المدن أن مصالحها تتعارض مع محاربة المسلمين وقطع علاقاتها التجارية معهم، بل على العكس أقامت علاقات طيبة مع مصر ودول الشرق الإسلامي[2]، وخاصة بعد أن أدركت البندقية أهمية الدولة المملوكية في مصر وبلاد الشام، فعملت على إقامة صلات الود معها[3]، وكذلك كانت المصالح هي التي تحرك بيزا وجنوه نحو مصر، فهي تشارك أو تحجم عن الحملات الصليبية بما يتوافق مع مصالحها[4]، أما فيما يتعلق بجماعات الفرسان (التيوتون، الداوية، الإسبتارية) فبعد تحرير عكا توجه التيوتون سنة٦٩٠هـ/١٢٩١م للبندقية ثم إلى (مارينبروج) في روسيا سنة ٧٠٩هـ/ ١٣٠٩م، أما الداوية والإسبتارية فقد اتخذوا من قبرص مقراً لهم، ثم انتقلوا تحت الضغط إلى رودس سنة ٧٠٦هـ/ ١٣٠٦م، واستولوا على قلعتها، ثم

---

[1]– ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، مج١، ص١٤. العبادي (أحمد مختار): دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ص٣٨٤-٣٩٢.

[2]– فرح: الحضارة الأوروبية في العصور الوسطى، ص١٢٧، ١٢٨. براود (يوشع) :عالم الصليبيين، ترجمة: قاسم عبده قاسم ومحمد خليفة حسن، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، الهرم، ط١، ١٩٩٩م، ص١٢٤. دي نوفار (فيليب): حروب فريدريك الثاني ضد الإيبلينيين في سورية وقبرص، الموسوعة الشامية، دار الفكر، ١٩٩٨م، ج٣٤، ص٥٤.

[3]– كولتون(ج-ج): عالم العصور الوسطى في النظم والحضارة، ترجمة: جوزيف نسيم يوسف، دار المعارف، مطبعة رويال، الإسكندرية، ط٤، ١٩٨٣م، ص٢٠٢.

[4]– نسيم: دراسات في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، ص٩٢.

دانت لهم الجزيرة سنة ٧٠٨هـ/ ١٣٠٨م، وهذا ما عدّ انتصاراً صليبياً، ولكن حظ الداوية كان سيئاً عندما وقف ضدهم الملك الفرنسي فيليب الرابع الذي عزم على سحق هذه الطائفة، وبعد جدال طويل صدر ضدهم حكماً بالحبس، ثم صدرت قرارات البابا في شوال ٧١١هـ/ آذار ١٣١٢م، التي قضت بقمع هذه الطائفة وتسليم أملاكها للإسبتارية[1].

أما بالنسبة لقبرص فبعد تحرير عكا وانتقال الإسبتارية لرودس أصبحت الحكومة المسيحية الوحيدة التي اشتد اهتمامهما بالأراضي المقدسة، ومن المعروف أنهم كانوا يتوجون بتاج بيت المقدس في فاماجوستا أقرب مدينة لملكهم الضائع[2].

وبسبب أهمية قبرص وارتباطها بموضوع بحثنا فسوف نتوسع في الحديث عن أوضاعها قبيل الحملة على الإسكندرية والإعداد لهذه الحملة في عهد أسرة لوزينيان.

ج- قبرص وآل لوزينيان والإعداد للحملة :

بسبب قرب قبرص من الساحل الشامي كانت تشعر دائماً بخطر الإغارة عليها من هذا الساحل؛ لذلك نرى أن هنري الثاني دي لوزينيان (٦٨٤- ٧٢٥هـ / ١٢٨٥- ١٣٢٤م) ملك قبرص آثر سياسة الهجوم دفعاً للعدوان[3] *ففي سنة ٦٩٢هـ/ ١٢٩٢م أغارت قواته على شواطئ مدينة الإسكندرية لكن حملته هذه باءت بالفشل، بل زادت من غضب السلطان المملوكي الأشرف خليل الذي أصر على فتح الجزيرة، لكنه اغتيل قبل ذلك سنة*

---

[1]- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج٣، ق٢، ص٧٢٠، ٧٢١، ٧٣٠-٧٣٤.

[2]- الحميري (محمد بن عبد المنعم): الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت، ط٢، ١٩٨٠م، ص٤١٠، ٤١١. عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص١٢٢٣. إديوري (بيترو): قبرص والحروب الصليبية، دار الملتقى للطباعة والنشر، قبرص- ليماسول، ط١، ١٩٩٧م، ص٦٩- ٧٢ – ٧٤.

[3]- عاشور: أضواء جديدة على الحروب الصليبية، ص٥٢.

٦٩٣هـ/١٢٩٣م كما ذكرنا سابقاً[1]، ولم تتعرض قبرص بعد ذلك للخطر المملوكي، وأصبحت موانئها: (فاماجوستا، ليماسول) محطة للسفن التجارية الغربية والقناصل لرعاية مصالح جالياتهم التجارية بعد سقوط عكا، إلا أن هذا الأمر لم يدم طويلاً، فسرعان ما تغير الوضع بعدما جددت الجمهوريات الإيطالية اتفاقياتها التجارية مع المماليك، ومع ذلك فقد أصبح ميناء فاماجوستا في قبرص في النصف الأول من القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي يتمتع برخاء غير محدود لكونه أصبح مستودعاً رئيساً لتجارة التوابل رغم كل ما أصدرته البابوية من حظر للتجارة مع المسلمين[2]، لذلك أدرك هنري الثاني دي لوزينيان أنه لكي يضمن مستقبل الجزيرة السياسي يجب الحفاظ على ثروتها الناتجة عن التجارة، فوجد رابطاً بين قضية التجارة ومشكلة أسلوب الدفاع عن الجزيرة، فما كان منه إلا أن رفع مشروعه الصليبي في مذكرته التي دونها، وأرسلها إلى مؤتمر فيين (Vienne) المنعقد في فرنسا سنة ٧١١هـ/١٣١١م وقد تحدثنا عن هذا المشروع مسبقاً، وفي الظاهر أن هدف هنري كان دينياً، إلا أن الجوهر من هدفه اقتصادي خوفاً على تقليص تجارة قبرص على حساب زيادة العلاقات الإيطالية المملوكية، وقد دوّن هنري رأيه في المذكرة المرفوعة إلى المؤتمر وكذلك في الكتاب الذي رفعه سفراء القبارصة سنة ٧٢٣هـ/١٣٢٣م إلى البابوية[3].

منذ أوائل الثلاثينات من القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي نرى قبرص تشترك في أحلاف متعددة لتوجيه ضربات ضد المواقع الإسلامية، سواء أكانت مملوكية أم تركية، وخير

---

[1]– أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، ج٤، ص٢٩.

[2]– إديوري: المرجع السابق، ص ١١٩– ١٢٣.

[3]– رنسيمان: المرجع السابق، ج٣، ق٢، ص٧٢٧–٧٢٩. عاشور: أضواء جديدة على الحروب الصليبية، ص٥٣.

مثال على ذلك نجاح أسطول مشترك من مراكب البابوية والبنادقة[1] والإسبتارية والقبارصة في الاستيلاء على مدينة أزمير[2] من أيدي الأتراك سنة ٧٤٥هـ/ ١٣٤٤م[3]، هذه الأحلاف هيأت الجو لجزيرة قبرص في تحقيق الكثير من الثروة حتى وصف الرحالة (لودلف) سنة ٧٥٠هـ/ ١٣٤٩م فرسان قبرص بأنهم أغنى فرسان العالم[4]، كان ذلك في عهد هيو الرابع[5] لوزينيان والد بطرس الأول الذي تابع سياسة والده عندما اعتلى العرش سنة ٧٦٠هـ/١٣٥٨م في التصدي للبحرية الإسلامية، فتمكن من احتلال أنطاليا[6] في شوال سنة

---

[1] – هم فئة من الصليبيين يعود أصلهم إلى مدينة البندقية في إيطاليا، مارس بعضهم التجارة وكانت جزيرة قبرص تشكل لهم مستودعاً مناسباً لبضائعهم، وهذا ما دفعهم للاشتراك مع القبارصة في الاعتداء على سواحل السلطنة المملوكية في العديد من الحملات. الخادم: الشرق الإسلامي والغرب المسيحي عبر العلاقات بين المدن الإيطالية وشرقي البحر المتوسط، ص٤٧، ٤٨.

[2] – أزمير: هي إحدى أهم الموانئ التركية وأكبرها، تقع على الشاطئ الشرقي لبحر إيجة، فتحها سنة ٤٦٩هـ /١٠٧٦م سليمان شاه من السلاجقة الأتراك، وعرفت عند ابن بطوطة باسم (يزمير) حيث وصفها بأنها مدينة كبيرة على ساحل البحر معظمها خراب ولها قلعة متصلة بأعلاها. ابن بطوطة: الرحلة، ص٣٠٤. إديوري: قبرص والحروب الصليبية، ص١٣٥، ١٣٦. سيتون (كنث.م): البابوية والحروب الصليبية في مشرق البحر المتوسط، الموسوعة الشامية، تحقيق وتأليف وترجمة: سهيل زكار، دمشق، ٢٠٠٨م، ج٥٥، ص٤٤٦.

[3]– سوريال: الحروب الصليبية وتأثيرها على العلاقات بين الشرق والغرب، ص٨٨.

[4]– إديوري: قبرص والحروب الصليبية، ص١٢١.

[5] – هيو الرابع: أحد ملوك جزيرة قبرص وهو ابن شقيق وخليفة هنري الثاني ووالد الملك بطرس الأول، دخل في العديد من التحالفات ضد المسلمين حكم بين عامي ٧٢٥-٧٦٠هـ/ ١٣٢٤-١٣٥٨م. عاشور: قبرس والحروب الصليبية، ص٥٥. د.ق سبيريداكس: موجز تاريخ قبرص، ترجمة: يعقوب الكليمي، نشره مكتب الإعلانات العامة، قبرص، مطبعة الجارة، الإسكندرية، ١٩٧١م، ص١٠٨.

[6] – أنطاليا: هي مدينة في آسيا الصغرى تقع على شط بحر المتوسط، محاذية لجزيرة قبرص، وهي من أحسن المدن، متناهية الاتساع والضخامة وأكثرها عمارة وترتيباً. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج١، ص٢٧٠. إديوري: المرجع نفسه، ص ١٣٩.

٧٦٢هـ/آب١٣٦١م، واستمر احتلال القبارصة لها حتى سنة ٧٧٣هـ/١٣٧١م، حيث أعادوها لواليها السابق مفضلين ذلك على وقوعها في يد الجنوية[1]، وباحتلال بطرس لأنطاليا الميناء الإسلامي المهم يكون قد أنقذ قبرص من غارات المسلمين حيث كانت أنطاليا من أعظم المنافذ أهمية لتجارة آسيا الصغرى[2]، وبذلك نرى أن سياسة بطرس الأول لوزينيان كانت مؤسسة على الوعي التام بكل الدواعي البحرية والتجارية اللازمة لمواصلة مواجهة الأتراك وخاصة البحرية التركية. إن نشأة بطرس الأول لوزينيان الدينية دفعته للتفكير في إنشاء جماعة دينية حربية جديدة كخطوة نحو تحقيق هدفه في وقت كان لا يزال يلقب بكونت طرابلس ووريث عرش قبرص، حيث أطلق على هذه الجماعة (إخوان السيف) منذ توليته العرش القبرصي، وانضم إليها فرسان كثيرون من أقطار كثيرة إضافة إلى فرسان قبرص، فقد ضمت فرساناً من فرنسا وإسبانيا وروما ولومبارديا وألمانيا وإنكلترا وسردينيا[3].

وبعد أن تولى بطرس العرش سنة ٧٦٠هـ/ ١٣٥٨م قام برحلته إلى الغرب سنة ٧٦٣هـ/١٣٦٢م ساعياً لطلب المعونات للقيام بحرب صليبية (فرنجية) ضد المماليك، منطلقاً من

---

[1]-النويري: الإلمام بالإعلام، ج٣، ٢٢١.

Makhairas (Leontion): Recital Concerning The Sweetland Of Cyprus Entitled "Chronicle" Edited With A translation And Notes By R.M: Dawkins,2vols,Oxford,1930,Voli,Pp,105-109

الجنوية: يعود أصلهم إلى مدينة جنوه على الساحل الإيطالي، مارس بعضهم النشاط التجاري البحري، امتلكوا أسطولاً قوياً في البحر المتوسط، وتوصلوا في بعض الفترات إلى علاقات تجارية متميزة مع السلطنة المملوكية. رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، مج٣، ق٢، ٦٠٦- ٦٠٩.

[2]-أبو الفداء: تقويم البلدان، ص ٣٧٨-٣٨١. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ٢٧٠.

[3]- سوريال: العلاقات بين الشرق و الغرب – تجارية – ثقافية – صليبية، ص ٩٠.

Machaut (guillaume de):lapaised Alexandrie on chronique duroipierre lerde lusignan , publice per, m.l. de maslatrie, aeneve1877,pp,10-20.

حاجة قبرص بسبب إمكانيتها المحدودة إلى عون الغرب الذي على الرغم من تحرير عكا والغضب الذي اجتاحه سادته تيارات أفترت عزيمة الصليبية الأولى[1].

بدأ بطرس رحلته إلى الغرب للدعوة لحملة صليبية وللحصول على المساعدات المادية والعسكرية لمهاجمة مدينة الإسكندرية وتخليص الأراضي المقدسة من يد العرب المسلمين، ولم يسبق أن قام أحد ملوك قبرص بمثل هذه الزيارة للغرب اللاتيني، غادر الملك بطرس قبرص في يوم الإثنين ٢٦ ذي الحجة ٧٦٣هـ/٢٤ تشرين الأول ١٣٦٢م[2] متوجهاً إلى رودس حيث استقبله مقدم الإسبتارية (روجر دي بين)، ثم أبحر إلى البندقية في كانون الأول وبقي للعام الجديد محاولاً إقناع الدوق (لورنزو كلس) بإمداده بالسفن، ثم ارتحل إلى جنوه ماراً بلمبارديا، وبقي في جنوه حتى جمادى الأولى ٧٦٤هـ/ آذار ١٣٦٣م لتصفية الخلافات الجنوية وضمان المساعدات، ثم غادرها إلى أفينون بعد ستة أشهر من اعتلاء البابا أوربان الخامس كرسي البابوية، وفي أفينون جرت مفاوضات مع الأمراء الذين صادف وجودهم فيها، وتصادف وجود الملك الفرنسي أيضاً يوحنا الثاني، فكسبه بطرس لجانب قضيته[3]، ثم غادر أفينون ليكسب المزيد من المساعدات، فوصل إلى فلاندرز وبربانت وألمانيا وماينس وكولونيا، ومنها عبر إلى روان وكاين، فقابل شارل دوق نورماندیا، لكنه لم يحصل منه على استجابة حقيقية للانضمام لحملته، ثم عبر القنال إلى دوفر، ومنها إلى لندن لمقابلة ملك إنكلترا إدوارد الثالث، وفي لندن قابل دافيد ملك اسكتلندا أيضاً، وقد تلقى الهدايا ونفقة الحملة إلى لندن من الملك إدوارد الثالث، ثم توجه إلى أكويتين، لكنه سمع بموت يوحنا الثاني ملك فرنسا، فتوجه إلى باريس للمشاركة بجنازة صديقه[4]، وبعدها

---

[1] - عاشور: الحروب الصليبية، ج٢، ص١٢٢٤، ١٢٢٥.

[2] - سوريال: الحروب الصليبية وتأثيرها على العلاقات بين الشرق والغرب، ص٧٩-٨١.

[3] - نعينع: الحروب الصليبية المتأخرة، ص١١٢، ١١٣.

[4] - اديروي: قبرص و الحروب الصليبية، ص١٤٢، ١٤٣.

تابع إلى وسط أوربا داعياً نبلاء ألمانيا لحملته، وقوبل بالترحاب في ولايتي اسلنجن وإيرفورت، وتابع إلى فرانكونيا ثم سكسونيا حيث اصطحبه دوقها لمقابلة الإمبراطور شارل الرابع في مدينة براغ الذي أعلن تأييده الكامل لهذه الحملة، وقرر الإمبراطور إنفاذ الرسل لدعوة أمراء ألمانيا للتعاون في هذه الحملة، وكانت كراكاو آخر محطة في رحلة بطرس حيث قرر العودة للبندقية، وفي طريقه مرّ في فيينا لدعوة ملك النمسا لحملته، ثم تابع طريقه نحو الأدرياتيك، حيث خرج الدوق ونبلاء البندقية لاستقباله خارج المدينة في يوم الإثنين ١٤ صفر ٧٦٦هـ/١٨ تشرين الثاني ١٣٦٤م، وفي هذه الآونة أوفد البابا أوربان الخامس رسله إلى المدن الأوربية وسفراء الداوية لجمع الأموال من الأراضي الإيطالية وتشجيعهم على الدعوة لحملة بطرس لوزينيان، كما كان للداعية الكنسي بطرس دي توماس وصديقه فيليب دي مزيير دورهما الفعال في الدعوة لهذه الحملة الصليبية[1].

ومما تقدم نلاحظ الجهود الكبيرة التي بذلها ملك قبرص بطرس دي لوزينيان لتكوين جبهة لاتينية ضد الشرق المسلم، فقد برزت مملكة قبرص على مسرح الأحداث، وعملت على استغلال كافة الظروف والمعطيات لتحقيق مصالحها الاقتصادية تحت ستار الدعاية الدينية التي أفضت إلى حملة بطرس آخر المطاف على مدينة الإسكندرية.

د- دوافع ملك قبرص بطرس دي لوزينيان لاختيار مدينة الإسكندرية لحملته الصليبية البحرية :

السؤال الآن: لماذا اختار الملك بطرس مدينة الإسكندرية مع أن هدفه كان بيت المقدس ؟

---

[1]- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج٣، ق٢، ص ٧٤١، ٧٤٢.

بعد اطلاعنا على مساعي بطرس دي لوزينيان للدعوة الصليبية من أجل استعادة بيت المقدس، فمن المنطقي أن نتساءل: أكان بطرس يدرك منذ البداية هدفه الذي عمل من أجله وهو الاستيلاء على الإسكندرية، أم كان يهدف حقاً بحملته هذه إلى استعادة بيت المقدس ؟

وللإجابة على هذا التساؤل لابد من الاطلاع على ما كتبه مؤرخو هذه الحملة.

فها هو فيليب دي مزيير يؤكد لقرائه أنّ الملك بطرس ومنذ طلعته كان يتوق إلى استعادة ميراثه العائلي في مملكة بيت المقدس، لذلك كتب بطرس في أوائل سنة ٧٦٤هـ/١٣٦٢م إلى البنادقة عن هدفه في استرجاع الأراضي المقدسة[1]، وأما البابا أوربان الخامس فقد أكد أنّ حملة ٧٦٧هـ/ ١٣٦٥م تعد حملة من أجل استعادة الأراضي المقدسة[2]، وحسب ما جاء عن المندوب البابوي بطرس دي توماس بأن الملك بطرس كان يؤمن بقدرته على استعادة بيت المقدس؛ لذلك فإن مصر كانت مفتاحاً لطريق استرجاع بيت المقدس، وهذا ما أكده بطرس دي توماس في مواجهة الدعاة للجلاء عن الإسكندرية[3]، ولكن لا يمكننا الترجيح بأن بطرس الأول فكر في قدرته على دحر المماليك في مصر أو حماية فلسطين في حال استبدالها بالإسكندرية بعد احتلالها، لذلك يجب أن نضع الشك أولاً في قراءتنا لكتابات فيليب دي مزيير الذي على الرغم من أنه كان شاهدَ عيانٍ فإنه كان أيضاً مستشاراً لبطرس وداعياً صليبياً تتملكه فكرة وجوب إمكانية استعادة بيت المقدس[4].

---

[1] - شيبوب (صديق): معارك الإسكندرية، الوكالة العربية للدعاية والنشر، الإسكندرية، ط١، ص٩٤. إديوري: قبرص والحروب الصليبية، ص ١٤١.

[2] - سرور (محمد جمال الدين): دولة بني قلاوون في مصر الحالة السياسية والاقتصادية في عهدها بوجه خاص، دار الفكر العربي، ص٢٤٧.

[3] - رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج٣، ق٢، ص٧٤٢.

[4] - طقوش: تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، ص٣١٤.

أما المعاصران الآخران لحملة بطرس فهما (ماشو machout) و(مخيراس mahkairas) اللذان يشيران إلى فكرة استعادة بيت المقدس لكنهما لا يصوران حملة ٧٦٧هـ/١٣٦٥م على أنها كانت تعمل لتحقيق هذا الهدف[1]، وفي تحليل (إدبيوري edbury) لشخصية الملك بطرس ودوافعه الحقيقية لحملة الإسكندرية، يرى أن بطرس كان متأهباً لكي يدع البابا أوربان ومزيير يستخدمان فكرة استعادة بيت المقدس للأغراض الدعائية، إلا أن ذلك لا يعني بالضرورة متابعة الرأي الذي يذهب إليه الملك بطرس في الفترة الواقعة بين عامي ٧٦٤- ٧٦٧هـ/١٣٦٢-١٣٦٥م لم يكن يدور بالمثل حول بيت المقدس، بل حول ما يراه القبارصة من علاقة أوصلة متبادلة بين قضية تجارتهم وأسلوب الدفاع عن جزيرتهم[2]، وبنظرة متمعنة لأعمال بطرس الأول الحربية قبل حملته نرى أن سياسته لم تكن جديدة، بل كانت متابعة لسياسة من سبقه من ملوك قبرص خاصة بعد سقوط عكا سنة ٦٩٠هـ/١٢٩١م، فكل من هنري الثاني دي لوزينيان وهيو الرابع والد بطرس كان يدرك هذه الحقيقة التي مفادها **((أن المماليك أو الأتراك لو سيطروا على البحار فيعني ذلك وقوع جزيرة قبرص تحت رحمتهم))**[3].

و هذا ما يدركه تماماً التجار الإيطاليون والقطالونيون الذين يسيطرون على أعظم قوة بحرية في شرق المتوسط، وكان لهؤلاء مصالح ثابتة في جزيرة قبرص، فلا بد من مدّ يد العون لضمان مستقبل الجزيرة السياسي والإنفاق على ما يلزم للدفاع عنها إذا عمد المسلمون إلى غزوها[4]،

---

[1] - شيبوب: المرجع السابق، ص٩٤. إديوري: المرجع السابق، ص ١٤١، ١٤٢.
Edbury (Peter.w): The Crusading police of peter I of Cyprus ,1359-1469,in :holt, p.m. (Editor) , the eastern miditwrranean lands in the period of the crusads, warminster, England, 1977,p,95.

[2] - Edbury , The Crusading Police,p.95

[3] - سالم: تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي، ص ٣١٧.

[4] - Edbury , The Crusading Police,p.5-95

ومن هنا نستمد التعليل لاختيار بطرس لمدينة الإسكندرية دون غيرها من المدن، فإن واقع الحال يجيب بما يلي:

من المعروف أن الإسكندرية التي بناها الإسكندر الأكبر سنة ٣٣٢ق.م كانت أولى مدن العالم أو ثانيها من حيث الأهمية[١]، ثم أصبحت في العصور الوسطى أولى المدن البحرية في الشرق، فكانت ملتقى تجار العالم بعد فتح العرب المسلمين لها سنة ٢٠هـ/٦٤١م[٢]، وأن موقعها الفريد في الطرف الشمالي للساحل الإفريقي هيأ لها الاتصال السهل بين قارات العالم القديم الثلاث وأضفى عليها مكانة خاصة من الناحية التجارية والاتصال الحضاري بين هذه الحضارات، وقد أدت الملاحة دوراً مهماً في ربط مصر بشعوب تلك البلاد عن طريق الإسكندرية والمتوسط[٣].

وكان الملك بطرس لوزينيان مصيباً باختيار هدف حملته وهي مدينة الإسكندرية.

وسأقوم بعرض الأسباب التي دفعت ملك قبرص بطرس إلى الإغارة على مدينة الإسكندرية وتحليلها:

أ ـــ أهمية مدينة الإسكندرية كثغر تجاري عالمي تنتهي عنده طرق التجارة الشرقية لتبدأ منه الطرق التجارية المتجهة إلى الغرب[٤]، وقد كانت الإسكندرية تنتزع التجارة من مرفأ فاماجوستا، وعلى هذا يمكننا القول: إن الهدف المباشر لغارة بطرس لوزينيان على

---

[١]- ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة، ص٥٧، ٥٨.

[٢]- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج٢، ص٤٠٥. سالم: تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي، ص٥.

[٣]- ياقوت الحموي: منجم العمران في المستدرك على معجم البلدان، ص٢٥٦، ٢٥٧. علماء الحملة الفرنسية: وصف مصر (دراسات عن المدن والأقاليم المصرية)، ترجمة: زهير الشايب، مكتبة الخانجي، مصر، ط١، ١٩٧٨م، مج٣، ص٢٩٩، ٣٠٠. علي: الإسكندرية في عهد البطالمة والرومان، ص٢، ٣.

[٤]- ياقوت الحموي: منجم العمران في المستدرك على معجم البلدان، ص٢٥٧. طقوش: المرجع السابق، ص٣١٤.

الإسكندرية إنما كان يستهدف القضاء على ميناء الإسكندرية، وبما أن الضرائب التي كانت تجبى على مرور البضائع خلالها تمد السلطان بمورد مالي ضخم يساعده على محاربة الصليبيين، فسقوط الإسكندرية في أيدي الصليبيين سوف يمدهم بمركز اقتصادي كبير فضلاً عن مركزها الإستراتيجي الذي يمكن استخدامه كنقطة ارتكاز لفرض حصار تجاري على مصر ونجاح مبدأ التحريم التجاري المنشود[1]، وعندما أدرك بطرس لوزينيان استحالة الاحتفاظ بمدينة الإسكندرية قام بتخريبها لكي يتحول النشاط التجاري إلى مرفأ فاماجوستا، وهذا يبرهن على أن الملك بطرس كرس جهده في النضال من أجل تأمين سلامة قبرص من ناحية وحمايتها عن طريق زعامتها أو سيطرتها التجارية من ناحية أخرى[2].

ب ــ اعتقاد الصليبيين السائد آنذاك أنه من العسير من الناحية العملية غزو بلاد الشام ما لم يكن ثمة قاعدة لهم على الساحل، والمعروف أن الموانئ على الساحل الشامي جرى تخريبها على يد المماليك باستثناء ميناء طرابلس، ودلت تجربة سابقة على أنه متى فقد سلطان مصر ثغر دمياط أضحى مستعداً لأن يتنازل عن بيت المقدس مقابل استرداده، والإسكندرية تفوق بأهميتها ثغر دمياط، ومن يضع يده عليها فإنه يستطيع بمساعدة أسطول صغير اعتراض المواصلات بين مصر والعالم الخارجي، ويمكن في هذه الحالة اتخاذها مركزاً وقاعدة انطلاق نحو الأراضي المقدسة يضاف إلى ذلك أنه بمعاونة جيش مدرب يجتاح كل المواقع الداخلية، ثم يتقدم نحو القاهرة حيث يتيسر له القضاء على عاصمة المماليك[3].

---

[1]- عبادي وسالم: تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام، ص٣١٠.

[2]- ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٨، ص٧٠٦. إديوري: المرجع السابق، ص١٤٦.

[3]- اليافعي: مرآة الجنان وعبرة اليقظان، ج٤، ص١٥٧، ١٥٨. يحيى (جلال) مهنا (محمد نصر): مشكلة قبرص، دار المعارف، الإسكندرية، ١٩٨١م، ص٦١.رنسيمان: المرجع السابق، ج٣، ق٢، ص٧٤٤.

ج ـــ كانت دولة المماليك تعاني من عدم الاستقرار السياسي آنذاك بسبب صغر سن السلطان شعبان، وانحصرت السلطة بيد الأمير يلبغا الخاصكي الذي كان مكروهاً من سائر الأمراء والناس[1].

د ـــ كان نائب السلطان على ثغر الإسكندرية الأمير صلاح الدين خليل بن عرام يؤدي فريضة الحج في الحجاز الشريف، وكان ينوب عنه في أثناء غيابه في ثغر الإسكندرية أمير صغير من أمراء العشرات[2] وهو جنغرا بإشارة من الأتابكي يلبغا، واتصف جنغرا بالضعف والتردد، ولم يكن أهلاً للولاية لجهله بتدبير الأمور وعدم معرفته بمواقع الحروب، فكان لا يصلح لمثل هذه المواقف الحاسمة[3].

هـــ ـــ كانت حامية المدينة ضئيلة العدد لا تكفي للدفاع عنها وذلك لعدم اهتمام يلبغا بتحصينها رغم إلحاح نائب المدينة الأمير صلاح الدين خليل بن عرام غير أن أسوارها كانت بالغة المناعة[4].

و ـــ كان موسم فيضان النيل وما نتج عنه من غمر الدلتا بالمياه، فأصبح من المتعذر إمداد حامية الإسكندرية بنجدة من القاهرة على وجه السرعة، بل كان على هذه الحملة أن تسلك الطريق الصحراوي وهو طريق متعب وطويل[5].

---

[1]- ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج١١، ص٢٠، ٢١.

[2] - أمير عشرة: مرتبة حربية يكون في خدمة صاحبها عشرة مماليك، وكان فيهم من له عشرون فارساً ولا يعد إلا من أمراء العشرات، وهذه الطبقة لا ضابط لعدد أمرائها بل تزيد وتنقص، ومن هذه الطبقة يكون صغار الولاة ونحوهم من أرباب الوظائف. القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص١٥. المقريزي: السلوك، ج١، ص٢٣٩ حاشية رقم (١). المقريزي: الخطط، ج٣، ص٧٠.

[3]- ابن قاضي شهبه: تاريخ ابن قاضي شهبه، ج٢، مج٣، ص٢٧١.

[4]- ابن الكثير: البداية والنهاية، ج١٨، ص٧٠٥. المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٣، ص١٠٥.

[5]- ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١١، ص٧٣. سرور: دولة بني قلاوون، ص٢٤٨.

زــ قاست مصر كثيراً من وباء الطاعون الذي تفشى في ديارها في أعوام ٧٤٩، ٧٥٤، ٧٦١، ٧٦٣، ٧٦٤هــ/١٣٤٨، ١٣٤٣، ١٣٦٣، ١٣٦٢، ١٣٥٣م واستنفد هذا الوباء قوى مصر، ومات بسببه أعداد هائلة من السكان[1] ولا يفوتنا في هذا المقام أن نذكر تلك الأسباب التي انفرد بها النويري السكندراني في اختيار الملك بطرس لمدينة الإسكندرية هدفاً لحملته، وهي كما يلي :

أ ــ الظلم الذي وقع على النصارى الشرقيين الذين طردوا سنة ٧٥٥هــ/ ١٣٥٤م من الخدمة في دواوين الحكومة، وأرغموا على لبس الخشن من الثياب في عهد السلطان الصالح صلاح الدين بن الناصر محمد بن قلاوون.

ب ــ رفض السلطان المملوكي الناصر حسن لطلب تقدم به الملك بطرس ليأذن له كعادة كل من تملك قبرص بأن يستلم التاج في مدينة صور.

ج ــ الأسلوب المتراخي في التصدي لتعدي الفرنج على مياه الإسكندرية في عهد السلطان حسن بن الناصر محمد مما أوحى لهم بقصور الدفاع عن المدينة وأنها غنيمة سهلة المنال[2].

د ــ حوادث السلب والنهب من ناحيتي رشيد وأبي قير، قرب الإسكندرية، مما أيد اقتناع الملك بطرس بانعدام وسائل الدفاع عن الساحل المصري.

هــ ــ قيام العوام بقتل بعض الفرنج البنادقة المقيمين في الإسكندرية، وهذا ما دفع البنادقة إلى الاشتراك في هذه الحملة[3].

---

[1]- الذهبي: العبر في خبر من غبر، ج٤، ص١٤٩. أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، ج٤، ص١٧٤. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١١، ص٢١. سالم: تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي، ص٣٢١، ٣٢٢.

[2]- النويري السكندراني: الإلمام بالإعلام، ج٢، ص٩٢- ١١٠.

[3]- النويري: المصدر نفسه، ج٢، ص٩٢- ١١٠.

ومما تقدم نرى أن الملك بطرس دي لوزينيان أحسن اختيار هدف حملته، وهي مدينة الإسكندرية التي كانت في غاية الفوضى في ذلك الحين، وهذا ما كان يدل على أن الملك بطرس كان رجل سياسة يتسم بالواقعية، لكن مع سذاجة وقصور في فهم واقع القوى الاقتصادية والعسكرية، السائد في ذلك العصر.

هـ- تحرك الأسطول الصليبي باتجاه الإسكندرية :

أصدر الملك بطرس أوامره إلى رجال الأسطول بالصعود إلى السفن في يوم السبت ٢٤ رمضان ٧٦٦هـ/ ٢٢ حزيران ١٣٦٥م، ثم غادر الأسطول مراسي البندقية في صبيحة يوم الخميس ٢٩ رمضان ٧٦٦هـ/ ٢٧ حزيران ١٣٦٥م[1]، ثم وصلته رسل البابا أوربان الخامس مباركاً ومهنئاً ومتمنياً النصر له ولمن معه، وكان أسطول الملك في طريقه إلى رودس إخفاءً لنواياه الحقيقية التي حاول البنادقة معرفتها لكنه حجبها عنهم لأن دوق البندقية اشترط على الملك إذا اشتراك في هذه الحملة ألا يترل رجاله أرض مصر قبل نهاية تشرين الأول، أي بعد أن ينتهي من سحب متاجره من ميناء الإسكندرية[2]، وتابع الملك طريقه دون أن يرسو في كريت[3]، بل توجه جنوب جزيرة (كاندي Candie)، فتوقف عدة أيام للراحة، ثم غادرها حتى وصل جزيرة رودس في تموز بعد رحلة بحرية موفقة، وكان بطرس قد أرسل لأخيه ونائبه في قبرص

---

[1]- محمد مختار (اللواء): كتاب التوفيقات الإلهامية في مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الإفرنجية و القبطية، المطبعة الأميرية، بولاق، ط١، ١٣١١هـ، ص٣٨٣.

[2]- سيد صبره (عفاف): العلاقات بين الشرق والغرب (علاقات البندقية بمصر والشام في الفترة ١١٠٠-١٤٠٠م)، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٨٣م، ص٦٨.

[3] - كريت: جزيرة في البحر المتوسط، كثيرة الخيرات والميرة، تبلغ مساحتها ٨٣٣٢كم، وهي تتوسط الطريق ما بين سورية وإيطاليا وما بين مصر واليونان، وعدت محطة هامة للقوافل التجارية المتجهة إلى مصر والشام. انظر: ابن حوقل (أبي القاسم النصيبي): صورة الأرض، دار مكتبة الحياة، بيروت-لبنان، ١٩٩٢م، ص١٨٤. ديورانت (ول): قصة الحضارة، ترجمة: زكي محمود، الإدارة الثقافية، مج١، ج١٣، ص٢٣٩.

بإعداد سفن فاماجوستا ومراكب أخرى وإرسالها مع المؤن إلى رودس انتظاراً للملك[1]، وفعلاً وصل ما طلبه إلى رودس، وما يزال الملك في البندقية، فقد وصل رودس في شهر آب واستقبله الملك بسرور وثار حماس الأسطول الصليبي (الفرنجي)، وأبدى رغبته في قتال المسلمين، خاصة بعد أن انضم إليه فرسان الإسبتارية مع بعض سفنهم فبلغ الجيش الصليبي عشرة آلاف مع ألف فارس غير الرماة والمنجنيقية وأربعة آلاف خيال، بالإضافة للآلات والمؤن والأقوات التي تزيد عليها[2] والجميع بانتظار إشارة البدء بالإقلاع في أسطول قوامه يزيد عن مئة سفينة، وكان كل هذا قد تم خلال محرم ٧٦٧هـ/ أيلول ١٣٦٥م، ثم أعلن الملك عن عزمه على الرحيل من رودس دون إفصاح عن وجهته، لعدم اطمئنانه إلى إخلاص الجمهوريات الإيطالية له، وخشية من أن تذيع سر حملته وتحذر السلطان المملوكي منها، وبعد اجتماعه بحاشيته قرروا التحرك تحت ستار التوجه نحو قبرص حتى لا ينتبه المسلمون لحقيقة الحملة، وعلى الرغم من كل هذا التكتم نرى من المصادر العربية المعاصرة للحملة أن أخبار الحملة لم تكن لتخفى عن الإسكندرية ولا عن القاهرة لا ئمين أصحاب الحكم وأولي الأمر على تهاونهم بالاستعداد لصد هذه الحملة [3].

على كل حال فقد حان وقت إقلاع الحملة من رودس يوم السبت في ١٠ محرم ٧٦٧هـ/٤تشرين الأول ١٣٦٥م، حيث صعد العساكر إلى السفن، ثم خطب بهم الملك، ومنح بركاته لهذا المشروع، فهتف الجميع كما يذكر فيليب دي مزيير: ((**عاش، عاش بطرس ملك**

١- Makhairas: Recital Concerning ,p145.

٢- إديوري: قبرص والحروب الصليبية، ص١٤٤. رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج٣، ق٢، ص٧٤٣. عتمان (أحمد): تاريخ قبرص جزيرة الجمال والألم منذ القدم و إلى اليوم، دار الكتب، القاهرة، ١٩٩٧م، ص١٥١.

٣- المقريزي: السلوك، ج٣، ص١٠٤، ١٠٥.

بيت المقدس وقبرص قاهر المسلمين))[1]، ثم غادروا يوم الأحد مبحرين صوب الإسكندرية بعد أن أعلن الملك وجهته إليها، وأعطى الأوامر للسفن بالتوجه نحوها، عندما أصبحت في عرض البحر بعد مغادرتهم جزيرة (كرامبوسا) إحدى جزر آسيا الصغرى التي مكثوا فيها يوماً واحداً للتزود بالمياه، واصلوا رحلتهم إلى الإسكندرية واستمرت الرحلة خمسة أيام حتى لاحت سفن الحملة الصليبية (الفرنجية) لأنظار أهالي مدينة الإسكندرية في صباح يوم الخميس ١٥محرم ٧٦٧هـ/٩ تشرين الأول ١٣٦٥م، وعندما رأى الإسكندريون السفن ظنوها تجارية، ثم اكتشفوا حقيقة الأمر عندما رست السفن بعد استعراض قوتها في الميناء القديم الغربي المحظور على السفن النصرانية[2] .

و- أحداث الحملة على الإسكندرية :

عندما وصلت الحملة إلى الإسكندرية كان والي المدينة صلاح الدين بن عرام متغيباً في مكة بسبب الحج، في حين كانت حامية المدينة والحكومة غافلة عن حاجة المدينة إلى التسليح والتقوية كما ذكرنا سابقاً لثقة من أولي الأمر في القاهرة بما تتمتع به المدينة من الأمن والحصانة، وأنها عاصية على الغزاة[3]، وكان بطرس قد أرسل جواسيسه ليتحسسوا حال المدينة، ويقال إن بطرس نفسه دخل المدينة بزي أحد التجار ونزل عند كاتب الديوان بها (شمس الدين بن غراب) الذي تواطأ معه وعرفه على أحوال المدينة، وعندما عاد ابن عرام من الحجاز قتل ابن غراب لخيانته[4]، وأشار على الصليبيين (الفرنجة) في الحملة كبير فرسان المعبد بالانتظار حتى يوم الجمعة

[1]- رنسيمان: المرجع السابق، ج٣، ق٢، ص٧٤٤.

[2]- النويري السكندراني: المصدر السابق، ج٢، ص١٣٦، ١٣٧. طقوش: المرجع السابق، ص ٣١٣.

[3]- ابن قاضي شهبه :تاريخ ابن قاضي شهبه، ج٢، مج٣، ص٢٧١. ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٨، ص٧٠٥. المقريزي: السلوك، ج٣، ص١٠٥.

[4] – سعيد: البحرية في عصر سلاطين المماليك، ص٣١١، ٣١٢.

والهجوم وقت صلاة الجمعة لضمان وجود الرجال بالجوامع والنساء بالبيوت كي يوقعوا أكبر خسارة على المسلمين[1]، وكان بطرس يقود جيشاً صليبياً يزيد عدده على الثلاثين ألفاً وفي صحبته أسطول بلغ عدده ما يزيد عن السبعين قطعة حربية في البحر، ومن ضمن هذا الأسطول أربعة وعشرون مركباً من البنادقة من النوع الذي يطلق عليه (غراب)، ومن جنوه مركبان، ومن رودس عشرة مراكب، ومن فرنسا خمسة مراكب، والباقي كان من قبرص[2].

وما كان من أهل مدينة الإسكندرية إلا أن قاموا بتعزيز أسوارها وأبراجها من جهة البحر والجزيرة بالرماة، كما قدم إليها جموع العربان ليؤازروا أهلها، ولكن لم يكن لهم ذلك الثقل العسكري الذي يذكر بل على العكس فبعض المراجع تذكر أن بعد دخول بطرس إلى الإسكندرية فإن هؤلاء العربان اقتنصوا الفرصة فقاموا بالسلب والنهب مما أوقع المدينة تحت نارين نقص الطعام، وعدوان العربان[3]، وعلى الرغم من كل هذه الظروف فإن الملك بطرس ظل متخوفاً لما اشتهرت به الإسكندرية من استحكامات وتحصينات وأسوار وأبراج[4]، وفي ضحى يوم الجمعة ١٦محرم/١٠ تشرين الأول بدأ الملك أول هجوم بحري، واستطاع اقتحام المدينة بعد صلاة الجمعة رغم المقاومة الشديدة، فقد كان الصليبيون (الفرنجة) أكثر عدداً وعدة من المسلمين[5].

---

[1]- عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص١٢٢٥.

[2]- المقريزي: السلوك، ج٣، ص١٠٧. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١١، ص٢٤. عتمان: تاريخ قبرص جزيرة الجمال والألم منذ القدم وإلى اليوم، ص١٥١.

[3]- المقريزي: المصدر السابق، ج٣، ص ١٠٦. ماهر: البحرية في مصر الإسلامية وآثارها الباقية، ص١٢٠.

[4]- ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة، ص ٢٠.

[5]- ابن العراقي (أحمد بن عبد الرحيم): الذيل على العبر في خبر من عبر، تحقيق: صالح مهدي عباس، مؤسسة الرسالة، بغداد، ط١، ١٩٨٩م، ق١، ص١٩١. ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٨، ص٧٠٥.

وتوسع المؤرخون في وصف وقائع الهجوم على الإسكندرية، ويمكن أن نعرض في هذا البحث بعض صور الهجوم.

فكان أول من نزل من فرسان الفرنجة آميديه الثالث وهيج (هو) دي لوزينيان أمير الجليل ابن أخ بطرس، ثم كونت دي تيريي، وأبدى الجميع شجاعة فائقة في قتال المسلمين، ثم لم يلبث الملك بطرس أن رمى بنفسه في غمار المعركة بكامل عدته، وأظهر بسالة نادرة كما يذكر (ماشو)، وما لبث أن نزل نحو ثمانية آلاف من جنود الحملة إلى مياه الميناء، والملك يأمرهم بالتقدم والقتال المتواصل حتى اصطبغت المياه باللون الأحمر من كثرة القتلى بين الطرفين، واضطر المسلمون للخروج من الماء تحت ضغط الصليبيين (الفرنجة) الذين نجحوا في الاستيلاء على شواطئ الميناء[1].

ثم التف أمير رودس بفرقة الإسبتارية وراء المسلمين الذين انحصروا بين قوتين، فتراجعوا أمام ضغط الإسبتارية حتى باب المدينة، وتتفق رواية النويري السكندراني مع رواية ماشو، فكلاهما يشرح كيف ارتبك أهل المدينة لما رأوا تراجع العربان أمام الفرنج، فتدافعوا نحو الباب طلباً للنجاة، فمات من مات، وحاول المسلمون إغلاق باب المدينة (وهو باب البحر الذي نزل الفرنج عنده)، فكادوا يعجزون لكثرة الجثث في مدخل الباب، لكنهم أخيراً تمكنوا من إغلاقه بصعوبة[2]، وكان الناس عند هروبهم خارج المدينة يقتلون أمام ناظر نائب المدينة الأمير جنغرا الذي لم يحصنهم داخل الأسوار، وكان هذا الخطأ قاتلاً، وقصد الأمير ناحية المطرق المحاذي لدار السلطان غربي المدينة من ظاهر سورها، فدخل الإسكندرية من باب الخوخة[3]، وأتى بيته وأخذ

١- Machaut: lapaised Alexandrie ,pp,70-76.

٢- النويري السكندراني: الإلمام بالإعلام، ج٢، ص ١٤٨. Machaut:p,77.

٣ - الخوخة: باب صغير في بوابة كبرى لسور أو حصن أو فندق، وكانت العادة في العصور الوسطى في مصر وغيرها أن يجعل هذا الباب الصغير للاستعمال اليومي، فلا تكون حاجة إلى فتح البوابة الكبرى إلا عند

ما فيه من ذهب وفضة واستاق خمسين من تجار الفرنج وقناصلهم الذين كانوا بالمدينة وهم مقيدون بالسلاسل، وتوجه بهم إلى دمنهور، ثم أرسل يطلب العون من السلطان في القاهرة[1]، كما كثف المسلمون رماتهم على الناحية الغربية من السور فوق باب البحر، حيث احتشد الفرنج محاولين إحراق الباب دون جدوى، فأمر الملك بطرس جنوده وقف الهجوم والتراجع عن الباب والنزول إلى الجزيرة من أجل الراحة والمداواة وللتفكير في كيفية أخذ المدينة[2]، ثم عقد الملك اجتماعاً تم الاتفاق فيه على معاودة الهجوم، وحدد جوائز لأول من يعتلي الأسوار، وبسبب تكثيف الدفاع على الميناء الغربي فوق باب البحر فلم يجد الفرنج بداً من الهجوم إلا على الميناء الشرقي لانعدام الدفاع فوق باب الديوان، حيث تقع قلعة ضرغام، التي تمنع المدافعين من الإشراف على الباب، تقدم الفرنج لباب الديوان، فخرج لهم المسلمون، وصدوهم عنه فتراجعوا وانضموا للملك الذي قاد الهجوم الثاني على الباب الذي كان يشكل نقطة الضعف الوحيدة في نظام الدفاع عن المدينة[3]، حيث كان يستخدم لإدخال البضائع الواردة إلى الإسكندرية، وكان متروكاً بلا حماية كافية، لذلك أشعل الفرنج فيه النار، وأخذوا ينصبون السلالم على الأسوار، حيث ساعدهم في ذلك أحد البحارة الفرنج الذي تسلل من فتحة مجاري الأقنية داخلة إلى المدينة، واعتلى السور، وثبت السلالم فتدافع الجنود، ووصلوا لمتاريس السور، ولما رآهم المسلمون وكانت قلعة ضرغام تحول دون الوصول إليهم ولّوا هاربين لأنهم أيقنوا سقوط

الضرورة، وقد يقصد بالخوخة فتحة في السور نفسه دون أن تكون هناك بوابة كبرى. انظر: المقريزي: السلوك، ج٢، ص٢١٥ حاشية (٢).

[1]- المقريزي: المصدر نفسه، ج٣، ص١٠٨. Machaut: ,pp,78,80.

[2]- طقوش: تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، ص٣١٥.

[3]- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج٣، ق٢، ص٧٤٦. Atiya :The Crusade,P,395.

المدينة[1]، وخاصة بعد إحراق باب الديوان، فانهدم، ودخل الملك ومن معه إلى المدينة، وذلك في الساعة الثالثة بعد صلاة الجمعة في ١٦ محرم ٧٦٧هـ/١٠ تشرين الأول ١٣٦٥م، وانطلق جنود الملك ينتشرون في أنحاء المدينة يقتلون كل من يصادفهم، فقتلوا كما ذكر ماشو ما يزيد عن العشرين ألفاً، وكانوا يجتاحون المدينة بوحشية بالغة[2].

ثم رفع الملك العلم فوق المدينة، وأقاموا الحرس على الأبواب، وفي المساء هاجم ما يزيد عن عشرة آلاف من عربان المدينة من باب فلفل، ودار قتال عنيف بينهم وبين الفرنج حتى الصباح، حيث تم إجلاء العربان عن المدينة الخالية من أهلها، وكان النويري السكندراني وأهله ممن فرّ من أهل الإسكندرية[3]، أما الفرنج فأخذوا ينهبون الحوانيت والبيوت في المدينة، وأحرقوا الخانات، وكسروا القناديل في المساجد، وعلقوا الصلبان على الأسوار، واعتدوا على المقابر وعلى الناس والبنات، وأسروا الكثير من الأهالي، وقتلوا الشيوخ، ولم يسلم منهم حتى المجانين والعجائز ولا حتى الكنائس المسيحية، وبلغ من وحشية الصليبيين (الفرنجة) في تلك الحملة أنهم كانوا يقتلون المرأة بعد أن يذبحوا أطفالها على صدرها[4]، وهذه الأعمال الوحشية التي قام بها الصليبيون في الإسكندرية سنة ٧٦٧هـ/١٣٦٥م تشبه إلى حد كبير الأعمال الوحشية التي قام بها أسلافهم

---

[1]- النويري السكندراني: المصدر السابق، ج٢، ص١٥٧، ج٣، ص٢١٣. المقريزي: السلوك، ج٣، ص١٠٧.

[2]- المقريزي: المصدر نفسه، ج٣، ص ١٠٦، ١٠٧. Machant :pp,1-90.

[3]- النويري: المصدر السابق، ج٢، ص١٥٧.

[4]- ابن كثير (عماد الدين): الاجتهاد في طلب الجهاد، جمعية التأليف والنشر الأزهرية، القاهرة، ط١، ١٣٤٧هـ، ص٨. ابن العماد: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج٨، ص٣٥٧. الجبرتي: عجائب الآثار في التراجم والأخبار، ج١، ص٣٤. عاشور: الحركة الصليبية، ص ١٢٢٦. النهار: العصر المفترى عليه عصر المماليك البحرية، ص٤٠.

من الصليبيين في القدس سنة ٤٩٢هـ/ ١٠٩٩م[١]، ودام التخريب حتى يوم السبت ٢٤محرم/١٨تشرين الأول، وبذلك بدا كأن الأمر استتب لبطرس، فما عليه إلا الاحتفاظ بالمدينة والمساومة عليها، ولكن القول الفصل لم يكن بيده، بل إنه عقد اجتماعاً، ولقي معارضة شديدة فيه لطلبه البقاء في المدينة، وانفض الاجتماع، وتوجه المجتمعون لمراكبهم، ولم يتخلف سوى مئة وعشرين من حملة السلاح[٢]، وبذلك فشل الملك بطرس ومندوب البابا في إقناع قادة الحملة في تغيير مواقفهم، فتوجه إلى سفينته أيضاً مستعداً للإبحار مع من تبقى من حملة السلاح[٣]، ومن ناحية أخرى كان أمير المدينة صلاح الدين بن عرام قد وصل من الحجاز إلى القاهرة، فأمره يلبغا الخاصكي بالتوجه للإسكندرية، ثم وصل ابن عرام المدينة في ٢٥ محرم/١٩ تشرين الاول، فنزع أعلام الفرنجة، ورفع أعلام المسلمين[٤]، وأرسل يفاوض الملك بطرس على تبادل الأسرى في وقت وصل فيه جيش القاهرة بقيادة الأمير (قطلوبغا المنصوري)، فانضم إليه يلبغا الخاصكي، فلما رأى الفرنج هذا الجيش الإسلامي العظيم فروا بأسطولهم هاربين، ولم ينتظروا تبادل الأسرى، بل توجهوا مباشرة لجزيرتهم[٥]، ولما علم السلطان بجلاء الصليبيين (الفرنجة) عن الإسكندرية أمر أمراءه الذين تقدموه بمواصلة سيرهم إليها للإشراف على إصلاح ما تهدم منها

١- رنسيمان: المرجع السابق، ج٣، ق٢، ص٧٤٦.

٢- طقوش: المرجع السابق، ص٣١٦.

٣- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج٣، ق٢، ص٧٤٧، ٧٤٨.

٤- النويري السكندراني: المصدر السابق، ج٣، ص٢٠٩.

٥- سالم: تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي، ص٣٠٧. طقوش: تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، ص٣١٦. إديوري: قبرص والحروب الصليبية، ص١٤٦. النهار: العصر المفترى عليه عصر المماليك البحرية، ص٤١.

وإقرار الطمأنينة في نفوس سكانها[1]*، وبعد هروب الملك بطرس وحملته الصليبية من مدينة الإسكندرية إلى قبرص تجمعت السفن في (ليماسول وفاماجوستا)، ومعهم خلق كثير من أسرى المسلمين يقاربون أربعة آلاف شخص ومن الغنائم الشيء الكثير، ونزل الجيش الصليبي إلى الجزيرة، ثم وجه الملك بطرس شكره للجيوش التي شدت الرحيل لأوطانها، وأنفذ الملك الرسائل للبابا أوربان الخامس وحكام أوربا يخبرهم بالنصر، وأقيمت الاحتفالات في (نيقوسيا) بهذه المناسبة*[2].

وهنا لابد من الإشارة إلى واحدة من أهم الصفات التي اتصف بها الملك بطرس كما ذكرها المؤرخون بأنه ((**دخلها لصاً وخرج منها لصاً**))[3]، *وبذلك تكون هذه الحملة قد انتهت بعد أن خلفت في المدينة خراباً واسعاً بعد إقامتهم فيها ثمانية أيام يمارسون القتل والنهب والحرق والأسر،* وعلق المقريزي على ما حل بالإسكندرية: ((**فكانت هذه الواقعة من أشنع ما مرّ بالإسكندرية من الحوادث، ومنها اختلت أحوالها، واتضع أهلها، وقلت أموالها، وزالت نعمها**))[4]، وفي نهاية هذه الأحداث لابد أن نشير إلى وحدة من أهم الأسباب التي مكنت الصليبيين (الفرنجة) من اقتحام المدينة وقتل أعداد كثيرة من سكانها، كما أورده النويري السكندراني، وهو *عدم كفاءة الأمير جنغرا، فقد ارتكب خطأً عسكرياً عندما أبقى الحامية متمركزة في الربط المقامة على حافة الشاطئ في شبه جزيرة الميناء، ولم ينقلها لداخل المدينة لتقاتل خلف الأسوار وفي ذلك يقول:*

---

[1]- ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١١، ص٣٠. رنسيمان: المرجع السابق، ص٧٤٨. النهار: المرجع نفسه، ص٤١.

[2]- ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٨، ص٧٠٥. رنسيمان: المرجع نفسه، ج٣، ق٢، ص ٧٤٨، ٧٤٩.

[3]- النويري السكندراني: الإلمام بالإعلام، ج٣، ص٦٥.

[4]- المقريزي: السلوك، ج٣، ص١٠٨.

((ولو كان المسلمون تركوا للقبرصي الجزيرة وتحصنوا بالسور وقاتلوا من ورائه كل رجس كفور، لكان المسلمون بتحصنهم بالثغر سلموا من القتل والنهب والأسر))[1].

كانت أحداث محرم سنة ٧٦٧هـ/تشرين الأول ١٣٦٥م مثيرة إلى حد بعيد في العالم الإسلامي، ولكن الإنجازات الصليبية كانت ضئيلة ومن ناحية أخرى كانت قبرص قد تورطت في حرب مع السلطنة المملوكية، أما من وجهة نظر المسيحيين فإن العداء الراسخ للنشاط البحري وللحملات العسكرية المنقولة بحراً مما تميز به الصراع الحربي في قسم كبير من تاريخه عني أن المماليك لم يكونوا في وضع يستطيعون فيه شن هجوم ثأري على أنهم بعد اقتحام الإسكندرية عمدوا إلى إنشاء أسطول حربي لغزو جزيرة قبرص التي أضحت عدواً يجب استئصاله، وظل المماليك يتحينون الفرصة لتنفيذ هذه الرغبة حتى تحققت بعد ستين عاماً كما سنرى في الفصل القادم.

ز- ردود الأفعال ونتائج الحملة:

كان لهذه الحملة الصليبية (الفرنجية) الوحشية على ديار المسلمين سنة ٧٦٧هـ/١٣٦٥م صدى هائلٌ في العالم الإسلامي بأسره لعظم المصيبة وضخامة الخسارة لكونها الحملة الصليبية الكبرى الأولى بعد توقف دام أكثر من قرن من الزمان، فأثارت هذه الحملة ردود أفعال مختلفة في المشرق والمغرب الإسلاميين.

ففي مصر والشام *أصدر يلبغا الخاصكي مرسوماً يقضي بتغريم النصارى بربع أموالهم ليستعين بها على إصلاح ما خربه الفرنج بالإسكندرية وإعداد أسطول كبير يتم به غزو قبرص للانتقام منها كما قبض يلبغا على جميع النصارى وألزمهم حمل المال لافتداء أسرى المسلمين*[2]،

---

[1]- النويري السكندراني: الإلمام بالإعلام، ج٢، ص١٤٤، ١٤٥.

[2]- ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٨، ص٧٠٧. المقريزي: السلوك، ج٣، ص١٠٧. ابن العماد: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج٨، ص٣٥٧.

وكذلك لجأت السلطنة المملوكية إلى إغلاق كنيسة القيامة في بيت المقدس في محاولة للضغط على النصارى الأوربيين لإطلاق سراح الأسرى المسلمين، ولكي يكفوا عن المشاركة في حملات صليبية جديدة[1]، وأمر يلبغا الخاصكي ببناء المراكب والسفن، وأرسل إلى الشام يأمر بتشغيل كل من يعرف أن يمسك منشاراً في قطع الأخشاب وبناء السفن، فبنى أسطولاً كبيراً في جزيرة أروى المعروفة بالجزيرة الوسطى[2]، ويشير النويري إلى أن مصر استطاعت في عام واحد بناء مئة مركب[3].

أما في العراق وفارس *فإن الخان المغولي أويس بن الشيخ حسن برزج (العظيم) سلطان الدولة الجلائرية المغولية حينما بلغه خبر تلك المذبحة تألم ألماً كبيراً، فقبض على طائفة من تجار الفرنج كان قد سمح لهم ببيع ما حملوه من أقمشة في مدينة (تبريز)[4]، فقام بمصادرة أموالهم وقتلهم عن آخرهم انتقاماً لأعمال الحملة، كما رفض الهدايا من تجار آخرين أرسلهم ملوكهم*

---

[1]- المقريزي: المصدر نفسه، ج٣، ص١١٩. سرور: دولة بني قلاوون في مصر، ص٢٥١.

[2] – سميت بالجزيرة الوسطى لوقوعها في النيل بين الروضة وبولاق، وبين بر القاهرة وبر الجيزة، ويبدو أن الماء قد انحسر عنها بعد سنة ٧٠٠هـ/ ١٣٠٠م. المقريزي: السلوك، ج٣، ص١٢٠. المقريزي: السلوك، ج٣، ص١٢٠. المقريزي: الخطط، ج٢، ص٨٠٧.

[3]- ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١١، ص٢٥. ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٨، ص٧٠٧. النويري السكندراني: الإلمام بالإعلام، ج٣، ص٢٣١.

[4] – تبريز: هي إحدى مدن جمهورية إيران الإسلامية، وهي مدينة عامرة حسناء في وسطها عدة أنهار جارية والبساتين محيطة بها، أصبحت تبريز عاصمة مغول إيران حتى نهاية أسرة هولاكو. ياقوت الحموي: معجم البلدان، مج٢، ص١٣. أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٤٠١. ابن أجا: العراك بين المماليك والعثمانيين الأتراك مع رحلة الأمير يشبك بن مهدي الدوادار، ص١١٣. مؤنس (حسين): أطلس تاريخ الإسلام، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، ط١، ١٩٨٧م، ص٢٤٢.

للسماح لهم بالمتاجرة في العراق، وطلب منهم ألا يعودوا للتجارة في العراق حتى يدخلوا في طاعة سلطان مصر[1].

وأما عن ردة الفعل في المغرب الإسلامي:

فلم يجد المسلمون في الأندلس وسيلة للتعبير عن غضبهم إلا الإغارة على جيرانهم المسيحيين في مدينة (جيان)[2] *التابعة لملك قشتالة رغم الاتفاقات المبرمة معهم، فقد تنادى مسلمو الأندلس (يالثارات أهل الإسكندرية)، وهذا يدل على صدق موجة الغضب التي أثارتها حملة القبارصة على مصر*[3]*، وفي نفس عام الحملة توجه ملك قبرص لمدينة العلايا*[4] *لعدم دفعها ما يترتب عليها إلى القبارصة حسب الاتفاق بين الطرفين، فهزمه أهل المدينة، وأرسل أميرها خبر انتصاره على الملك بطرس إلى السلطان الأشرف شعبان مواساة لما حل بمدينته*[5].

---

[1]– النويري: المصدر نفسه، ج٥، ص٢٣١، ٢٣٢. العبادي وسالم: تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام، ص٣١٨، ٣١٩.

[2] – مدينة جيان: هي من أعظم مدن إسبانيا وأكثرها خصوبة وحصانة، تقع بين غرناطة وطليطلة ومرسية، تبعد عن قرطبة باتجاه الشرق سبعة عشر فرسخاً. ياقوت الحموي: معجم البلدان، مج٢، ص١٩٥. أبو الفداء: تقويم البلدان، ص١٧٦، ١٧٧.

[3]– القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ج٦، ص٥٥١، ٥٥٢. ابن خلدون (عبد الرحمن): التعريف بابن خلدون ورحله شرقاً وغرباً، تحقيق: محمد بن تاويت الطنجي، القاهرة، ١٩٥١م، ص١٩٢.

[4]– مدينة العلايا: تقع جنوب انطاكية على دخلة من بحر الروم وهي كثيرة البساتين أنشأها علاء الدين أحد ملوك سلاجقة الروم فنسبت إليه. أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٣٨١.

[5]– ابن قاضي شهبه: تاريخ ابن قاضي شهبه، مج٣، ج٢، ص٢٧٦.

أما فيما يتعلق بالعالم الغربي:

فقد قابل انتصار الحملة بردود فعل مختلفة، فالبنادقة أرسلوا سفراءهم إلى السلطان المملوكي معلنين استنكارهم للحملة وأنه لم يكن لهم يد في الأمر متوسلين إليه إعادة السلام والصداقة والعلاقات التجارية بين الطرفين[1].

أما موقف البابوية، فكان متأرجحاً بين تهنئة الملك بطرس وتشجيعه على إعداد حملة صليبية جديدة وبين الموافقة على مطالب الإيطاليين لإعادة السلام مع السلطنة المملوكية[2]، ولكن السلطان رفض التوصل لأي سلم مع الدول المسيحية، وعد نفسه في حالة حرب مع قبرص، فما كان من البنادقة إلا أن حثوا الملك بطرس على الشروع بمفاوضات مع المماليك[3].

وفي نفس الوقت كان بطرس يخطط سنة ٧٦٨هـ/١٣٦٦م بمهاجمة ميناء بيروت أكبر موانئ الشام، لكنه أحجم بسبب ضغط الإيطاليين عليه وقصور موارده كذلك، وخضع لهم بطرس بسبب مساعدتهم له أثناء حملته على مدينة الإسكندرية[4]، والواقع أن بطرس شرع في إجراء المفاوضات مع السلطنة المملوكية واشترك فيها بصورة مباشرة أصحاب المصالح التجارية من إيطاليا وكاتالونيا غير أن كلا الجانبين بلغت بهما المرارة والعداوة أنهما لم يرغبا في الصلح، فالأمير يلبغا الخاصكي ظل يراوغ لكسب الوقت حتى يتيسر له بناء أسطول لغزو قبرص، أما الملك بطرس فقد تغالى في طلباته عندما أراد من المماليك التخلي عن بيت المقدس، وكذلك أشار إلى

---

[1]- النويري السكندراني: المصدر السابق، ج٣، ص٢٣٢. طقوش: تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، ص٣١٦. سالم: تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي، ص٣٤٨، ٣٤٩.

[2]- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج٣، ق٢، ص٧٤٩.

[3]- سرور: دولة بني قلاوون في مصر، ص٢٥٢.

[4]- المقريزي: السلوك، ج٣، ص١١٨، ١١٩ -١٢٢، ١٢٣. عاشور: قبرص والحروب الصليبية، ص٧١. هايد: تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، ج٢، ص٢٨٦.

ضريبة الحج إلى بيت المقدس التي يفرضها المماليك على المسيحيين[1]، لكن الملك بطرس بعد أن قام بتسريح جيشه من الأغراب، ولم يعد لديه أمل حقيقي في تلقي مساعدات من الغرب، أرسل ثلاثة مندوبين عنه إلى مصر للتفاوض، فطلب السلطان إطلاق سراح الأسرى المسلمين، فاستجاب بطرس لطلب السلطان وبعث الأسرى إلى مصر بصحبة (بول دي بيلونيا) وهو أحد القطالونيين الذين دخلوا في خط المفاوضات بين المماليك والقبارصة وكان ذلك في ذي القعدة سنة ٧٦٨هـ/تموز ١٣٦٧م[2].

ومن أهم ردود الفعل ونتائج الحملة مقتل الملك بطرس دي لوزينيان على يد المتآمرين والمتمردين من أمرائه، وذلك سنة ٧٧١هـ/١٣٦٩م، ويعد قتله رد فعل لسياسته في الجزيرة، وذلك لما قام به من حروب ضد العرب المسلمين في الشرق وما سبقتها من جولات في الغرب، وهذا ما كلفه الشيء الكثير، ودفعه ذلك إلى أن أباح لمواطنيه شراء الإعفاءات من ضريبة الرؤوس، إضافة لمظاهر السخط والغضب على سياسته، ومنها ديونه الكبيرة وإجباره لباروناته على أداء الخدمة العسكرية لمدد مفرطة الطول وفرضه ضرائب ضخمة وتقريبه للفرنسيين الذين فتكوا في حريم الجزيرة، وهذا ما عارضه الأساقفة والقسيسون إضافة لأمور عدة أدت لنقمة أهل الجزيرة عليه وقتله[3]، وبعد موته بعام انعقدت اتفاقية صلح بين المماليك وقبرص، ومع ذلك لم تكن هذه الاتفاقية إلا صلحاً مؤقتاً أو بمنزلة هدنة مسلحة، وتم تبادل الأسرى بين الطرفين،

[1]- ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١١، ص٢٥، ٢٦. رنسيمان: المرجع السابق، ج٣، ق٢، ص٧٥٠.

[2]- ابن قاضي شهبه: المصدر السابق، مج٣، ج٢، ص٢٧٧-٢٩١، ٢٩٢. المقريزي: السلوك، ج٣، ص١٢٢، ١٢٣. أبو عليان: مسيرة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين في عهد المماليك، ص١١٨.

[3]- النويري: الإلمام بالإعلام، ج٣، ص٨٢-٨٦.

وكذلك أرسل دوق البندقية وهو يومئذ (ماركو كوكوناردوا) إلى السلطان المملوكي سفارة وهدايا فخمة، واعتذر البنادقة عن فعلتهم، وعاد التفاهم بين الدولتين[1].

وهكذا نرى أن الحملة الصليبية القبرصية قد أخفقت في تحقيق هدفها المعلن عنه، وهو استرجاع بيت المقدس، وأما عن هدفها الحقيقي الذي هو تحقيق منافع اقتصادية لقبرص فإن الهدف لم يتوج بالنجاح أيضاً بسبب مواجهة الملك بطرس لقوى مسيحية أخرى تتعارض مصالحها مع مصالحه وعلى رأسها (البندقية)، وعلى الرغم من أن الحملة القبرصية أضعفت مدينة الإسكندرية، فإنها لم تتسبب بإضعاف الدولة المملوكية بالقدر الذي فكر فيه بطرس، بل كانت على العكس سبباً في اتخاذ الإجراءات العنيفة بحق المسيحيين الشرقيين المقيمين في دولة المماليك في مصر والشام، ثم إن هذه الحملة تعد آخر الحملات الصليبية (الفرنجية) الخطيرة الموجهة مباشرة ضد المماليك.

خامساً– استمرار الاعتداءات الصليبية على سواحل السلطنة المملوكية بعد حملة القبارصة على الإسكندرية ورد فعل المماليك عليها:

تعد حملة بطرس الأول دي لوزينيان على الإسكندرية آخر الحملات الصليبية (الفرنجية) الكبرى على الشرق العربي الإسلامي في العصر المملوكي، لكنها لم تكن آخر تحرك صليبي موجه نحو المسلمين، *فقد قام الفرنج بعدة تحركات بعد حملة القبارصة على مدينة الإسكندرية، إلا أنه لم يكن لها الصدى أو الأثر الذي أحدثته هذه الحملة، وحاول الفرنج بعد أن اتضحت نية السلطان المملوكي في القيام بعمل انتقامي أن يهادنوه، فأرسلوا وفداً للمفاوضة في تجديد الصلح، وفتح كنيسة القيامة في بيت المقدس، ولكن الأمير يلبغا رفض مطالبهم، وأصر على أن يبدأ ملك*

---

[1]– عنان (محمد عبد الله): مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط١، ١٩٣١م، ص١٧٠. رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج٣، ق٢، ص٧٥٠.

قبرص بطلب الصلح، وعندما شعر بطرس بابتعاد الصليبيين عنه وتنكرهم لما قام به من اعتداء على الإسكندرية استجاب لطلب الأمير يلبغا، وأرسل وفداً عنه إلى مصر محملاً بالهدايا في محاولة للوصول إلى اتفاق ودي مع المماليك، فطلب السلطان إطلاق سراح الأسرى المسلمين، فاستجاب بطرس لطلب السلطان، وأرسل ما تبقى من الأسرى المسلمين الذين وقعوا في قبضته[1]، لكن المماليك لم يكونوا جادين في عقد صلح مع القبارصة؛ إذ كان هدفهم الاستيلاء على قبرص لإنهاء الوجود الصليبي الذي اتخذ من هذه الجزيرة قاعدة للهجوم على الموانئ الإسلامية، وعندما شعر الملك بطرس بالمماطلة من جانب المماليك أخذ يشن هجمات جديدة على سواحل مصر وبلاد الشام في أثناء مفاوضاته مع المماليك في محاولة منه لإجبارهم على قبول الصلح[2]، ففي أواخر محرم سنة ٧٦٨هـ/ تشرين الثاني ١٣٦٦م جهز بطرس أسطولاً حربياً عدته مئة وست عشرة سفينة للإغارة على طرابلس الشام، غير أن عاصفة شديدة فصلت وحدات هذا الأسطول بعضها عن بعض، فلم يصل منه إلى طرابلس سوى خمس عشرة سفينة أطلق رجالها يد النهب في المدينة، ثم عادوا إلى قبرص[3].

ويبدو أن تلك الحملة رغم فشلها ألانت بعض الشيء تصميم السلطان على رفض الصلح مع القبارصة فوافق السلطان على بدء المفاوضات، ولكنه لم يلبث أن عدل عن ذلك بحجة عدم رضاه عن بعض شروط الصلح، وعندئذ عقد بطرس العزم على ممارسة الضغط على الدولة المملوكية من جديد[4] فجهز أسطولاً ضخماً بلغ عدده ما يزيد على مئة وثلاثين قطعة بما فيه من

---

[1]- النويري السكندراني: الإلمام بالإعلام، ج٣، ص٢٣٢، ٢٣٣، ٢٣٤. سالم: طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي، ص٣٤٦، ٣٤٧. سرور: دولة بني قلاوون، ص٢٥٢.

[2]- سالم: تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي، ص٣٦٠.

[3]- ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٨، ص٧٨٤. النويري السكندراني: المصدر السابق، ج٣، ص٦٧.

[4]- عاشور: قبرص و الحروب الصليبية، ص٧٣.

الزوارق والنقالات وأبحر به إلى طرابلس في سنة ٧٦٩هـ/ ١٣٦٧م، وكانت تضم هذه الحملة البحرية عناصر مختلفة من أهالي قبرص وجنوه والبندقية وكريت ورودس ومن الفرنسيين والهنغاريين بلغ عددها ستة عشر ألف مقاتل منهم ألف فارس والباقية رجالة[1]، وكان للبنادقة في هذه الحملة ثلاثون غراباً، وللجنوية عشرون، وللروادسة عشرة وللأغراب خمسة عشر، والبقية من قبرص، وقاد بطرس الأسطول بنفسه، وشاركه صاحب جزيرة رودس رئيس الفرسان الإسبتارية، واتجه بهم إلى ميناء طرابلس، وكان نائبها ومعظم حاميتها غائبين عنها في ذلك اليوم الذي وصل فيه بطرس[2]، فتصدى لهم جماعة من أهل طرابلس، ومن بقي من عسكرها، وقاتلهم العرب المسلمون قتالاً شديداً، إلا أن الصليبيين (الفرنجة) تمكنوا من اقتحام المدينة، ونهبوا أسواقها، فتحايل المسلمون عليهم، واشتدوا في قتالهم حتى أخرجوهم بعدما قتلوا منهم ألفاً، واستشهد من المسلمين نحو أربعين رجلاً، فركب الفرنج سفنهم وانقلبوا خائبين[3].

وعندما كان الملك بطرس يهم بركوب سفينته عند انسحابه من طرابلس لحق به مجاهد من أهل طرابلس، فرمى بنفسه عليه في البحر، وأخذ يضربه بالسيف مرات عدة فأصابه بجروح كثيرة حصل له منها الألم الكبير، ولم يخلصه من الموت سوى جماعة من فرسانه أسرعوا لنجدته، وقتلوا المسلم بسيوفهم، فرحم الله هذا المجاهد البطل وأسكنه فسيح جنانه[4]، وحاول الصليبيون تعويض خسارتهم في طرابلس بغزو بعض مدن الساحل السوري، فرسوا في جبلة بغية غزوها إلا

---

[1]- ابن كثير: الاجتهاد في طلب الجهاد، ص٩. ابن العراقي: الذيل على العبر في خبر من عبر، ص٢٣٣. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج١١، ص٤٢.

[2]- ابن قاضي شهبه: تاريخ ابن قاضي شهبه، مج٣، ج٢، ص٣٠٨، ٣٠٩. المقريزي: السلوك، ج٣، ص١٥٠. سالم: طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي، ص٣٤٨.

[3]- ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١١، ص٤٢. المقريزي: السلوك، ج٣، ص١٤٩، ١٥٠. ابن كثير: الاجتهاد في طلب الجهاد، ص٩. ابن العماد: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج٨، ص٣٦٦.

[4]- عبادي وسالم: تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام، ص٣٢٧.

أن ريحاً عاصفة فرقت سفنهم، ومنعتهم من النزول على أرضها، فاتجهوا إلى اللاذقية للإغارة عليها، لكن المدينة استعصت عليهم بسبب مناعة تحصيناتها ووجود سلسلة في الميناء كسرت عدداً من سفنهم فضلاً عن الريح الشديدة التي أغرقت ثلاثاً من سفنهم، وساقت رابعة إلى طرابلس كان بها كثير من المعدات الحربية والمؤن التي غنموها من مدينة طرابلس، فعادت لأصحابها المسلمين[1]، وهاجم بطرس بعد ذلك مدينة بانياس فأخلاها أهلها، وأحرقها إلا أن الجيش العربي الإسلامي المحاذي لمراكبه في البحر أدركوه فقتلوا من الفرنج الكثيرين[2]، ثم اتجه بطرس للإغارة على ميناء إياس[3]، وكانت تدين بالطاعة لسلطان المماليك، فأنزل جيشه ومعداته بها، وأطلقت قواته يدها في نهب المدينة، وبينما هم في ذلك إذ قدم الأمير منكلي بغا نائب حلب على رأس القوات العربية الإسلامية التي اندفعت على ملك قبرص وجنوده كالسيل، ووضعت فيهم السيف، فلم ينج منهم أحد إلا من ولّى هارباً إلى المراكب، وكان ملك قبرص من بين الناجين، فغادر إلى بلاده وهو يجر أذيال الهزيمة[4].

ورد المماليك على تلك الغارات العدوانية على مدن سواحلهم بأن كلف السلطان الأشرف شعبان قائداً بحرياً من قواده وهو رئيس دار الصناعة بالإسكندرية الرايس إبراهيم التازي بالإغارة على جزر العدو، وفي يوم الأحد ٢٩ رجب سنة ٧٦٩هـ/٢٧ آذار ١٣٦٨م أقلع التازي من ثغر

---

[1] – سرور: دولة بني قلاوون في مصر، ص٢٥٥. سالم: طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي، ص٢٤٩، ٢٥٠.

[2] – عبادي وسالم: المرجع السابق، ص ٣٢٧.

[3] – إياس: مدينة على شاطئ البحر المتوسط، يوجد فيها ميناء حسن، ذكرها أبو الفداء في إقليم الشام، ولكنها أصبحت من موانئ مملكة أرمينيا الصغرى، وتعود أهميتها لكونها مجمعاً عظيماً لتجار البر والبحر وأضحى ميناؤها الممون الرئيسي للتجارة.

أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٢٤٩.

[4] – ابن العراقي: المصدر السابق، ص٢٣٣. ابن قاضي شهبه: المصدر السابق، مج٣، ج٢، ص٣٠٩. ابن كثير: الاجتهاد في طلب الجهاد، ص١٠، ١١.

الإسكندرية في مركبين حربيين بصحبته خمسمئة مقاتل مسلحٍ متجهاً إلى جزيرة قبرص وما يجاورها من جزر، فغنم سفينة بقلمين للعدو أرسلها إلى مدينة الإسكندرية بعد أن حجز معه رجالها، واستمر التازي في غاراته ثلاثة وعشرين يوماً عاد بعدها محملاً بالغنائم والأسرى، فسر أهل الإسكندرية لقدومه سروراً عظيماً، وماجت بأهلها ساعة وصوله[1]، وظلت العلاقات متوترة بين المماليك وجزيرة قبرص إلى أن ذهب بطرس الأول ضحية المؤامرة التي دبرها نبلاؤه سنة ٧٧١هـ/١٣٦٩م، غير أن ذلك لم يؤثر في تغيير السياسة العدائية التي انتهجها الصليبيون والقبارصة وحلفاؤهم في حوض البحر المتوسط ضد المسلمين ودولة المماليك[2]، فقد واصل الملك بطرس الثاني الذي تولى عرش قبرص سنة (٧٧١-٧٨٤هـ/١٣٦٩-١٣٨٢م) شن الغارات على سواحل مصر وبلاد الشام؛ إذ أرسل حملة بحرية في السنة الأولى من حكمه إلى ساحل سورية تألفت من أربع سفن، فأوقعت التخريب في موانئ صيدا والبترون وأنطرطوس واللاذقية، وبعد أن مونت هذه السفن من أرمينيا في الشهر التالي أبحرت باتجاه الإسكندرية، وعندما وصلتها، ورست في مياهها أرسل قائدها إلى نائب الإسكندرية يسأله فيما إذا كان السلطان يرغب في الاتفاق أم لا فأجابه بالنفي، في الوقت الذي وجه فيه القوات الإسلامية لمحاربتهم فقتلت منهم نحو المئة، وغنمت منهم مركباً، فانسحب الصليبيون (الفرنجة) باتجاه ميناء رشيد محاولين النزول إلى بر المدينة إلا أنهم لم يستطيعوا بسبب الرياح العاتية، فارتدوا إلى الساحل

---

[1]- المقريزي: السلوك، ج٣، ص١٥٣، ١٥٤. سالم: تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي، ص٣٦٣. عاشور: قبرص والحروب الصليبية، ص٧٩.

[2]- النويري السكندراني: الإلمام بالإعلام، ج٣، ص٨٢. ابن قاضي شهبه: تاريخ ابن قاضي شهبه، مج٣، ج٢، ص٣٤٨.

الشامي، حيث أغاروا على صيدا إلا أن القوات العربية الإسلامية المرابطة فيها كانت لهم بالمرصاد مما جعلهم يعودون أدراجهم خائبين في مسعاهم[1].

وقد رأى سلطان المماليك بعد أن افتقرت دولته، وقلت إيراداتها من جراء تعطيل تجارتها مع الصليبيين وما حل بها من الوباء والمجاعة أنه من مصلحة دولته عقد صلح مع ملك قبرص بطرس الثاني، فتم عقد هذا الصلح في سنة ٧٧٢هـ/١٣٧٠م، وما لبث الفرنج بعد ذلك أن بعثوا إلى السلطان بالأسرى الذين كانوا في بلادهم، وأعيد فتح كنيسة القيامة للحجاج المسيحيين، كما استعاد المسيحيون في مصر وبلاد الشام حريتهم[2]، وعلى الرغم من هذا الصلح فإن الصليبيين (الفرنجة) لم يتوقفوا عن شن الهجمات على سواحل مصر وبلاد الشام، وكان سبب ذلك التنافس التجاري بين البنادقة والجنويين، فقد تمكنت البندقية من السيطرة على معظم النشاط التجاري في البحر المتوسط، وهذا ما دفع الجنوية إلى الإغارة على سواحل الدولة المملوكية بالاشتراك مع بعض القراصنة من الكتيلان والرودسية والقبارصة، ففي سنة ٧٨٠هـ/١٣٧٨م أغار الجنوية على ساحل طرابلس إلا أن نائبها الأمير يلبغا الناصري تصدى لهم على رأس قواته، وقتل عدداً منهم، ففروا منهزمين[3]، وفي جمادى الثانية سنة ٧٨٥هـ/آب ١٣٨٣م أغارت سفن الجنوية على ثغر صيدا، ونزلوا في البر، ودخلوا المدينة، وعاثوا فيها فساداً، ثم توجهت سفنهم بعد ذلك إلى بيروت إلا أن العساكر الشامية التي سبقتهم إليها منعتهم من النزول على برها، فارتدوا بسفنهم خائبين إلى قبرص، وبعد أيام عدة عاد الجنوية وأغاروا على بيروت، ورفعوا علمهم فيها

---

[1]- المقريزي: السلوك، ج٣، ص١٧٣-١٧٦. سرور: دولة بني قلاوون في مصر، ص٢٥٧.

[2]- ابن قاضي شهبه: المصدر السابق، مج٣، ج٢، ص٣٨٠-٣٨٢. المقريزي: السلوك، ج٣، ص١٩١.

[3]- ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر بأبناء العمر في التاريخ، ج١، ص٢٦٨. عاشور: العصر المماليكي في مصر والشام، ص٢٧٨. سالم: طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي، ص٣٥١، ٣٥٢.

غير أن القوات العربية الإسلامية بقيادة الأمير سيف الدين يحيى من آل بحتر تمكنت من قهرهم وإسقاط علمهم، فانهزم الجنوية، وقُتل منهم عدد كبير[1].

واستمرت الاعتداءات الجنوية على سواحل السلطنة المملوكية، وهذا ما دفع السلطان برقوق إلى تكليف الأمير طنبغا الجوباني سنة ٧٨٦هـ/ ١٣٨٤م ببناء أغربة و شواني لغزو الجنوية في بحر الروم، غير أن هذا الأسطول قبل أن يبحر إلى مياه جنوه اشتبك مع مراكب عدة على مقربة من ساحل دمياط سنة ٧٨٧هـ/ ١٣٨٥م وبعد قتال شديد استطاع الأسطول المملوكي هزيمة المراكب الجنوية بعد أن قتل منهم عدداً كبيراً، وأسروا نحو خمسمئة وثلاثين شخصاً[2]، على أن أعمال القرصنة من جانب الجنوية لم تمنع بعض تجارهم وقناصلتهم من الحصول على ارتباطات تجارية مع السلطنة المملوكية، ومن خلال هذه الارتباطات وحرصاً عليها عمل بعضهم على مصالحة السلطان برقوق والتقرب إليه بالهدايا، وعلى الرغم من مبادرة الجنوية إلى المصالحة مع السلطان المملوكي سنة ٧٨٨هـ/ ١٣٨٦م فقد عادوا إلى الاعتداء على سفن السلطنة المملوكية في البحر، وأغار بعض قراصنتهم على طرابلس سنة ٧٨٩هـ/١٣٨٧م، غير أن القوات العربية الإسلامية المرابطة فيها، التي خبرت خططهم وأساليبهم القتالية في البحر تمكنت من هزيمتهم، وغنمت منهم ثلاثة مراكب بعد أن قتلت منهم أعداداً كثيرة[3]، وفي سنة٧٩٠هـ/١٣٨٨م اعتدت مجموعة من قراصنة الجنوية على جماعة من تجار السلطان برقوق قادمة من المياه الشامية في مراكب مشحونة بالجراكسة الذين جلبوا من بلادهم، ومن بين هؤلاء الجراكسة أخت السلطان

---

[1]- صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص٣٠-٣٢. القلقشندي: مآثر الإنافة في معالم الخلافة، ج٢، ص١٨٨. عبد السيد: قيام دولة المماليك الثانية، ص١٤٩، ١٥٠. الزين: تاريخ صيدا، ص٦١.

[2]- ابن حجر العسقلاني: المصدر السابق، ج٢، ص١٨٧.

[3]- الصيرفي: نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، ج١، ص١٥٢. المقريزي: السلوك، ج٣، ص٥٦٣-٥٦٢.

برقوق وجماعة من أقاربه، وقد أسروا جميعهم، فأمر السلطان برقوق نواب البلاد الساحلية بالقبض على كل من عندهم من الفرنج وبمصادرة أموالهم وممتلكاتهم وأمتعتهم، الأمر الذي أجبر الجنوية على إطلاق سراح من أسروه من المسلمين، فأطلق السلطان أسرى الفرنج، وأعاد لهم أموالهم وممتلكاتهم[1].

وفي سنة ٧٩٢هـ/١٣٩٠م هاجم أسطول صليبي مكون من اثنتي عشرة سفينة جنوية وثلاث من صقلية وخمس من بيزا ميناء طرابلس، وحين أشرفوا على الميناء هبت عليهم عاصفة شديدة أغرقت مركباً منهم، واضطرت البقية إلى الانسحاب بعد أن تكبدوا خسائر فادحة[2]، وفي سنة ٧٩٥هـ/١٣٩٣م أغار الجنوية بأربع سفن على ناحية (نستروة) غربي بحيرة البرلس على الساحل الرملي الفاصل بين البحر المتوسط وبحيرة البرلس في مصر، فسبوا، ونهبوا، واستمروا فيها ثلاثة أيام، وعندما سمعوا بوصول القوات المملوكية فروا هاربين في عرض البحر[3]، واستمرت العلاقة بين سلطنة المماليك وجمهورية جنوه تتأرجح بين الصلح حيناً والعداء والحرب حيناً آخر، وقد حدث سنة ٨٠٣هـ/١٤٠٠م أن توجهت ستة مراكب محملة بالقمح من ميناء دمياط إلى سواحل الشام لتباع فيها بسبب ما أصابها من قحط وغلاء نتيجة اجتياح تيمورلنك لها، فتعرضت هذه المراكب إلى القرصنة من قبل الفرنج في البحر، فهب عدد من الأمراء الذين توزعوا في الثغور لنجدتها، وفي سنة ٨٠٤هـ/١٤٠١م أغار الجنوية على طرابلس، واستولوا على سفينتين كانتا في طريقهما إلى مصر تحملان قدراً كبيراً من البضائع، ثم حاولوا التوغل في إحدى القرى الداخلية، إلا أن الأهالي في تلك المنطقة تمكنوا من التصدي لهم وأسروا عدداً

---

[1]- ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ج٩، ق١، ص٢٣. ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر بأبناء العمر في التاريخ، ج٢، ص٢٨٧.

[2]- الصيرفي: المصدر السابق، ج١، ص٣١٢. المقريزي: السلوك، ج٣، ص٦٥١، ٦٥٢.

[3]- ابن حجر العسقلاني: المصدر السابق، ج٣، ص١٦٠.

منهم[1]، وبعد ذلك بعامين أعد حاكم جنوه قوة بحرية كبيرة بالتحالف مع الروادسة والقبارصة، واعتزم ضرب مدينة الإسكندرية ولكن حملته سنة ٨٠٦هـ/١٤٠٣م باءت بالفشل بسبب الاحتياطات التي اتخذها السلطان المملوكي فرج بن برقوق (٨٠١ -٨١٥هـ /١٣٩٩-١٤١٢م)[2]، فعاد الأسطول الصليبي (الفرنجي) أدراجه من حيث أتى دون أن يتمكن من احتلال المدينة، ولم تجنِ جنوه من وراء هذه الحملة سوى ما نشب من قتال في شوارع المدينة مع تجار الفرنج وكذلك فشلها في إعادة تجارتها بصفة رسمية مع دولة المماليك[3]، وعلى الرغم من هذه الخسائر والمصائب التي ألمت بالأسطول الجنوي ورعاياها من التجار في المدن المملوكية، فقد استمر الجنويون في شن هجماتهم على سواحل دولة المماليك، فهاجم الجنويون مدينة طرابلس بأسطول مؤلف من أربعين سفينة، فنزلوا إلى برها، وعندما بلغ ذلك نائب الشام شيخ الخاصكي نهض إليهم مسرعاً، فأوقع بهم، وانهزموا إلى مراكبهم[4]، وبعد أن حلت الهزيمة بالأسطول الجنوي على يد المماليك في ميناء طرابلس توجهوا إلى ثغر بيروت حيث تمكنوا من اقتحام المدينة بسهولة لعدم وجود ما يكفي من قوات عسكرية للدفاع عنها، ولكن عندما قدم أمير المدينة دمرداش المحمدي على رأس قواته استطاع طردهم من المدينة بعد أن خاض معهم معركة قتل فيها عدد من الطرفين وجرح الكثير، وعندما وصل نائب الشام بعساكره لنجدة أهل بيروت

---

[1]- المقريزي: السلوك، ج٣، ق٣، ص١٠٥٩- ١٠٧٩.

[2]- الصيرفي: نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، ج٢، ص١٧٩. عبد السيد: قيام دولة المماليك الثانية، ص١٥٢. دراج (أحمد): المماليك و الفرنج في القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٦١م، ص٢٢.

[3]- الصيرفي: المصدر نفسه، ج٢، ص١٧٩. عبد السيد: المرجع نفسه، ص١٥٢. دراج: المرجع نفسه، ص٢٢.

[4]- صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص٣٣. الصيرفي: المصدر نفسه، ج٢، ص١٧٩.

كان الجنوية قد أقلعوا بمراكبهم في عرض البحر وتوجهوا إلى صيدا[1]، فتوجه نائب الشام على رأس قواته مسرعاً إلى صيدا، وعندما وصل إليها حمل على الجنوية الذين كانوا قد نزلوا إلى برها ودخلوا في معركة مع جموع المسلمين، فاستطاع نائب الشام كسر الفرنج وإحلال الهزيمة بهم مما اضطرهم للانسحاب والعودة إلى مراكبهم[2].

وإن هذه الهزائم المتتالية التي لحقت بالقراصنة الجنويين وحلفائهم على يد السلطنة المملوكية جعلتهم يفكرون جدياً في السعي لعقد صلح مع دولة المماليك رغبة منهم في إعادة علاقاتهم مع سلطنة المماليك التي استطاعت تكبيد الجنويين خسائر فادحة في تجارتها في الحوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسط، وبالفعل تم عقد هذا الصلح سنة٨١٠هـ/١٤٠٧م بعد سلسلة من المفاوضات، وتعهدت جنوه في هذا الصلح بدفع مبلغ ثلاثين ألف دينار للسلطنة المملوكية تعويضاً عما أحدثته من خسائر في سواحلها وأنه إذا تكررت الغارات البحرية على سواحل دولة المماليك فإن الجنوية في مصر سيقبض عليهم جميعاً[3]، وإن هذا الصلح الذي أبرم بين دولة المماليك والجنوية دفع مدينة البندقية إلى الإسراع لعقد الصلح مع الدولة المملوكية سنة ٨١١هـ/١٤٠٨م لتحذو حذو جنوه في كسب ود السلطان المملوكي فرج بن برقوق لتحقيق مكاسب تجارية في الحوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسط، وشرط عليها السلطان شروطاً قاسية، وأخذ منها الضمانات الكافية لحماية رعاياه وبلاده من عبثها[4]، أما مملكة قبرص التي ظلت على عدائها مع السلطنة المملوكية فقد استمرت تشن هجماتها البحرية على سواحل مصر وبلاد الشام؛ ففي سنة ٨١٦هـ/١٤١٣م أغار القبارصة على بلدة الدامور الواقعة بين صيدا

---

[1]- صالح بن يحيى: المصدر نفسه، ص٣٣. ابن حجر العسقلاني: المصدر السابق، ج٥، ص١٣٣.

[2]- المقريزي: السلوك، ج٣، ق٣، ص١١١٤.

[3]- عبد السيد: قيام دولة المماليك الثانية، ص١٥٣.

[4]- أبو عليان: مسيرة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين في عهد المماليك، ص١٢٧.

وبيروت، فبادر الملك داوود الجركسي إلى النهوض إليهم من دمشق، وانضم إليه الأمير قاسم بن محمد بن أبي بكر بن حسين الشهابي أمير وادي التيم ولبنان برجاله[1]، وبادر لنجدتهم الأمير المؤيد شيخ المحمودي نائب السلطنة بدمشق، وكان آنذاك في مدينة بعلبك، فأسرع إلى بلدة الناعمة، واشتبك هو وعدد من الأمراء في معركة ضارية ضد الفرنج بعد أن دخلوا مدينة صيدا وبيروت، فتمكن من الانتصار عليهم بعد أن قتل منهم نحو سبعين شخصاً، وتم طردهم مع مراكبهم من الساحل الشامي[2]، وفي سنة ٨١٩هـ/ ١٤١٦م أغار الفرنج على ميناء يافا في أربعة أغربة، وأسروا ما يقارب الخمسين امرأة وطفلاً، إلا أن العرب المسلمين استطاعوا تحرير هؤلاء الأسرى بعد أن دخلوا في معركة تمكنوا من خلالها من طرد الفرنج من ميناء يافا بعد أن قتلوا وجرحوا منهم العديد[3]، وفي العام نفسه أغار الفرنج على ميناء الإسكندرية في ثمانية مراكب، وعزموا على أن يأخذوا الأمير صلاح الدين محمد الحاجب بن (ناظر الخاص)[4] مع عدد من الأعيان، وذلك عندما كان جالساً في ديوان الخمس لتحصيل المال، فاشتبك أهالي الإسكندرية مع الفرنج في معركة سقط فيها عدد من الطرفين بين قتيل وجريح، وعندما وصلت نجدة القاهرة بقيادة (الناظر الخاص) وبصحبته عدد من الأمراء والمطوعة إلى الإسكندرية هرب

---

[1] – الدويهي (البطريرك اسطفان): تاريخ الأزمنة، تحقيق: الأب فردنيان نوتل اليسوعي، بيروت،١٩٥١م، ص٢٠١. الشدياق (طنوس بن يوسف): أخبار الأعيان في جبل لبنان، بيروت، ١٩٥٤م، ج٢، ص٣٠٧.

[2] – العيني: السيف المهند في سيرة الملك المؤيد، ص ٢٢٨.

[3] – المقريزي: السلوك، ج٤، ق١، ص٣٥٧–٣٦١، ٣٦٢.

[4] – ناظر الخاص: هو الذي ينظر في خاص أموال السلطان، ويعد صاحب هذا المنصب كالوزير لقربه من السلطان، أحدث هذا المنصب السلطان الناصر محمد بن قلاوون. القلقشندي صبح الأعشى، ج٤، ص٣٠، ج٥، ص٤٦٦.

الفرنج بمراكبهم في عرض البحر، ومعهم عدد من أسرى المسلمين[1]، *وفي سنة ٨٢٥هـ/١٤٢٢م أغار الفرنج على ميناء الإسكندرية فوجدوا فيه مركباً للتجار يحمل من البضائع ما يزيد قيمته على مئة ألف دينار فحاولوا الاستيلاء عليه ونهبه، وهذا ما دفع الأهالي إلى الاشتباك مع الفرنج في معركة غير متكافئة على الصعيد البحري لعدم وجود المراكب الحربية لدى المسلمين في ذلك الوقت على هذا الميناء، ومضى الفرنج يتجولون على الساحل المصري بين برقة والإسكندرية، وأخذوا ما قدروا عليه، ثم انسحبوا نحو الشام*[2] .

وقد أدت هذه الغارات من قبل القبارصة وحلفائهم على سواحل مصر وبلاد الشام وما ألحقوه من تخريب وتدمير في ممتلكات الدولة المملوكية إلى قيام السلطان المملوكي الأشرف برسباي (٨٢٥-٨٤١هـ/١٤٢٢- ١٤٣٨م) بالرد على هذه السياسة العدوانية رداً حاسماً، ولن يكون ذلك بأقل من غزوها في عقر دارها، وهذا ما سوف نتحدث عنه في الفصل القادم بالتفصيل.

---

[1]- الصيرفي: نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، ج٢، ص٣٦٥. ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر بأبناء العمر في التاريخ، ج٧، ص٢١٤، ٢١٥.

[2]- المقريزي: السلوك، ج٤ ق٢، ص٦١٧. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج١٤، ص٨٦.

الفصل الثالث :

نشاط دولة المماليك الحربي في حوض البحر المتوسط ضد جزيرتي قبرص ورودس

أولاً: نشاط دولة المماليك الحربي ضد جزيرة قبرص:

١– لمحة جغرافية عن جزيرة قبرص:

قبل الحديث عن الجانب التاريخي لجزيرة قبرص لابد من التعرف على جغرافيتها وموقعها في البحر الأبيض المتوسط؛ إذ لا يمكننا الحديث عن تاريخ منطقة معينة قبل أن نتعرف على موقعها الجغرافي والطبيعي بشكل دقيق، فلا تاريخ من دون جغرافية.

تقع جزيرة قبرص في الإقليم الرابع في وسط الركن الشمالي الشرقي من البحر الأبيض المتوسط، في مكان التقاء القارات الثلاث (آسيا – أفريقيا – أوربا)[١]، وطولها إحدى وستون درجة وخمس عشرة دقيقة، وعرضها خمس وثلاثون درجة وثلاث عشرة دقيقة[٢]، ويبلغ طولها مئتي ميل من الشمال إلى الجنوب أما من الغرب إلى الشرق فيبلغ مئة ميل[٣] ومساحتها تبلغ ٩٢٥٠كم٢، لذلك فهي تحتل المرتبة الثالثة من حيث المساحة بين جزر البحر المتوسط بعد صقلية[٤] وسردينيا[٥] ثم إنها تكاد تكون على مسافة متعادلة بين بلاد الشام وآسيا الصغرى مما

---

[١] – الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مج٢، ص٦٤٣. المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص٥٤. البغدادي: مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، ص١٠٦٣. الجبرتي: عجائب الآثار في التراجم والأخبار، ج١، ص٥٧ حاشية (٣). حطيط (عدنان): قبرص ولعبة الأمم، بيروت، ٢٠٠٢م، ص٢٣.

[٢] – الحموي: معجم البلدان، ج٤، ص٣٠٥. القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ج٥، ص٣٧٠.

[٣] – أبو الفداء: تقويم البلدان، ص١٩٥.

[٤] – صقلية: إحدى جزر البحر المتوسط وتمتلك عدداً كبيراً من المدن الحصينة والمواقع الجميلة وهي جزيرة مثلثة الشكل يعني اسمها تيناً وزيتوناً. انظر: بورتشارد (راهب دير جبل صهيون): وصف بورتشارد راهب جبل صهيون للأرض المقدسة، الموسوعة الشامية، دار الفكر، ١٩٩٩م، ج٣٧، ص٢٧٦، ٢٧٧. شاكر (محمود): المسلمون في قبرص، منشورات العصر الحديث، ١٩٧٤م، ص٩.

[٥] – سردينيا: جزيرة في المغرب كبيرة فتحها المسلمون سنة ٩٢م بقيادة موسى بن نصير. انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٢، ص٢٠٩. البغدادي: مراصد الاطلاع، ج٢، ص٧٠٦. أبو الفداء: تقويم البلدان، ص١٩٥. القلقشندي: صبح الأعشى، ج٥، ص٣٧٠.

جعل مصيرها مرتبطاً أشد الارتباط بهذين البلدين، ولا يتطلب الأمر ممن يريد الوصول إلى هذه الجزيرة من المدن المطلة على شاطئ المتوسط (سوريا – مصر) أكثر من سفر يوم واحد[1].

وتتباين المظاهر التضاريسية فيها بشكل واضح، فقد تشكل في هذه الجزيرة عدد من المرتفعات الجبلية والأودية والسهول التي منحت الجزيرة منظراً خلاباً، وساعدت على نمو عددٍ من المحاصيل الزراعية مستفيدةً من خصوبة تربتها ووفرة مياهها ومناخها المتوسطي الذي هو صورة صادقة عن مناخ سواحل البحر الأبيض المتوسط والمناطق الساحلية[2].

وأما عن تسميتها، فقد سميت قديماً (آلاسيا)، وقد ذكرت هذه التسمية في نصوص تل العمارنة المصرية التي تعود للقرنين الثامن عشر والسابع عشر قبل الميلاد[3]، كذلك فإن تسميتها هي كلمة رومية تتوافق وتتطابق مع العربية القُبرس أي (النحاس الجيد)[4]، وقد استمدت الجزيرة اسمها هذا من المعدن الذي اكتشف في أراضي تلك الجزيرة وهو النحاس[5]، كما عرفت هذه

---

[1] – ابن خرداذبة (عبيد الله): المسالك والممالك، ليدن، ١٨٨٩م، ص٢٣١. القلقشندي: المصدر السابق، ج٥، ص٣٧٠. بورتشارد: المصدر نفسه، ج٣٧، ص ٢٩٨. بندس أشيل اميليا: تاريخ قبرص ماذا أعرف، شركة أتنرسيس للنشر قبرص مكتبة ريمون الجديدة، لبنان، ص٥. يحيى ومهنا: مشكلة قبرص، ص١٣.

[2] – الإصطخري (إبراهيم بن محمد الفارسي): المسالك والممالك، تحقيق: محمد الحيني، دار القلم، بيروت، ١٩٩١م، ص٥١. شاكر: المسلمون في قبرص، ص٩. بندس: تاريخ قبرص ماذا أعرف، ص٦. العبار (أحمد عبد اللطيف): مشكلة قبرص بين الماضي والحاضر وأثرها على الموقف الدولي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط٢، ١٩٥٦م، ص٧.

[3] – عتمان: تاريخ قبرص جزيرة الجمال والألم، ص٤٤.

[4] – الحموي: معجم البلدان، ج٤، ص٣٠٥.

[5] – شيخ الربوة (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي طالب الأنصاري): نخبة الدرر في عجائب البر والبحر، مطبعة الأكاديمية الإمبراطورية، بطربورغ، ١٨٦٥م، ص١٤٢. حطيط: المرجع السابق، ص٣٢. النحاس: cu هو فلز أحمر اللون قابل للسحب والطرق وهو ناقل جيد للحرارة والكهرباء، يوجد في باطن الأرض بحالة حرة

الجزيرة باسم جزيرة القديسين بسبب وجود عددٍ كبير من القديسين على أرضها وانتشار الرهبنة فيها التي بدأت منذ القرن الرابع الميلادي[1].

ويورد البكري (ت ٤٨٧هـ/١٠٩٤م) أيضاً أن هذه الجزيرة حملت اسم قبرص نسبة لمدينة هناك تدعى (قبرو)[2]، وقد أطلق على الجزيرة على مرّ الزمان كثير من التسميات منها قبرس باللغة التركية، وهذا يتطابق مع نطقه باللغة العربية وكذلك (كيبرو) كما ينطق باللغة اليونانية[3]،كما حملت تسمية سورية وهي (جيفرو)، وهذه التسمية تعني في القاموس السرياني: الظفر أو المخلب، وهذا هو حالها فهي كالمخلب الممتد صوب الساحل السوري ما بين اللاذقية وأنطاكية[4].

ومن أهم مدن جزيرة قبرص العاصمة (نيقوسيا أو ليفكوسيا)، وهي المدينة الرئيسية فيها[5]، وتعد هذه المدينة التي بناها البنادقة بمنزلة القلب من الجسد فهي تقع في قلب جزيرة قبرص.

و(ليماسول) التي تعد مدينة لطائفة الإسبتارية فرسان القديس يوحنا المعمدان، وتعد أيضاً مركزاً لفرسان الداوية.

أو بشكل معادن مختلفة، تستعمل أملاحه في مكافحة الحشرات الصادرة عن المزروعات وكسماد للتربة. أ بوسيف، أ. يفيموف: المنجد في الكيمياء، ترجمة: عيسى مسوح، دار موسكو، ١٩٨٧م، ص٣٧٣.

[1] – د.ق سبيريداكس: موجز تاريخ قبرص، ص٧٤-٩٠.

[2] – البكري (عبد الله بن عبد العزيز): المسالك والممالك، تحقيق: أدريان فان ليوفن، المؤسسة الوطنية لترجمة، دار العربية للكتاب، ١٩٩٢م، ص٢٠٣.

[3] – حطيط: قبرص ولعبة الأمم، ص٢٣.

[4] – أبو الفداء: تقويم البلدان، ص١٩٥. القلقشندي: المصدر السابق، ج٥، ص٣٧٠. داوود (أحمد): تاريخ سورية الحضاري، دار المشرق للطباعة والنشر، ٢٠٠٤م، ج٢، ص٢١٥.

[5] – فابري (فيليكس): جولات الراهب فيليكس فابري ورحلاته حوالي (١٤٨٠-١٤٨٣م)، الموسوعة الشامية، تأليف: سهيل زكار، دار الفكر، دمشق، ٢٠٠٠م، ج٢٨، ٣٠١.

و(فاماجوستا) مرفأ قبرص الرئيسي الذي يقع على ساحلها الجنوبي الشرقي، تحيط بها أسوار، بنيت في عهد البنادقة[1].

وبني في قبرص كثيرٌ من الكنائس والأديرة مما جعل منها متحفاً لحضارات البحر المتوسط كلها[2].

٢– لمحة تاريخية عن جزيرة قبرص منذ العصر الراشدي حتى فتحها على أيدي المماليك:

بعد أن بدأ نور الإسلام يشع خارج نطاق الجزيرة العربية، واتسعت دولة العرب المسلمين على حساب كل من الدولتين الفارسية والبيزنطية، أصبح لهم ثغور على سواحل البحار؛ فقد أدركوا أن نشر الإسلام لا يقتصر على البر فقط، بل لابد من خوض البحر، ومن هذا المنطلق ظهرت أهمية جزيرة قبرص بعد أن عقدوا النية على مهاجمة عاصمة الإمبراطورية البيزنطية التي كانت تغير عليهم باستمرار وتهدد أمنهم.

وكان أول من التفت إلى ذلك معاوية بن أبي سفيان والي الشام في عهد كل من الخليفة عمر ابن الخطاب وعثمان بن عفان[3]، وبما أن البحر المتوسط، ولعدة قرون، كان الجسر الذي فرضت بيزنطة سيطرتها عليه؛ فقد واجه معاوية مشكلة الدفاع عن الثغور البحرية لبلاد الشام ضد الهجمات البيزنطية، وفي سبيل ذلك قام بتسخير ما توفر لديه من إمكانيات من أجل إنشاء أسطول بحري يغزو به جزيرة قبرص وذلك لعدة أسباب:

أ. الدفاع عن ثغور الدولة العربية الإسلامية الناشئة لاسيما موانئ بلاد الشام ومصر وفلسطين من هجمات بيزنطة.

---

[1] – حاج مجهول من القرن الثاني عشر: رحلات غريبة (هذا هو الطريق إلى الأرض المقدسة)، الموسوعة الشامية، تحقيق وترجمة: سهيل زكار، دمشق، ١٩٩٩م، ج٣٧، ص٢٢. يحيى و مهنا: مشكلة قبرص، ص١٤.

[2] – الشابشتي (أبو الحسن): الديارات، تحقيق: كوركيس عواد، دار الرائد العربي، ط٣، ١٩٨٦ م، ٤٠٩.

[3] – البلاذري: فتوح البلدان، ص١٧٥.

ب. *الاستمرار بمسيرة الجهاد ضد الدولة البيزنطية*[1].

ج. *قرب قبرص من بلاد الشام حتى قيل في ذلك:* ((**إن قرية من قرى سواحل حمص ليسمع أهلها نباح كلبهم وصياح دجاجهم**))[2].

ومع كثرة إلحاح معاوية بن أبي سفيان على الخليفة عمر بن الخطاب من أجل ركوب البحر وغزو جزيرة قبرص، رغبة منه في متابعة الجهاد ونشر الإسلام في جزر هذا البحر وما يليه من الدول والممالك، استشار ابن الخطاب عمرو بن العاص وسأله عن البحر وأحواله؛ فجاء الجواب: ((**إني رأيت خلقاً كبيراً يركبه خلق صغير. ليس إلا السماء والماء. إن ركن خرق القلوب، وإن تحرك أزاغ العقول، يزداد فيه اليقين قله والشك كثره، هم فيه كدود على عود، إن مال غرق وإن نجا برق**)). *فلما قرأ الخليفة كتاب عمرو بن العاص قال:* ((**لا والذي بعث محمداً بالحق لا أحمل فيه مسلماً أبداً**))[3].

ومن أجل ذلك لم يكتب لمشروع معاوية النجاح حتى جاء عهد الخليفة عثمان بن عفان، حين استجاب لطلب معاوية في الغزو بحراً بعد أن اشترط عليه عدة شروط، أهمها:

أ- *ألا يجبر معاوية أحداً من المسلمين بالشام على ركوب البحر، فمن اختار الغزو طائعاً مختاراً ذهب، ومن أعرض عن ركوب البحر فلا حرج عليه*[4].

---

1 – عاشور: قبرس والحروب الصليبية، ص٥.

2 – ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج٢، ص٤٦٨، ٤٦٩. الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج٤، ص٢٥٨. بورتشارد: وصف بورتشارد راهب جبل صهيون، ج٣٧، ص٢٩٨.

3 – ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج٢، ص٤٨٦. الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ص٢٥٨، ٢٥٩. القرماني: أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ، مج٣، ص٤٧٧.

4 – ابن الأثير: المصدر نفسه، ج٢، ص٤٦٨.

ب- أن يصطحب المسلمون زوجاتهم معهم دل على ذلك قوله عندما أجاب معاوية بالقبول: ((**فإن ركبت البحر ومعك امرأتك فركبه مأذوناً لك وإلا فلا**)) ومثال على ذلك أن عبادة ابن الصامت اصطحب زوجته أم حرام بنت ملحان الأنصارية التي توفيت في قبرص.

وبعد أن استكمل معاوية استعداداته وحشد قواته وأساطيله في ميناء عكا خرجت أولى الحملات العربية الإسلامية البحرية بقيادته لفتح جزيرة قبرص سنة ٢٨هـ/٦٤٨م وكان ذلك بمشاركة العديد من أهالي الإسكندرية بقيادة عبد الله بن أبي سرح (والي مصر)، كما ضمت الحملة العديد من الصحابة، منهم ((أبو الدرداء – أبو ذر الغفاري – عبادة بن الصامت))[1].

وعندما وصلت الحملة إلى قبرص نجح معاوية في النزول على شواطئها بأمان، حينها أرسل إلى أهلها من يخبرهم بأنه لم يأتِ معتدياً، وإنما جاء للاتفاق معهم على صيغة تؤمن مصالح كل من الطرفين، إلا أن أهالي الجزيرة رفضوا الدخول في مفاوضات مع معاوية، عندها قام بفرض حصاره على الجزيرة ونزل جنود الحملة فيها وانتشروا في أرجائها ((**فقتلوا خلقاً كثيراً وسبوا سبايا كثيرة وغنموا مالاً جزيلاً**))[2] وعندها أرسل الأهالي في طلب الصلح فصالحهم معاوية على شروط أهمها:

أ. أن لا يقوم القبارصة بتقديم أية معونة إلى أعداء المسلمين.

ب. أن يخبروا المسلمين بما سوف يتجهز به الروم للإغارة على البلاد العربية الإسلامية حتى يحتاطوا ويأخذوا حذرهم.

---

[1] – ابن خياط العصفري (خليفة): تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق: أكرم ضياء العمري، دار القلم، دمشق، ط٢، ١٣٩٧م، ج١، ص٣٤. ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ج٢، ص٥٧٦. ابن العماد: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج١، ص١٨٧. البلاذري: فتوح البلدان، ص٢٠٨.

[2] – ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٠، ص٢٢٩.

ج. أن تكون قبرص قاعدة بحرية متقدمة للعرب المسلمين في حروبهم ضد بيزنطة.

د. أن يدفع القبارصة جزية سنوية للعرب المسلمين مقدارها سبعة آلاف دينار، على أن يدفعوا مثلها للدولة البيزنطية، ولا يمنعهم المسلمون عن ذلك، أي إن المسلمين لم يهتموا بأن يكونوا سادة الجزيرة وحدهم، بل قبلوا أن تكون مناصفة بينهم وبين الروم، مما يعني أن حملتهم كانت تأديبية بهدف تأديب الجزيرة وحماية بلادهم من غارات البيزنطيين[1].

لكن وجود العرب المسلمين لم يستمر طويلاً على أرض الجزيرة، فلم يلبثوا أن عادوا أدراجهم مع قدوم حملة بيزنطية بقيادة الإمبراطور قسطنطين الثالث (٢١-٤٨هـ/٦٤١-٦٦٨م)[2]، وفي سنة ٣٣هـ/٦٥٣م وصلت الأخبار إلى معاوية بن أبي سفيان بأن أهل قبرص نقضوا عهدهم له، وبأنهم أمدوا الدولة البيزنطية بسفن حربية ليستعينوا بها على حرب المسلمين، كما بلغه أن الإمبراطور البيزنطي قسطنطين الثالث عمل على تعزيز قواته في جزيرة قبرص وزيادتها[3]، عندها هاجم العرب المسلمون الجزيرة التي اعتصم سكانها في الجبال، وخاض المسلمون القتال حتى فتحوا البلاد جميعها وأقروا على أهلها شروط الصلح سابقة الذكر، ولكن هذا المرة لم يفكر معاوية بالجلاء عن الجزيرة، بل أرسل إليها فئة إسلامية مكونة من اثني عشر ألفاً من المحاربين،

---

[1] – الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج٤، ص٢٥٨. البلاذري: فتوح البلدان، ص٢٠٨. أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، ج١، ص٢٠٨. الذهبي (محمد بن أحمد): دول الإسلام، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت ، لبنان، ١٩٨٥م، ص١٣، ١٤. ابن العماد: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، مج١، ص١٨٦. ابن أيبك الدواداري: كنز الدرر وجامع الغرر، ج٣، ص٢٧٧.

[2] – البلاذري: فتوح البلدان، ص٢٠٨، ٢٠٩.

[3] – البلاذري (أحمد بن يحيى): المختار من فتوح البلدان، إعداد وتقديم: سمير سرحان و محمد عناني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩م، ص١٠.

كذلك نقل إليها أهالي بعلبك ومنحهم رواتب عالية[1]، وعندما اعتلى يزيد بن معاوية سدة الخلافة سنة (٦١-٦٤هـ/٦٨١- ٦٨٤م)، لم يستمر على نهج أبيه حيث استدعى تلك الجالية وأمرهم بهدم مدينتهم هناك[2]، وأثناء خلافة يزيد لم يقم القبارصة بشن الهجمات على الديار الإسلامية، بل استمروا في دفع الجزية المفروضة عليهم والمحافظة على شروط الصلح حتى قام الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان (٦٥-٨٦هـ/٦٨٥-٧٠٥م) بالمصالحة مع الإمبراطور البيزنطي جستنيان الثاني[3] على أرمينيا وقبرص في سنة ٦٩هـ/٦٨٨م على أن تدفع الجزيرة للخليفة ألف دينار زيادة على النصف الذي يخص العرب المسلمين من الجزية القبرصية[4]، ولكن الهجمات لم تلبث أن استؤنفت بين المسلمين والبيزنطيين، حيث أغار معاوية بن هشام بن عبد الملك ومعه ميمون بن مهران على قبرص سنة ١٠٧هـ/٧٢٦م[5].

وفي أواخر أيام الدولة الأموية إبان عهد الإمبراطور قسطنطين الخامس (١٢٣-١٥٨هـ/٧٤١-٧٧٥م) قام العرب المسلمين بإرسال حملة بحرية كبيرة انطلقت من مدينة الإسكندرية للإغارة على جزيرة قبرص سنة ١٣٠هـ/٧٤٧م، استطاعت هذه الحملة الاستيلاء

---

[1] – الذهبي: دول الإسلام، ص١٦.

[2] – البلاذري: فتوح البلدان، ص٢٠٩.

[3] – جستنيان الثاني: أحد أباطرة الأسرة الهرقلية، حكم إمبراطورية بيزنطة على فترتين الأولى بين سنتي ٦٥-٧٥هـ/٦٨٥-٦٩٥م، وفي الفترة الثانية بين سنتي ٨٦-٩٢هـ/٧٠٥-٧١١م، ودخلت بيزنطة أثناء حكمه في حروب ضد السلاف والعرب المسلمين، مما أدى إلى استياء الشعب منه وهذا ما دفع أحد ضباط حرسه إلى اغتياله سنة ٩٢هـ/٧١١م. فرح: تاريخ بيزنطة السياسي، ص١٤٢-١٤٥.

[4] – ابن شداد (عز الدين محمد): الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، تحقيق: يحيى زكريا عبادة، منشورات وزارة الثقافة، سوريا، ١٩٩١م، ج١، ق٢، ص٢١٢.

[5] – الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج٧، ص٤٠. ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص٢٢.

على أحد الموانئ القبرصية، وبينما هم فيها يعدون العدة لفتح الجزيرة بأكملها؛ داهمهم أسطول بيزنطي وحطم معظم سفنهم[1].

ومع قيام الخلافة العباسية في بغداد سنة (١٣٢-٦٥٦هـ/٧٥٠-١٢٥٨م) رأى أبو جعفر المنصور (١٣٦-١٥٨هـ/٧٥٤-٧٧٥م) ثاني خلفائها أن يخفف عن القبارصة ما هم فيه، وردهم إلى صلح معاوية، فألغى الزيادة التي كان قد فرضها عليهم الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان بموافقة الإمبراطور جستنيان الثاني، لكن العباسيين لم يلبثوا أن انتهجوا السياسة الأموية تجاه جزيرة قبرص، وقاموا بالإغارة على الجزيرة كلما أرادوا مضايقة الإمبراطورية البيزنطة والضغط عليها، وهذا ما حدث سنة ١٥٨هـ/٧٧٥م حينما وقع حاكم الجزيرة البيزنطي أسيراً لدى العرب المسلمين[2].

أما في عهد الخليفة هارون الرشيد (١٧٠-١٩٣هـ/٧٨٦-٨٠٨م)؛ فقد تم إرسال ثلاث غارات على الجزيرة كان أولها في سنة ١٧٤هـ/٧٩٠م، عندها أرسلت الإمبراطورة إيرين أسطولاً اشتبك مع العرب المسلمين الذين استطاعوا أسر قائد الأسطول البيزنطي المدعو طفيل أو تيوفيلوس (Teophilus)[3].

أما الغارة الثانية فكانت سنة ١٩٠هـ/٨٠٦م بقيادة حميد بن معيوف الهمذاني الذي تمكن من إحراق وهدم مناطق واسعة في الجزيرة، وأسر عدداً كبيراً من سكانها بيعوا في الأسواق، حيث

---

[1] - البلاذري: فتوح البلدان، ص٢١١، ٢١٢.

[2] - البلاذري: المصدر نفسه، ص٢١٢. الخضري (محمد): محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية الدولة العباسية، دار المعرفة، بيروت، ط٦، ٢٠٠١م، ص٥١.

Vasilevs: history of the byzantine , emire vol.1, p 32.

[3] - فرح: تاريخ بيزنطة السياسي، ص١٨٤. عاشور: أوربا العصور الوسطى، ص٤١٣.

بلغ ثمن أسقف قبرص حينها ألفي دينار، ويعود سبب هذه الحملة إلى نقض نقفور شروط الصلح التي عقدتها بيزنطة مع الخلافة العباسية والتي نصت على ما يلي :

أ- التعهد بعدم إعادة بناء الحصون والقلاع المهدمة بأطراف آسيا الصغرى.

ب- أن يدفع الإمبراطور غرامة مالية كبيرة للخلافة العباسية[1].

أما الغارة الثالثة فلم يذكر سوى أن قائدها كان معيوف بن يحيى[2].

وبعد وفاة هارون الرشيد توقفت الغارات العربية الإسلامية على جزيرة قبرص فترة من الزمن نتيجة للخلافات التي نشبت بين الأخوين الأمين والمأمون ونقل الخليفة المعتصم عاصمة الخلافة العباسية من بغداد إلى سامراء فضلاً عن تغلغل العنصر التركي في الخلافة العباسية، غير أن جزيرة قبرص بقيت ملتزمة بدفع الجزية في موعدها للعرب المسلمين حتى زمن الخليفة العباسي المكتفي بن المعتضد (٢٨٩-٢٩٥هـ/٩٠٢-٩٠٨م) والإمبراطور ليو السادس (٢٧٣-٢٩٩هـ/٨٨٦-٩١٢م)، إلا أن العرب المسلمين ما لبثوا أن أعاودوا غزوهم لجزيرة قبرص سنة ٢٩٩هـ/٩١٢م بقيادة دمنانة أو دميان أكبر الغزاة المسلمين في البحر المتوسط في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي[3]، وذلك عندما حاول البيزنطيون قطع الاتصال بين المسلمين في جزيرة كريت وقواعدهم بساحل الشام.

---

[1] - ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج٥، ص٣٧١، ٣٧٢. ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص٤٦. الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج٨، ص٣٢٠-٣٢٢. البلاذري: فتوح البلدان، ص٢١٠. العش (يوسف): تاريخ عصر الخلافة العباسية، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٩٨٢م، ص٨٢.

[2] - الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج٨، ص٣٢٢. عاشور: قبرس والحروب الصليبية، ص١٤.

[3] - المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج٨، ص٢٨٢. بيطار (أمينة): تاريخ العصر العباسي، منشورات جامعة دمشق، دمشق، ط٤، ١٩٩٧م، ص٢٣٣.

ولما ضعف شأن البحرية الإسلامية في العهد العباسي نتيجة الصراعات التي نشبت بينها وبين الدول التي خرجت عليها في الشرق والغرب الإسلامي؛ سارع البيزنطيون إلى احتلال جزيرة قبرص سنة ٢٦٣هـ/٨٧٦م ولكن في العهد الطولوني استطاع الأسطول المصري أن يستعيد الجزيرة سنة ٢٩١هـ/٩٠٤م، وبقيت تحت حكم المسلمين حتى سنة ٣٥٤هـ/٩٦٥م حيث أعاد الروم حكمهم في جزيرة قبرص[1].

وفي القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي قام الإمبراطور نقفور فوكاس الثاني (٣٥٢-٣٥٨هـ/٩٦٣-٩٦٩م) بمجهود حربي ضخم ضد العديد من المناطق الإسلامية ومنها جزيرة قبرص التي أرسل إليها حملة عسكرية في سنة ٣٥٤هـ/٩٦٥م استطاع من خلالها السيطرة على الجزيرة بشكل كامل، وبذلك أنهى كل نفوذ سياسي وعسكري للعرب المسلمين فيها[2].

وفي العهد الفاطمي والأيوبي خرجت بعض الغزوات البحرية الإسلامية ضد جزيرة قبرص استطاعت أسر مجموعة من الأعداء والحصول على جملة من الغنائم[3].

وعندما قدمت الحملة الصليبية (الفرنجية) الثالثة سنة ٥٨٥هـ/١١٨٩م لغزو مصر وبلاد الشام بقيادة ريتشارد قلب الأسد ملك إنكلترا؛ جعل ريتشارد من قبرص مركزاً وقاعدة عسكرية لإمداد الكيان الصليبي في المشرق، وحافظ عليها بوصفها خط الدفاع الثاني عن المملكة اللاتينية

---

[1] – الأنطاكي: تاريخ الأنطاكي المعروف بصلة تاريخ أوتيخا ، ص ١٠٦. فرح: تاريخ بيزنطة السياسي، ص٢٤٨.

[2] – الأنطاكي: المصدر نفسه، ص١٠٦.

[3] – زنتاني (عبد الوهاب محمد): قبرص من معاوية إلى أجاويد (٦٤٨م-١٩٧٤م)، دار غريب، القاهرة، ٢٠٠٢م، ص٧٣.

الفرنجية في بلاد الشام[1]، ومن هنا لا بد من التنويه إلى أهمية قبرص الإستراتيجية التي تعد من أقوى المواقع بالنسبة للساحل الشامي[2]، فهي تمثل ركناً ممتازاً في الزاوية الشمالية الشرقية للبحر المتوسط ما يمكنها من سهولة التحكم في مياه هذا الجزء من البحر وما يشرف عليه من البلاد، وكذلك تعد قاعدة بحرية هامة لأية دولة تريد أن تتزعم منطقة الشرق[3].

ومنذ أن اتخذ ريتشارد جزيرة قبرص مركزاً لتجمع جيوشه ظهرت أهمية الجزيرة الإستراتيجية بصفتها قاعدة عسكرية لتهديد بلاد الشام ككل[4]، ولذلك سارع رجال الهيكل الداوية إلى شراء جزيرة قبرص من ريتشارد قلب الأسد مقابل مبلغ مئة ألف بيزنت[5]، وفي سنة ٥٨٨هـ/١١٩٢م وقعت الجزيرة تحت حكم الأسرة اللوزينيانية التي يعود أصلها إلى عائلة ذات نفوذ في بواتو (غربي فرنسا)، وحكمت هذه الأسرة جزيرة قبرص ما يقارب ثلاثة قرون (٥٨٨–٨٧٨هـ/١١٩٢-١٤٧٤م)[6].

---

[1] – إديوري: قبرص والحروب الصليبية، ص٨. رمضان (عبد العظيم): الصراع بين العرب وأوربا من ظهور الإسلام إلى انتهاء الحروب الصليبية، دار المعارف، مصر، ١٩٨٣م، ص٤٩٨، ٤٩٩. عوض (محمد مؤنس أحمد): الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب في القرنين ١٢-١٣م/ ٦-٧هـ، دار روتابرينت، ١٩٩٩م، ص٢٢٣-٢٣٠، ٢٣١. الحريري (سيد علي): الأخبار السنية في الحروب الصليبية، الزهراء للإعلام العربي، ط٣، ١٩٨٥م، ص٢٥٠، ٢٥١.

[2] – عطية (حسن): إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمون، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، ط١، ١٩٨٩م، ص٢٣٩.

[3] – حاج مجهول من القرن ١٢: رحلات غريبة، ج٣٧، ص٢. ندا (صبحي): قبرص البحرية الإسلامية، دار البشير للثقافة والعلوم، طنطا، ١٩٩٩م، ص٧.

[4] – العبار: مشكلة قبرص بين الماضي والحاضر وأثرها على الموقف الدولي، ص٣٢.

[5] – بندس: تاريخ قبرص، ص٧٠، ٧١. زنتاني: قبرص من معاوية إلى أجاويد، ص٦٥. عاشور: قبرس والحروب الصليبية، ص٣١. إديوري: قبرص والحروب الصليبية، ص ٤٧.

[6] – إديوري: المرجع نفسه، ص٣٩-٤٢.

وفي عهد الأسرة اللوزينيانية تبادلت السلطنة المملوكية في مصر وبلاد الشام وجزيرة قبرص الغارات البحرية بشكل عنيف ومدمر كما مرَّ سابقاً، واستمر الأمر على هذا الحال إلى أن تبوأ الأشرف برسباي عرش المماليك، حينها قام بمجهود حربي ضخم ضد جزيرة قبرص لوضع حدٍ لأعمال القرصنة القبرصية في شواطئ السلطنة المملوكية، وضد سفنها وهذا ما سيتحدث عنه البحث بشيء من التفصيل.

٣- الأسباب التي دفعت السلطنة المملوكية إلى فتح جزيرة قبرص :

يعد فتح جزيرة قبرص في القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي من أعظم الأعمال العسكرية البحرية في عهد الأشرف برسباي والعصر المملوكي الثاني، لما لهذا الفتح من أهمية اقتصادية وسياسية على الصعيد الإسلامي بشكل عام والمملوكي بشكل خاص، فمن جهة استطاعت دولة المماليك القضاء على تجمعات القرصنة البحرية التي اتخذت من قبرص أوكاراً لها وألحقت بالاقتصاد المملوكي أضراراً بالغة، ومن جهة أخرى أصبحت جزيرة قبرص تابعة للسلطنة المملوكية وتدور في فلكها حتى سقوط المماليك على يد العثمانيين سنة ٩٢٣هـ/١٥١٧م.

ولا شك أن هناك العديد من الأسباب الداخلية والخارجية، المباشرة وغير المباشرة التي دفعت دولة المماليك وعلى رأسها الأشرف برسباي إلى القيام بهذا العمل الحربي الكبير ألا وهو فتح جزيرة قبرص، وفيما يلي عرض وتوضيح لأهم هذه الأسباب:

Cyprus , 1000 years of history and civilization, Cyprus torism organization, 2002, p,8.

فما إن ثبت الصليبيون (الفرنجة) أقدامهم في المشرق العربي الإسلامي حتى اتخذوا من جزيرة قبرص قاعدة لضرب المسلمين، والقيام بأعمال القرصنة، وتهديد الشواطئ الإسلامية، وخاصة بعد أن قام السلطان المملوكي الأشرف خليل بتطهير بلاد الشام من آخر بقايا الصليبيين سنة ٦٩٠هـ/١٢٩١م[1].

وقد بلغت ذروة الاعتداءات القبرصية في الهجوم على مدينة الإسكندرية الذي شنه بطرس الأول لوزينيان ملك قبرص سنة ٧٦٧هـ/١٣٦٥م حيث باغت المدينة بأسطول صليبي ضخم اشترك فيه عدد كبير من الإسبتارية والبنادقة فعملوا بها سلباً ونهباً وأحرقوا ما بها من الدور والمتاجر، وبعد أسبوع من استباحة المدينة والتنكيل بأهلها عادت الحملة الصليبية (الفرنجية) إلى جزيرة قبرص[2].

ولم تتوقف الاعتداءات والقرصنة الصليبية على سواحل الدولة المملوكية بعد حملتهم على الإسكندرية، بل ظلت مستمرة على السفن والموانئ الإسلامية حتى القرن التاسع الهجري/أوائل القرن الخامس عشر الميلادي، *ولم تكن تلك الاعتداءات في الواقع قاصرة على القبارصة وحدهم بل شارك فيها قراصنة مسيحيون من مختلف الجنسيات اتخذوا من سواحل جزيرة قبرص المتعرجة قواعد وأوكاراً يخرجون منها للإغارة على البلدان والسفن الإسلامية، كما وجدوا من ملوك قبرص ورجالاتها خير مشجع ومعاون على اعتداءاتهم، وخير مشتر لبضائعهم المنهوبة من*

---

[1] – ابن قاضي شهبة: تاريخ ابن قاضي شهبة، ج٢، ص٢٧٦.

[2] – النويري السكندراني: الإلمام بالإعلام، ج١، ص١١٣–١١٨–٣٣٥– ٣٣٦. القلقشندي: مآثر الإنافة في معالم الخلافة، ج٢، ص١٦٨. الصيرفي: نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، ج٣، ص٧٦.

المسلمين، ولهذا كانت السياسة المملوكية تعد جزيرة قبرص مسؤولة عن أعمال هؤلاء القراصنة الذين يعيثون في البحر فساداً[1].

وإذا كانت الظروف التي أحاطت بدولة المماليك في أواخر القرن الثامن وأوائل القرن التاسع الهجري/أواخر القرن الرابع عشر وأوائل القرن الخامس عشر الميلادي لم تمكن سلاطين المماليك من تنفيذ رغبتهم في تأديب جزيرة قبرص؛ فإنه باستقرار الأوضاع لدولة المماليك الجراكسة بدا للسلطان الأشرف برسباي أنه في استطاعته أن يقوم بعمل حربي حاسم ضد جزيرة قبرص، ولذا أخذ يتحين الفرص المناسبة للانتقام منها والوثوب عليها، وفي هذه الأثناء كثرت تعديات الفرنجة على السواحل والثغور الإسلامية في شرقي المتوسط.

ففي سنة ٨٢٥هـ/١٤٢٢م استولى الفرنج بالقرب من الإسكندرية على مركب تجاري تزيد قيمته على مئة ألف دينار[2]، وفي سنة ٨٢٧هـ/١٤٢٤م تناهى إلى سمع السلطان برسباي أن مركبين للمسلمين قد استولى عليهما الفرنج بالقرب من مدينة دمياط، وكان هذان المركبان ينقلان بضائع كثيرة وأكثر من مئة شخص[3]، وأن ملك قبرص (جانوس لوزينيان) استولى على سفينة محملة بالهدايا مرسلة من السلطان المملوكي الأشرف برسباي إلى السلطان العثماني مراد الثاني وعند ذلك ثارت ثائرة السلطان المملوكي فأمر بالاستيلاء على أموال التجار الفرنجة بالثغور

---

[1] – طقوش: تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، ص٥١٥.

[2] – المقريزي: السلوك، ج٤ ق٢، ص٦١٧.

[3] – ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج١٤، ص١٠٣.

المملوكية ومنعهم من السفر إلى بلادهم كما أخذ يجهز السفن لغزو جزيرة قبرص[1]، وفي الواقع، فإن رغبة الأشرف برسباي بفتح جزيرة قبرص تهدف إلى تحقيق غايتين عامة وخاصة:

العامة: القضاء على آخر البقايا الصليبية (الفرنجية) في البحر المتوسط لتوسيع النشاط التجاري في هذا البحر وهي هدف المماليك على مر العهود[2].

أما الخاصة: فهي صرف أنظار منافسيه من أمراء المماليك عن افتعال المشاكل والفتن الداخلية في وجهه، فأراد أن يشغلهم بعمل عسكري ألا وهو فتح جزيرة قبرص[3].

وفيما يتعلق بجزيرة قبرص فإن أحوالها اختلفت كثيراً في أواخر القرن الثامن الهجري والربع الأول من القرن التاسع الهجري/أواخر القرن الرابع عشر الميلادي والربع الأول من القرن الخامس عشر الميلادي عما كان عليه من قبل، فالسياسة الصليبية العنيفة ضد المسلمين التي اتبعها ملوك لوزينيان استنفدت معظم جهد المملكة، وعندئذ بدت الجزيرة ضعيفة ومنهكة ولاسيما بعد الحروب التي اشتعلت بين جزيرة قبرص وبعض المدن الإيطالية[4] ومما زاد من صعوبة الأوضاع في جزيرة قبرص ابتلاؤها بالوباء والجراد عدة مرات في سنوات متقاربة مما أدى إلى انتشار

---

[1] – الظاهري: زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، ص١٣٨. المقريزي: السلوك، ج٤ ق٢، ص٦٦٥، ٦٦٦.

[2] – طقوش: تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، ص٥١٦.

[3] – عاشور: العصر المماليكي في مصر والشام، ص١٧٠.

[4] – زيتون (عادل): العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، دار دمشق للطباعة والنشر، القاهرة، ط١، ١٩٨٠ م، ص٢٧٥-٢٧٨.

المجاعات والأمراض، ووفاة عدد كبير من سكانها[1]*، وهنا وجد المماليك أنهم إذا ما هاجموا قبرص وضعوا حداً لتمادي القبارصة، واستفادوا من ثروات قبرص وموقعها الإستراتيجي.*

وننوه إلى أن من أبرز العوامل التي دفعت سلطنة المماليك إلى غزو جزيرة قبرص، قيام ملوكها بمنع السفن التجارية الأوربية من الوصول إلى شواطئ الشام ومصر للحصول على منتجات الشرق، وتزويدها بمصنوعات الغرب[2]*، إذ عمدوا إلى تشجيع التجارة بين جزيرتهم وموانئ آسيا الصغرى، وذلك بغية تحويل أنظار التجار الأوربيين عن سواحل السلطنة المملوكية، واجتذابهم إلى الموانئ القبرصية للحصول على ما يريدونه من توابل وحاصلات آسيوية، ولعل الصلة التي ربطت بين أرمينيا الصغرى وموانئ آسيا الصغرى كانت كفيلة بأن تضمن لقبرص وصول البضائع إلى موانئها في سهولة ليحملها التجار الأوربيون إلى بلادهم*[3]*.*

ومما تقدم يتضح أن دخول المشروع القبرصي التجاري ضد المسلمين حيز التنفيذ سيؤدي إلى تعطيل التجارة بين سلطنة المماليك والغرب الأوربي. وبما أن التجارة كانت تمثل شريان الحياة بالنسبة للمماليك، فقد أصبح غزو قبرص حاجة ملحة لدى المماليك لتفادي مسألة انهيار بنيان السلطنة المملوكية السياسي والاقتصادي، وكل ما سبق من أعمال القرصنة واعتداءات قام بها القبارصة قد أدى لردة فعل لدى سلاطين المماليك، علماً أن السلطنة المملوكية لم تكن ضعيفة

---

[1] – ابن سباط (حمزة بن أحمد): صدق الأخبار، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، جروس بروس، طرابلس، ط١، ١٩٩٣م، ج٢، ص٧٨٤.

Makhiaras: recital concerning the sweet land of Cyprus , p. 611.

[2] – مصطفى: العصر المملوكي من تصفية الوجود الصليبي إلى بداية الهجمة الأوربية الثانية، ص٤٤.

[3] – عاشور: قبرس والحروب الصليبية، ص٨٥.

آنذاك، وإنما كانت في أوج قوتها، وكانت تنتظر الفرصة المناسبة لتوجيه ضربة قاصمة لجزيرة قبرص وقراصنتها، وقد أخذ السلطان المملوكي الأشرف برسباي يعد العدة لأجل ذلك.

٤- الحملات البحرية المملوكية على جزيرة قبرص في عهد السلطان الأشرف برسباي:

أ- الحملة الاستكشافية الأولى للسلطنة المملوكية على جزيرة قبرص سنة ٨٢٧هـ/١٤٢٤م:

بعد أن كثرت هجمات القبارصة على موانئ السلطنة المملوكية في مصر وبلاد الشام، قرر السلطان الأشرف برسباي (٨٢٥-٨٤١هـ/١٤٢٢-١٤٣٨م)[1] غزو القبارصة في عقر دارهم رغبة منه في أن يضع حداً لتلك الاعتداءات المتكررة لأن أولئك القبارصة ظنوا أن سلاطين المماليك عاجزون عن التصدي لهجمات قراصنتهم، أو بالأحرى غير قادرين على ركوب البحر والوصول إلى بؤرة الهجمات القبرصية ومركزها، وفي حقيقة الأمر فإن قيام الأشرف برسباي بغزو جزيرة قبرص يمثل مرحلة جديدة في تطور البحرية المملوكية، كما أنه يوضح لنا مراحل التخطيط الحربي البحري في عصر سلاطين المماليك.

---

[1] - هو الأشرف سيف الدين أبو النصر برسباي الدقماقي الظاهري، وهو الثاني والثلاثون من ملوك الترك والثامن من ملوك الجراكسة وهو من عتقاء الملك برقوق، بويع بالسلطنة بعد خلع الملك الصالح محمد بن الظاهر ططر في يوم الأربعاء ثامن ربيع الآخر سنة خمس وعشرين وثمانمئة. السخاوي (شمس الدين محمد بن عبد الرحمن): الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، دار مكتبة الحياة، بيروت، ج٣، ص٨. ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج٢، ص١٥. القرماني: أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ، ج٢، ص٣٠٧. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٤، ص٧٨.

وجّه السلطان الأشرف برسباي حملته الأولى لغزو جزيرة قبرص بعد حوالي ستين عاماً على حملة بطرس لوزينيان على الإسكندرية[1]، وكان الهدف من حملته تلك أن تكون حملة استكشافية صغيرة يقف من خلالها على ((**من يتجرم في البحر من الفرنج**))[2] ويتعرف على الجزيرة ويحدد مسؤولية قبرص في معاونة القراصنة المعتدين على الشواطئ المصرية والشامية.

انطلقت هذه الحملة من ساحل بولاق ٩ رمضان ٨٢٧هـ/١٣ آب ١٤٢٤م بسفينتين كبيرتين على متنهما ثمانين مملوكاً، بالإضافة إلى عدد من المتطوعين الذين انضموا إليهم[3].

ثم لحقت بهما عند مدينة دمياط سفينة أخرى فسارت السفن الثلاث إلى سواحل بلاد الشام، حيث وصلت إلى ميناء بيروت وهناك انضمت إليهما سفينة رابعة أبحرت جميعها صوب طرابلس، وهناك انضمت إليهم سفينة خامسة جاءت من صيدا، وبلغ عدد المحاربين الذين اشتركوا في هذه الحملة ستمئة محارب، وبصحبتهم ثلاثمئة فرس[4]، وبعد أن تكاملت الحملة أبحرت من ميناء طرابلس في أواخر رمضان ٨٢٧هـ/ أواخر آب ١٤٢٤م واتجهت صوب جزيرة قبرص، وفي أثناء إبحارها هبت عليها رياح عاتية شتتت السفن وردتها إلى السواحل الشامية، إلا أن هذه العواصف القاسية والرياح العاتية لم تنل من عزيمة الغزاة المسلمين على الوصول إلى قبرص وتحقيق أهدافهم، فسرعان ما تجمعوا من جديد، وأبحروا في أوائل شوال/أوائل

---

[1] – محمد علي (وفاء): جهود المماليك الحربية ضد الصليبية والمغول، القاهرة، ط١، ١٩٨٥م، ص٨١، ٨٢.

[2] – المقريزي: السلوك، ج٤ ق٢، ص٦٦٨. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٤، ص١٠٥.

[3] – الصيرفي: نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، ج٣، ص٧٧.

[4] – ابن حجر العسقلاني: أنباء الغمر بأبناء العمر، ج٨، ص٤٨. العيني: عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، ص٢٦٣. ابن منكلي: الأحكام الملوكية، ج١، ص٦٦. السيوطي (جلال الدين): غزوات قبرص ورودس، فيينا، ١٩٨٤م، ص٢. عاشور: قبرس والحروب الصليبية، ص٩٠.

أيلول من العام ذاته[1]، ووصلت الحملة إلى الشاطئ القبرصي في مكان يعرف باسم (رأس الياق) جنوبي ميناء ليماسول، وصادفت هناك سفينة تجارية فر بحارتها لرؤية السفن الإسلامية تاركين سفينتهم المشحونة بالبضائع، فاستولى عليها المسلمين، وأشعلوا فيها النيران، واتجهت الحملة بعد ذلك إلى ميناء ليماسول، فلما علم أهلها بقدوم المسلمين أخرجوا النساء والأطفال من المدينة لئلا يتعرضوا للخطر[2]، وعند ليماسول فاجأ الغزاة ثلاث سفن كانت مجهزة للإغارة على السواحل الإسلامية فأخذوا ما بها، وأشعلوا فيها النيران، وفاجؤوا أيضاً ثلاث سفن أخرى فأغرقوها[3].

ثم ظهرت قوات الطلائع القبرصية وهي تتكون من سبعين فارساً وثلاثمئة راجل بقيادة حاكم ليماسول ويدعى فيليب Philip غير أن القوات الإسلامية احتوت هجومه، وأوقعت عدداً من القتلى القبارصة في أرض المعركة، فهرب حاكم ليماسول، وبذلك أصبحت ليماسول مشرعة الأبواب أمام المسلمين فدخلوها وسيطروا عليها، ثم حاصرت القوات الإسلامية حصن ليماسول ولكنهم وجدوه منيعاً تطول محاصرته[4]، عندها قام الغزاة بنهب عدد من أحياء ليماسول، وأشعلوا النار فيها ثم غادروها إلى منطقة كوكليا حيث التقوا بسفينتين قادمتين من جورهيجوس على ساحل أرمينيا الصغرى، فأشعلوا النار في إحداهما وأسروا الأخرى[5]، وفي أواخر شوال

---

[1] – صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص٢٤٢.

[2] – المقريزي: السلوك، ج٤ ق٢، ص٦٧٢.

[3] – الظاهري: زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، ص١٣٨. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٤، ص١٠٦. ابن منكلي: الأحكام الملوكية، ج١، ص٦٦.

[4] – الظاهري: زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، ص١٣٨. صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص٢٤٢.

[5] – السخاوي (شمس الدين محمد بن عبد الرحمن): وجيز الكلام في الذيل على دول الإسلام، تحقيق: بشار عواد معروف وآخرين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٩٥م، ج٢، ص٤٧٩. عاشور: قبرس والحروب الصليبية، ص٩١.

٨٢٧هـ/ أواخر أيلول ١٤٢٤م أقلعت السفن الإسلامية من السواحل القبرصية فوصلت إلى مصر بعد شهرين من العام نفسه محملة بالغنائم والأسرى، وقد اختلف المؤرخون في تحديد عدد الأسرى [1]، وهكذا عادت الحملة الاستكشافية الأولى إلى مصر وقد حققت أهدافاً عديدة من أهمها:

أ- كوّن المماليك صورة واضحة عن مدى ضعف القبارصة وضعف إمكانياتهم العسكرية والمادية وعجزهم عن المقاومة والدليل على ذلك أن حملة صغيرة من عدة سفن استطاعت أن تهز أركان الجزيرة وتعود بالأسرى والغنائم.

ب- كوّن المماليك فكرة واضحة عن القراصنة القبارصة وتأكدوا أن القيادة القبرصية كانت داعمة ومؤيدة لأعمال القراصنة على السواحل الإسلامية، إذ شاهد المسلمون بعض أوكارهم على سواحلها فضلاً عن بضائع المسلمين التي نهبوها أثناء إغاراتهم على ممتلكات السلطنة المملوكية [2].

---

[1] – قدر المقريزي وابن تغري بردي والعيني الأسرى بثلاثة وعشرين أسيراً، أما ابن حجر العسقلاني فقدرهم بألف وستمئة، أما السيوطي فقدرهم بألف وسبعمئة، ومما لا شك فيه أن تقدير ابن حجر والسيوطي مبالغ فيه لأن عدد سفن الحملة خمس سفن. انظر: المقريزي: السلوك، ج٤ ق٢، ص٦٧٢. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٤، ص١٠٦. العيني: عقد الجمان، ص٢٦٣. ابن حجر العسقلاني: أنباء الغمر، ج٨، ص٤٨. السيوطي: غزوات قبرص ورودس، ص٢. سوريال عطية: الحروب الصليبية وتأثيرها على العلاقات بين الشرق والغرب، ص١٢٦.

[2] – عاشور: قبرص والحروب الصليبية، ص٩٢. عاشور: العصر المماليكي في مصر والشام، ص١٧٣، ١٧٤. العبادي وسالم: تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام، ص٣٣١. طقوش: تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، ص٥١٧.

وفي أعقاب هذه الحملة اتخذ السلطان الأشرف برسباي موقفاً دبلوماسياً فطناً ألا وهو فتح كنيسة القيامة في بيت المقدس كي يخفف من حدة عداء الصليبيين (الفرنجة) ويحول دون اجتماع كلمتهم بسبب الحملة وما أحدثته من تدمير، وتحسباً من أي هجوم صليبي قام بتحصين سواحل مصر وبلاد الشام[1].

ب – الحملة المملوكية الثانية على جزيرة قبرص سنة ٨٢٨ هـ/١٤٢٥م :

كانت النتائج والمكاسب التي حققتها الحملة الاستكشافية الصغيرة على جزيرة قبرص مشجعة للسلطان الأشرف برسباي، لكي يبدأ في إعداد حملة جديدة، وقد دلت نتائج الحملة الأولى على ضعف مملكة قبرص وعجزها عن المقاومة، وكما دلت أيضاً على انفراط عقد التحالف الصليبي في الغرب الأوربي وحوض البحر المتوسط.

لذلك ما إن عادت الحملة الإسلامية الأولى منتصرة حتى أمر السلطان الأشرف برسباي ببناء سفن جديدة لتشكيل حملة ثانية، فاستطاع أن يعمّر في مصر خلال مدة وجيزة أربع حمالات كبار لحمل الخيول والأثقال والناس، وعمّر عدة أغربة كبار وصغار، وأمر السلطان بعمارة حمالة في بيروت لعسكر الشام، وغرابين أحدهما بثمانين مجذافاً والثاني بأربعين مع غراب عتيق كان ببيروت سابقاً، وكذلك أمر نائب طرابلس بعمارة حمالة مع الغراب الذي عنده، إلى جانب هذا أمر عمال اللاذقية في الشام بصناعة مجاديف لهذه السفن وإرسالها إلى مصر[2]، وقد بلغ من اهتمامه أنه كان يشرف بنفسه على بناء السفن، وكان يذهب يومياً إلى دار الصناعة ببولاق

---

[1] – المقريزي: السلوك، ج٤ ق٢، ص٦٧٢. الظاهري: زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، ص١٣٩.

٢ – ابن سباط: صدق الأخبار، ج٢، ص٧٨٥، ٧٨٦. صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص٢٤٢، ٢٤٣.

ليتأكد من سير العمل[1] *ومما زاد من عزيمته على إخضاع الجزيرة أن حملات القبارصة على الأراضي التابعة للسلطنة المملوكية لم تتوقف، فقد حاول جانوس ملك قبرص الرد على حملة برسباي فجهّز أسطولاً صغيراً وأمره بالإغارة على سواحل الشام ونهبها، وفي جمادى الثانية سنة٨٢٨هـ/أيار ١٤٢٥م قام الأسطول القبرصي بالهجوم على صور، وأغار على الساحل الممتد بين جبلة وطرابلس فتصدى لهم العرب المسلمون وقتلوا منهم جماعة وانهزم باقيهم*[2].

وفي رجب سنة ٨٢٨هـ/حزيران ١٤٢٥م خرج مركب من اللاذقية كان مشحوناً بالمجاديف مرسلة إلى مصر وعند اقتراب المركب من جزيرة أرواد هاجمه عدد من السفن القبرصية يريدون أخذه، فقاتلهم المسلمون حتى قتلوا عن آخرهم وعدتهم خمسون رجلاً، وأفلت منهم رجل واحد، وأخذ الإفرنج المجاديف وغيرها وحرقوا المركب[3]*، وكثرت الإشاعات وقتذاك بحركة الإفرنج وتأهبهم، فأرسل برسباي الأمراء والمماليك لحماية الثغور كما أرسل إلى طرابلس وبيروت والإسكندرية ودمياط يأمر بتركيز الجند بالسواحل حفظاً لها من الإفرنج*[4]*، ولم تخل تلك الإشاعات في الواقع من الحقيقة، لذلك كان برسباي صائباً في اتخاذ الأهبة والاحتياطات اللازمة للدفاع، فما إن علم جانوس باستعداد المسلمين لغزو جزيرة قبرص حتى أرسل حملة بحرية مؤلفة من عدة سفن مشحونة بالرجال والعتاد لمراقبة الشواطئ المصرية ومنع خروج الحملة إلى البحر، كما أرسل سفينتين للإغارة على سواحل بلاد الشام وإفساد ما يقدرون عليه، فأخذتا في التنقل من جهة إلى أخرى دون أن تستطيع إحداهما أو كلاهما تحقيق شيء بسبب يقظة الحراسة الإسلامية في كل الجهات* ((**فجاءوا إلى مكان يقال له نهر الكلب ليأخذوا منه ماء، فأطلقوا**

---

١ – ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٤، ص١٠٧.

٢ – المقريزي: السلوك، ج٤، ق٢، ص ٦٨٦.

٣ – المقريزي: المصدر نفسه، ج٤، ق٢، ص ٦٨٩.

٤ – ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر بأبناء العمر، ج٨، ص٧١.

مدفعاً لينظروا إن كان به أحد، فاكمن المسلمون إلى أن طلعت الفرنج البر، ودقوا عليهم فمسكوا منهم جماعة وأحضروهم إلى السلطان بعد أن هربت الأغربة ومن بها مجرحين))[1]، *وأما السفن القبرصية التي قصدت شواطئ مصر فقد وقفت عند مصب دمياط لمحاصرتها ومنع السفن الإسلامية من الانطلاق منها، غير أن السفن الإسلامية التي كان قد تم بناؤها في الإسكندرية تحركت في ذلك الوقت باتجاه دمياط، وما إن شاهد القبارصة السفن المصرية مبحرة نحوهم ولوا الأدبار وفروا دون قتال*[2].

وبعد أن تم تجهيز السفن وشحنها بالمؤن والأسلحة أخذ السلطان الأشرف برسباي في تجهيز الغزاة، وعيّن جماعة كبيرة من المماليك السلطانية والأمراء وألزم كل أمير مئة مقدم ألف[3] *بتجهيز عشرة مماليك من مماليكه، في حين قام السلطان بتجهيز ستمئة محارب على نفقته*[4] *وعيّن على كل غراب أميراً، وتولى قيادة الحملة الأمير جرباش قاشق (أحد كبار حجاب السلطان) والأمير قرامراد المصري أحد أمراء الطلبخانات*[5]*، وكذلك الأمير يشبك وقانصوه وأقبغا*

---

١ – الظاهري: زبدة كشف الممالك، ص١٣٩.

٢ – ابن حجر العسقلاني: المصدر السابق، ج٨، ص ٧١، ٧٢.

٣ – أمير مئة مقدم ألف: أعلى مراتب الأمراء في عصر المماليك، والمقصود بتلك التسمية المركبة وظيفة واحدة، وهذه المرتبة خاصة بأرباب السيوف ويكون في خدمة صاحبها مئة مملوك، وربما زاد الواحد منهم العشرة والعشرين، وهو في الوقت نفسه مقدم على ألف مملوك من أجناد الحلقة في وقت الحرب، وكان بيد هؤلاء الأمراء جميع المناصب العليا وما يساوي ذلك من الوظائف الكبرى في السلطنة المملوكية.

المقريزي: السلوك، ج١، ص٢٣٩ حاشية رقم (١). المقريزي: الخطط، ج٣، ص٧٠. القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص١٥. العريني: المماليك، ص١٤٨.

٤ – ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٤، ص١١١، ١١٢. المقريزي: السلوك، ج٤، ق٢، ص٦٨٧–٦٨٩.

٥ – أمير طبلخاناه: مرتبة حربية من مراتب أرباب السيوف في سلطنة المماليك، صاحبها يلي أمير مئة، وسمي أمير طبلخاناه لأحقيته في دق الطبول على أبوابه كما يفعل السلاطين وأمراء المئات، ويكون في خدمته أربعون

الناصري[1].

وبعد أن اكتملت تجهيزات الحملة الإسلامية غادرت الشواطئ المصرية إلى سواحل بلاد الشام في أواخر رجب سنة ٨٢٨هـ/ أواخر حزيران ١٤٢٥م واتجهت أولاً إلى بيروت حيث انضمت إليها السفن التي تم بناؤها هناك، وكان الأمير جرباش في أثناء إعداده للحملة وهو في بيروت قد أرسل بأمر من السلطان برسباي رسولاً إلى الملك جانوس يطلب منه الدخول في طاعة السلطان منعاً للقتال، فغادر الرسول بيروت متجهاً إلى قبرص في الوقت الذي توجهت فيه الحملة إلى طرابلس، حيث مكثت عدة أيام تنتظر عودة الرسول بجواب جانوس، ولما تأخر الرسول بالمجيء وإعلام المسلمين عن موقف جانوس، قررت الحملة الإبحار إلى قبرص[2]، وبعد أن أصبحت الحملة الإسلامية مكونة مع السفن التي أمده بها الخليفة الحفصي سلطان تونس من اثنتين وأربعين سفينة، وهي ست حمالات كبار، وعشرة أغربة كبار وصغار، وستة قراقير، ومركبان مخروطان كبار، واثنا عشر زورقاً، وستة بنوف صغار، فأصبح عددها اثنين وأربعين قلاعاً[3].

وكان المؤرخ المعاصر الأمير صالح بن يحيى، صاحب كتاب تاريخ بيروت الذي شارك في هذه

مملوكاً أو يزيد هذا العدد إلى سبعين أو ثمانين كما هو الحال عند أمراء العشرات. المقريزي: السلوك، ج١، ص٢٣٩ حاشية رقم (١). المقريزي: الخطط، ج٣، ص٧٠ القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص١٥.

١ - الصيرفي: نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، ج٣، ص ٧٧، ٧٨. ابن سباط: صدق الأخبار، ج٢، ص ٧٨٦.

٢- ابن حجر العسقلاني: المصدر السابق، ج٨، ص٧٢. حسن سعيد: البحرية في عصر سلاطين المماليك، ص٢٥٩، ٢٦٠.

٣- وهنا اختلف المؤرخون في عدد الأغربة التي اشتركت في تلك الحملة، إذ ذكر صالح بن يحيى في تاريخ بيروت أن عددها كان عشرة فقط، أما إذا جمعنا عدد المراكب المذكورة فنجدها اثنتين وأربعين مركباً وليست أربعين كما ذكرها بعض المؤرخين. انظر صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص٢٤٢، ٢٤٣. ابن سباط: المصدر السابق، ج٢، ص٧٨٦. سالم وعبادي: المرجع السابق، ص ٣٣١.

الحملة، على رأس الغراب العتيق الذي عمل عليه من قبل ويقول عن ذلك: ((**كان هذا الغراب من أحسن الأغربة مشياً، وكان معي قريب من مئة رجل بحرية ومقاتلة**))[1]، *ولم تكد الحملة الإسلامية تغادر ميناء طرابلس في ١٤ رمضان ٨٢٨هـ/٧ آب ١٤٢٥م حتى لحق بها الرسول قادماً من قبرص معلناً رفض الملك جانوس الذي أخذته العزة بالإثم، وأبى الدخول في طاعة المسلمين*[2].

وأقلعت السفن الإسلامية من ميناء طرابلس وعليها الآلاف من جنود البر والبحر ورماة النفط، وبعد أربعة أيام وصلت الحملة إلى ميناء قرباص Korbass على الساحل الشمالي الشرقي لجزيرة قبرص، ثم تحركت من هناك جنوباً إلى ميناء فاماجوستا (الماغوصة)، وفي يوم السبت ٢٠ رمضان ٨٢٨هـ/ ١٣ آب ١٤٢٥م وصلت الحملة إلى ميناء فاماجوستا وأنزلت الخيل والمقاتلة عليها، وضرب هؤلاء خيامهم على البر[3]*، ولكن سرعان ما وصل رسول من صاحب الماغوصة يطلب الأمان والدخول في طاعة المسلمين، فأعطاه الأمير أماناً وأرسل إليه راية سلطانية ورفعها على القلعة في المدينة*[4]*، ومكث الغزاة في المدينة أربعة أيام شنّوا خلالها غارات عديدة على الضياع المجاورة وأوسعوها تخريباً وتحريقاً*[5].

---

١ – صالح بن يحيى: المصدر السابق، ص ٢٤٢، ٢٤٣.

٢ – ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر بأبناء العمر، ج٨، ص ٧٢.

٣ – المقريزي: السلوك، ج٤، ق٢، ص٦٩٤، ٦٩٥. الصيرفي: نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، ج٣، ص ٧٨.

٤ – الظاهري: زبدة كشف الممالك، ص١٤٠. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٤، ص١١٤. السخاوي: وجيز الكلام في الذيل على دول الإسلام، ج٢، ص٤٨٤.

٥ – ابن حجر العسقلاني: المصدر السابق، ج٨، ص ٧٢.

ثم أقلعت السفن الإسلامية جنوباً إلى ناحية الملاحة (لارناكا Larnaka)[1]*، فاعترضها أسطول قبرصي في إحدى عشرة سفينة أمام ساحلها حيث دارت معركة بحرية عنيفة انتهت بهزيمة القبارصة وفرارهم في عرض البحر تحت وطأة قذائف السفن الإسلامية بعد أن تركت وراءها إحدى وحداتها لتقع أسيرة في أيدي المسلمين*[2]*.*

لم يغر هذا النصر الأسطول الإسلامي بمطاردة السفن القبرصية في عرض البحر حيث كان المسلمون حريصين على ألا يتركوا بقية الجند في البر وحدهم فهؤلاء كانوا يسيرون بمحاذاة السفن وذلك ليتم التعاون بين الفريقين البري والبحري في تنفيذ مهامهم بنجاح ضد القبارصة، ثم نزلت قوات المسلمين إلى بر الملاحة لمقاتلة الجيش الذي أرسله الملك جانوس بقيادة أخيه إلى هناك، فانتصروا عليه وقتلوا وأسروا عدداً كبيراً من أفراده كما نهبوا الملاحة والقرى المجاورة حتى ضاقت مراكبهم عن حمل الأسرى، وامتلأت أيديهم بالغنائم[3]*، وبعد ذلك توجه المسلمون إلى ليماسول جنوباً فوصلوها أواخر رمضان سنة ٨٢٨ هـ / آب ١٤٢٥ م وأنزل الأسطول ما يقارب من مئة وخمسين من المقاتلين استطاعوا أن يستولوا على حصن المدينة، على الرغم من قوته ومناعته ورفعوا على قصرها الراية السلطانية* [4]*، وأراد الأمير جرباش الإبحار إلى بلدة الباف (بافوس) لمهاجمتها، إلاّ أن الرياح لم تساعده على ذلك، فرأى أنه من الأنسب العودة إلى مصر بعد أن بلغهم أن البندقية أرسلت نجدة كبيرة إلى قبرص، وإلى جانب هذا فإن الملك جانوس*

---

[1] – هي إحدى المدن الصغيرة على الساحل القبرصي وفيها خلجان مفتوحة، تضم بعض الآثار القوطية والبيزنطية. العبار: مشكلة قبرص بين الماضي والحاضر وأثرها على الموقف الدولي، ص١١. يحيى ومهنا: مشكلة قبرص، ص١٥.

٢ – المقريزي: السلوك، ج٤، ق٢، ص٦٩٥. صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص٢٤٥–٢٤٧.

٣ – الظاهري: زبدة كشف الممالك، ص ١٤٠، ١٤١. الصيرفي: نزهة النفوس والأبدان، ج٣، ص٧٨، ٧٩. المقريزي: المصدر نفسه، ج٤، ق٢، ص ٦٩٥.

٤ – ابن سباط: صدق الأخبار، ج٢، ص٧٨٨، ٧٨٩. صالح بن يحيى: المصدر السابق، ص٢٤٧.

صاحب قبرص جمع عساكر كثيرة، وبدأ يوحّد صفوفه ويستعد للقتال من جديد، فتخوّف الأمير جرباش من ضجر جنوده من طول القتال مع أهل قبرص، فتشاور مع الأمراء والأعيان الذين كانوا بصحبته، وفضّل الجميع العودة إلى مصر بعد هذه الانتصارات التي أحرزوها والغنائم الثقيلة التي حملتها السفن[١].

وعادت الحملة إلى مصر ووصلت القاهرة في ٢٥ شوال ٨٢٨هـ/١٧ أيلول ١٤٢٥م وبات الجند ليلتهم في ساحل بولاق حتى أصبح الصباح فتوجهوا إلى القلعة وبصحبتهم ما يزيد عن ألف أسير، ومن الغنائم الشيء الكثير، حيث عرضت الغنائم والأسرى أمام السلطان في احتفال شعبي كبير وقام برسباي بالإنعام على أفراد الحملة لما حققوه من نجاح فكان ذلك يوماً من أبهج الأيام التي مرت بها القاهرة[٢].

وهنا لابد من وقفة قصيرة بين الحملة القبرصية على الإسكندرية سنة ٧٦٧هـ/١٣٦٥م زمن السلطان الطفل الأشرف شعبان والحملة المملوكية الثانية على جزيرة قبرص زمن السلطان الأشرف برسباي سنة ٨٢٨هـ/١٤٢٥م حيث يتضح أن المماليك انتقموا لما تعرضت له مدينة الإسكندرية على يد بطرس الأول دي لوزينيان وذلك بعد مضي ستين عاماً، حيث دارت الدوائر وانتقم المسلمون لأنفسهم ولشهدائهم أشد انتقام، وكذلك أثبتت الحملة تماسك السلطنة المملوكية في مصر وبلاد الشام واتحاد المسلمين معهم لضرب القبارصة، وقدرتهم على التصدي لأعدائهم وأخذهم بزمام المبادرة في الوقت الذي يريدون.

---

١ – ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٤، ص١١٦. المقريزي: السلوك، ج٤، ق٢، ص ٦٩٥. عاشور: قبرس والحروب الصليبية، ص١٠١.

٢ – السخاوي: وجيز الكلام في الذيل على دول الإسلام، ج٢، ص٤٨٤. صالح بن يحيى: المصدر السابق، ص٢٤٧. ابن حجر العسقلاني: المصدر السابق، ج٨، ص٧٣. المقريزي: السلوك، ج٤، ق٢، ص٦٩٦.

ج – الحملة المملوكية الثالثة على جزيرة قبرص سنة ٨٢٩هـ/١٤٢٦م :

على الرغم من نتائج حملة الأشرف برسباي الثانية على جزيرة قبرص، وتحقيقها قدراً كبيراً من الانتصارات، فإنها لم تحقق الهدف الذي كان يصبو إليه السلطان الأشرف برسباي وهو الاستيلاء على الجزيرة وإخضاعها لنفوذ السلطنة المملوكية وسيادتها، حتى يقضي على ذلك الوكر الذي اتخذه القراصنة مركزاً لهم لمهاجمة البلاد الإسلامية.

فما إن عادت الحملة المملوكية الثانية من قبرص، حتى شرع السلطان في التجهيز لإرسال حملة ثالثة إليها، وقد تسربت أنباء إعداد الحملة المملوكية على قبرص إلى الإمبراطور البيزنطي يوحنا الثامن باليولوغ (٨٢٨-٨٥٢هـ/ ١٤٢٥-١٤٤٨م) فأرسل سفارة إلى السلطان برسباي وقد حُمّلت بالهدايا الثمينة لعله يقنع بعدم مهاجمة الجزيرة، ولكن برسباي لم يكن يبحث عن مثل تلك الهدايا ولم يأخذ باقتراح السفارة[١]، وزاد من عزيمته على الإسراع بإعداد الحملة تحريض الجنوية له ضد ملكها جانوس لوزينيان بسبب عدائهم له[٢]، وكذلك استنجاد بعض الشعوب الإسلامية من الأتراك على شاطئ آسيا الصغرى بدولة المماليك لحمايتهم من عدوان القبارصة، فضلاً عما بلغه من أن ملك قبرص جدّ في عمارة المراكب والقراقير وغيرها واستنجاده بملوك غرب أوربا وعزمهم على المسير إلى شواطئ السلطنة المملوكية[٣] ((**فأمر السلطان بعمارة أغربة وحمّالات بجميع السواحل وابتاع قراقير حتى إنها تجمّعت القراقير والحمّالات والأغربة**

١ – عاشور: قبرص والحروب الصليبية، ص١٠٤. فرح: تاريخ بيزنطة السياسي، ص٣٣٢-٣٤٥.

٢ – كان سبب عداء الجنوية لملك قبرص أنهم لم يغفروا له مهاجمة فاماجوستا، ومحاولة استردادها في أوائل حكمه، وعلى الرغم من صلحه معهم فإنهم ظلوا يضمرون له العداء لخوفهم من سوء نيته، إذ أصبح قوياً. انظر عاشور: المرجع نفسه، ص١٠٤.

٣ – السخاوي: وجيز الكلام في الذيل على دول الإسلام، ج٢، ص٤٨٩. السيوطي: غزوات قبرص ورودس، ص٥. الظاهري: زبدة كشف الممالك، ص١٤٢.

والبرصانيّات والخياطي والقوارب قريباً من مئة وثمانين قطعة))[١].

وأعلن الجهاد العام في جميع أنحاء بلاده واستجاب لندائه أعداد غفيرة من الناس من مصر وبلاد الشام حتى اضطر السلطان إلى الاعتذار لطلبات أعداد كبيرة من الناس لعدم وجود أماكن لهم في السفن المعدة لهذه الحملة، وكان ممن شارك في هذه الحملة عدد من الأعيان والفقهاء[٢]*. وندب السلطان برسباي الأميرين اينال الجكمي وتغري بردي المحمودي ليكونا قائدين للحملة، فجعل الأمير اينال الجكمي قائداً للأسطول، والأمير تغري بردي المحمودي الناصري قائداً على القوات البرية، وحدد اختصاصات كل منهما حتى لا يعارض أحدهما الآخر*[٣] ويلاحظ أن سير الحملة المملوكية الثالثة إلى قبرص قد اختلفت عن سير الحملتين السابقتين، حيث كان خروج الحملة الثالثة من الشواطئ المصرية إلى قبرص مباشرة دون المرور على موانئ الشام، لهذا كان على السفن التي صنعت في سواحل الشام أن تحضر إلى مصر للانضمام إلى الأسطول للإبحار معاً إلى قبرص .

ويروي صالح بن يحيى أنه كان على متن إحدى السفن القادمة من الشام التي وصلت متأخرة بسبب سوء الأحوال الجوية ومضادة الرياح لها، فلم تستطع اللحاق بالأسطول، واضطر صالح بن يحيى إلى البقاء في مصر لإصلاحها بعد أن صرف من عليها من المحاربين[٤]*.*

أقلعت المراكب الإسلامية من الإسكندرية في ٢٠ شعبان ٨٢٩ هـ/٤ تموز ١٤٢٦م

---

١ – الظاهري: المصدر نفسه، ص ١٤٢.

٢ – صالح بن يحيى: المصدر السابق، ص ٢٥٠. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٤، ص١٢٢.

٣ – الصيرفي: نزهة النفوس، ج٣، ص ٨٤. ابن حجر العسقلاني: أبناء الغمر، ج٨، ص٩٨.

٤ – صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص٢٥٠.

وكانت عددها ما يقارب من مئة وثمانين قطعة تحمل ما يزيد على خمسة آلاف مقاتل[١].

ومرت الحملة في طريقها برشيد لتتلاقى مع خمس سفن راسية هناك لتنضم إليها، ولكن لم تكد الحملة تغادر الإسكندرية حتى هبت عليها رياح قوية جعلت السفن تصطدم بعضها ببعض، فانكسر منها أربع وغرق عشرة أنفس ومئة فرس، وعندما بلغ الخبر مسامع السلطان تملكه القلق لدرجة أنه كاد أن يؤجل الحملة للعام التالي، ولكنه عاد وأرسل أحد أمرائه ليقف على حقيقة الأمر فعاد ذلك الأمير إلى السلطان وأخبره أن ما حدث بالمراكب يسهل ترميمه، وعندئذ هدأ السلطان واطمأن[٢]، وفي ذلك الحين كانت عدة سفن قبرصية أرسلها الملك جانوس تقترب من السواحل المصرية بين رشيد والإسكندرية ليأخذوا من يجدونه من المسلمين بساحل الإسكندرية ويقطعوا الطريق على السفن الإسلامية للوصول إلى قبرص[٣].

وقد صادف خروج قوة من الغزاة في عدة سفن من ميناء رشيد باتجاه الإسكندرية، فلما شاهد الغزاة السفن القبرصية أرسلوا بطلب النجدة من مدينة رشيد، ثم دخلوا في قتال مع القبارصة طوال الليل حتى صباح اليوم التالي إلى أن وصلت باقي المراكب التي تشكّل الجزء الأكبر من الأسطول المصري، فانضمت إليها وعندئذ أيقن القبارصة أنهم وقعوا بين نارين فأوقفوا القتال وولّوا الأدبار[٤].

أما الحملة الإسلامية فقد تابعت سيرها باتجاه قبرص إلى أن وصلتها في ٢٧ شعبان

---

١ – الظاهري: زبدة كشف الممالك، ص١٤٢. ابن حجر العسقلاني: المصدر السابق، ج٨، ص٩٨. طرخان (إبراهيم علي): مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة، القاهرة، ١٩٥٩ م، ص١٠٠.
.Hill (G): A history of Cyprus ,Cambridge , 1948, P. 476.

٢ – ابن تغري بردي: النجوم الظاهرة، ج١٤، ص ١٢٤، ١٢٥. الصيرفي: نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، ج٣، ص ٨٦.

٣ – السيوطي، غزوات قبرص ورودس، ص ٦.

٤ – ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر بأبناء العمر، ج٨، ص ٩٩.

٨٢٩هـ/١١ تموز ١٤٢٦م فرست السفن عند ليفادن على شاطئ أفذيمة على بعد بضعة أميال من ليماسول، فترلت القوات البرية إلى البر وضرب الجند خيامهم في أرض الجزيرة، وبقيت القوات البحرية في السفن على أهبة الاستعداد لمواجهة أي هجوم بحري مفاجئ[١].

وأسرعت القوات البرية بمهاجمة مدينة ليماسول التي سبق أن سيطر عليها المسلمون ودمروا قلعتها في الحملة الثانية، إلاّ أنهم وجدوا القبارصة قد أعادوا تحصينها من جديد وشحنها بالرجال، كما حفروا حولها خندقاً عميقاً، على أن ذلك لم يزد المسلمين إلاّ إصراراً وعناداً على تسلّق الأسوار وفتح القلعة، وبالفعل قاتل الجنود قتالاً شديداً، واستمرت المعركة ست ليالي متتالية تمكّن المسلمون بعدها من فتح قلعة ليماسول وشرعوا في هدمها وتخريبها، وقتلوا من فيها ورفعوا على قلعتها العلم الإسلامي مما كان سبباً كبيراً في ضعف الروح المعنوية للقبارصة عامة والملك جانوس خاصة[٢].

وفي أثناء القتال البري دخل ميناء ليماسول سفينة قبرصية مشحونة بالمقاتلين فأسرع الأمير تغري بردي على رأس سفينتين لمطاردتها، ولكن السفينة القبرصية ولّت الأدبار وظل المسلمون يراقبونها حتى شاهدوها ترسو عند موضع قريب، فانطلق فرسان المسلمين وترقبوا خروج جماعة من السفينة إلى البر فقتلوا منهم خمسة رجال وقطعوا رؤوسهم وعلّقوها على قلعة ليماسول[٣].

وبعد استيلاء المسلمين على ليماسول توجهوا إلى قرية قريبة منها تدعى (اسكتية)، وكانت تحت حكم البنادقة وخارجة عن حكم جانوس ملك قبرص، فطلب أهلها الأمان من المسلمين ولما حصلوا عليه حملوا إليهم الهدايا والضيافات، ثم بدؤوا بالاستعداد للزحف براً لمنازلة ملك قبرص بعد أن سمعوا من البنادقة أن الملك جانوس استعد في خمسة آلاف فارس وسبعة آلاف

---

١ – الصيرفي: المصدر السابق، ج٣، ص ٨٧. حسن سعيد: البحرية في عصر سلاطين المماليك، ص٢٦٤.

٢ – المقريزي: السلوك، ج٤، ق٢، ص ٧٢٢، ٧٢٣. ابن سباط: صدق الأخبار، ج٢، ص٧٩٠.

٣ – العيني: عقد الجمان، ص٢٧٩، ٢٨٠.

راجل، وكان جانوس قد قصد خيروكيتا Kherokita[1] *الواقعة في الشمال الشرقي من ليماسول وعسكر في سهل متسع استعداداً للقاء المسلمين*[2].

وقبل أن يرحل المسلمون من ليماسول لملاقاة الصليبيين (الفرنجة) رأوا أن يعطوا للملك جانوس فرصة أخيرة للصلح، فبعثوا إليه برسول كي يبلغه أن يدخل تحت طاعة المسلمين ليؤمنوه على نفسه وجنده وبلده وإلّا قاتلوه وخربوا قصره، فلما بلغته الرسالة أخذته الحمية فقتل الرسول وأحرقه وشرع من فوره بحشد المزيد من قواته حتى بلغت عدتها ثلاثة وعشرين ألف فارس، فضلاً عن الراجلة، كما جهز أربع عشرة سفينة ((**حتى إذا ظهر عسكر الإسلام للقائه يحطمون على المراكب ويأخذونها وقطع وجزم أنه هو الغالب**))[3]، *ولما بلغ قادة الحملة الإسلامية أخبار ما فعله الملك جانوس لم يبقَ أمامهم سوى القتال فعزموا على الزحف إلى داخل الجزيرة للاستيلاء على عاصمتها نيقوسيا Nicosia، واستقر الرأي بينهم على أن ينقسموا في زحفهم إلى قسمين، قسم بري بقيادة الأمير تغري بردي المحمودي، وقسم بحري بقيادة الأمير اينال الجكمي، على أن تسير القوات البرية بمحاذاة القوات البحرية لكي لا تتعرض السفن لهجوم الأسطول القبرصي في غياب الجيش، وأن يكون اجتماع القسمين بميناء الملاحة.*

ولا شك في أن هذه الخطة التي ضمنت دوام القرب والاتصال بين الجيش والأسطول ((**كانت من أكبر المصالح**)) على حد تعبير المؤرخ ابن تغري بردي[4]، *وأثناء مسير القوات البرية*

---

[1] – هي مدينة دائرية الشكل بنيت على مكان مرتفع، نشأت فيها حضارات منذ أقدم العصور دل على ذلك الآثار المكتشفة في عمليات التنقيب. عتمان: تاريخ قبرص جزيرة الجمال والألم منذ القدم وإلى اليوم، ص٢٥، ٢٦.

٢ – السيوطي: غزوات قبرص ورودس، ص٧. ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر بأبناء العمر، ج٨، ص١٠٠.

٣ – الظاهري: زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، ص١٤٢.

٤ – ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٤، ص١٢٧. المقريزي: السلوك، ج٤، ق٢، ص٧٢٢.

الإسلامية نحو الملاحة، ظهر لهم الملك جانوس على رأس قواته عند (خيروكيتا) Kherokita الواقعة فيما بين ليماسول والملاحة، وفي هذا المكان دارت بين الفريقين في يوم الأربعاء ٤ رمضان ٨٢٩ هـ/ ١٨ تموز ١٤٢٦م موقعة حاسمة انتهت بهزيمة القبارصة وأسر ملكهم جانوس مع أعداد كبيرة من أفراد قواته في أيدي المسلمين بينما قتل أخوه في ميدان المعركة وقيل إن جملة من قتل من الصليبيين (الفرنجة) في ذلك اليوم ستة آلاف[١].

وبعد مسح المنطقة عسكرياً توجّه الأمير تغري بردي على رأس قواته البرية إلى العاصمة ((الأفقسية)) (نيقوسيا)، فيما استمر الأمير اينال الجكمي على رأس السفن في الملاحة لحفظ جانب البحر[٢].

ولم تكد القوات البرية تتخذ طريقها إلى نيقوسيا حتى أبصرت في البحر قوة قبرصية قوامها أربع عشرة سفينة، سبعة قراقير وسبعة أغربة، وعندما رأى القبارصة خلو البحر من جند المسلمين شنّوا هجوماً على مراكبهم، فأمر اينال الجكمي من معه أن يقاتلوا بمدافعهم، وأرسل إلى تغري بردي المحمودي يعلمه بما حدث حتى يعود لمساعدته، وعندئذ بعث تغري بردي معظم من معه من المشاة والأمراء وهو آمن من ناحية القبارصة لانهيار مقاومتهم بعد أسر ملكهم، واكتفى هو بستين فارساً لا غير[٣].

ولما وصل العسكر إلى اينال الجكمي أسرعوا إلى طلوع المراكب ودارت معركة بحرية عنيفة بين السفن الإسلامية والأسطول القبرصي، حيث اشتد القتال بين الطرفين واستمر نهار وليل يوم الخميس ٥ رمضان ٨٢٩ هـ/١٩ تموز ١٤٢٦م، واجتهد الأمير اينال الجكمي هو ومن معه من

---

١ – ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ج٨، ص١٠١. السخاوي: وجيز الكلام، ج٢، ص٤٨٩. الظاهري: المصدر السابق، ص١٤٣. حسن سعيد: البحرية في عصر سلاطين المماليك، ص٢٦٤.

٢ –الصيرفي: نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، ج٣، ص٩١.

٣ – السيوطي: غزوات قبرص ورودس، ص٩. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٤، ص١٢٩، ١٣٠.

الغزاة، وقاتلوا قتالاً عظيماً وأبلوا بلاءً حسناً، وأظهر المسلمون في هذه المعركة براعة حربية بحرية كبيرة لدرجة أن بعضهم كان يلقي بنفسه على مراكب القبارصة على الرغم من ((**تكاثر المدافع والسهام**))[1]، ويبدو أن رجال الأسطول القبرصي لم يعلموا بهزيمة القوات البرية ووقوع ملكهم في الأسر فاستبسلوا في القتال، وانتهت المعركة البحرية بين الطرفين بانتصار المسلمين وأسرهم لإحدى السفن القبرصية بينما فرّت باقي سفنهم إلى عرض البحر بعد أن قتل من بحارتها ما يزيد على مئة وسبعين نفساً[2].

ولم يجد المسلمون بعد ذلك صعوبة في دخول مدينة نيقوسيا عاصمة قبرص، حيث طلب أهلها الأمان فأمّنهم الأمير تغري بردي ثم فتحوا المدينة، فدخلها في يوم الجمعة ٦ رمضان ٨٢٩هـ/٢٠ تموز ١٤٢٦م وأمر أن ينادى في أنحاء البلاد بالأمان وبأن الجزيرة ((**صارت من جملة بلاد السلطان الأشرف برسباي**))[3]، ودخل تغري بردي القصر الملكي فوجد به من الأمتعة ما لا يحصى، وأذّن المسلمون لصلاة الجمعة على صوامع الكنائس، فأقاموا بها الصلاة، واتفق أعيان نيقوسيا وتجارها على أن يجمعوا مالاً للسلطان نظير الأمان الذي منحه لهم، فقدموا للأمير تغري بردي المحمودي بعض الأموال وتعهدوا بدفع الباقي، فضلاً عما استولى عليه من خزانة الدولة[4].

ثم بعد ذلك فكرت الحملة في العودة إلى مصر، فترك المسلمون نيقوسيا بعد أن مكثوا فيها يومين وليلة واحدة، فاتجهت الحملة إلى الملاحة حيث كانت بقية الحملة موجودة هناك، وفي أثناء

---

١ – الصيرفي: المصدر السابق، ج٣، ص٩١. المقريزي: السلوك، ج٤، ق٢، ص٧٢٢.

٢ – ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر بأبناء العمر، ج٨، ص١٠٢، ١٠٣.

٣ – الظاهري: زبدة كشف الممالك، ص ١٤٣، ١٤٤. الصيرفي: نزهة النفوس، ج٣، ص٩١، ٩٢.

٤ – ابن حجر العسقلاني: المصدر السابق، ج٨، ص ١٠٣. السخاوي: المصدر السابق، ج٢، ص٤٨٩. عاشور: قبرس والحروب الصليبية، ص ١١٤، ١١٥.

مقامهم فيها أرسل أهل الماغوصة (فاماجوستا) يطلبون الأمان من قادة المسلمين فأمّنوهم، وبعد أن أمضت الجيوش الإسلامية سبعة أيام في ميناء الملاحة ((**أراحوا فيها أبداهم وأقاموا شعائر الإسلام من الصلاة والأذان**)) *عادت الحملة إلى مصر في أوائل شوال ٨٢٩هـ/منتصف آب ١٤٢٦م ومعها آلاف الأسرى وعلى رأسهم جانوس ملك قبرص مكبلاً بالحديد*[1].

فخرجت القاهرة لاستقبالها باحتفال كبير، ويصف المؤرخ المعاصر صالح بن يحيى هذا الاستقبال كما رآه بقوله: ((**تناهت الناس في الزينة، فكانت زينة لا رأيت مثلها، ورأيتهم قد رتبوا جند مصر وعسكرها صفين إلى باب القلعة، ودخلوا بالملك بين الصفين وقد ركبوه على بغل عالي والنهب والأسر تساق قدامه، وكان ذلك اليوم بمصر يوماً مشهوداً ما عهد مثله**))[2]، *واستقبل السلطان الحملة أحسن استقبال، وهنأ القواد والجند بالنصر العظيم، وأنعم عليهم بالرتب وأجزل لهم العطاء، ووزع عليهم الكسوات التقليدية*[3].

وبهذه القوة وبهذا التنظيم استطاع المسلمين تحقيق هذا النصر الذي كانت له آثاره في أمن مصر وبلاد الشام واستقرارهما.

٥ – نتائج فتح المماليك لجزيرة قبرص :

استعصت قبرص على المسلمين وقضت مضاجعهم وسلبت منهم الأمن والاستقرار، وهذا ما أدى إلى إرسال ثلاث حملات بحرية من قبل السلطنة المملوكية استطاعت من خلالها فتحها والقضاء على قراصنتها والمجيء بسيدها أسيراً إلى مصر، وقد أسفرت تلك الحملات عن نتائج

---

١ – المقريزي: السلوك، ج٤، ق٢، ص ٧٢٢، ٧٢٣. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٤، ص١٣٠. القرماني: أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ، ج٢، ص ٣٠٧.

٢ – صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص ٢٥١.

٣ – الظاهري: زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، ص ١٤٤. الصيرفي: نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، ج٣، ص ٩٤.

مهمة وهي :

١ – *استطاعت تلك الحملات تقليم أظافر قراصنة قبرص ووضعت حداً لاعتداءاتهم المتكررة على السفن الإسلامية وسواحل مصر وبلاد الشام.*

٢ – *أدت تلك الحملات إلى تدمير القوة البحرية القبرصية التي كانت عماد القرصنة في البحر الأبيض المتوسط.*

٣ – *لقنت تلك الحملات التي قام بها المماليك على جزيرة قبرص القبارصة درساً، بل إنها كانت درساً لأوربا وغيرها من قوى الشر والعدوان الطامعة ببلاد العرب والمسلمين.*

٤ – *عادت تلك الحملات محملة بالغنائم وقد ساقت أمامها الكثير من الأسرى القبارصة*(١).

٥ – *أثبتت الحملات أن المسلمين ليسوا هواة قتل وتشريد بل اضطروا إلى ذلك إثر ما قامت به القيادة القبرصية من تشجيع لقراصنتها لمواصلة عدوانهم وضربهم للسواحل العربية الإسلامية والسطو على متاجرها.*

٦ – *أكدت الحملات البحرية الإسلامية ضد جزيرة قبرص قدرة المماليك على مجابهة الأخطار التي تحيط بهم وتهدد كيانهم السياسي والاقتصادي.*

٧ – *أكدت تلك الحملات على قدرة الأسطول والسلاح المملوكي على خوض أشد المعارك وأعتاها عند الحاجة*(٢).

٨ – *مكّنت هذه الحملات سلطنة المماليك من أن تصبح سيدة الموقف في الحوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسط، وبذلك يكون السلطان برسباي قد حقق نصراً كبيراً لدولة المماليك البرجية مما أضفى على حكمه أهمية كبرى.*

---

١ – ابن حجر العسقلاني: المصدر السابق، ج٨، ص ١٠٥، ١٠٦. الصيرفي: المصدر السابق، ج٣، ص٩٣. العبادي وسالم: تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام، ص٣٣٥.

٢ – عاشور: قبرص والحروب الصليبية، ص١٢١. سعاد ماهر: البحرية في مصر الإسلامية، ص١٢٣.

٩ - *تطوير النشاط التجاري المملوكي بعد القضاء على قراصنة قبرص وتوسيع العلاقات البحرية مع المناطق الإسلامية والإمبراطورية البيزنطية والدول والمماليك الأوربية، وخاصة الإيطالية منها*(١).

١٠- *الصلح الذي عبّر عن مدى إنسانية المماليك في معاملة أعدائهم من خلال الصلح بين السلطان الأشرف برسباي وحاكم قبرص الأسير جانوس لوزينيان.*

وبعد أن قبّل جانوس الأرض مراراً تحت أقدام السلطان برسباي، وافق هو الآخر على عقد صلح معه، وقد تقرر في ذلك الصلح مايلي :

أ - *يدفع جانوس مبلغ مئتي ألف دينار للدولة المملوكية على أن يدفع قسماً منها عاجلاً وقسماً منها إثر عودته إلى قبرص.*

ب - *أن يدفع جانوس جزية سنوية قيمتها عشرون ألف دينار وبشكل دائم.*

ج - *خلع السلطان عليه* ((**خلعة عظيمة وأنعم عليه بفرس بسرج ذهب**)) *ثم أمره أن يدور على الأمراء الكبار ويسلّم عليهم، وإثر ذلك توجّه إلى الإسكندرية وعاد إلى قبرص مودعاً توديعاً لائقاً*(٢).

وبهذا الإنجاز العظيم الذي حققه السلطان الأشرف برسباي ألا وهو إخضاع جزيرة قبرص لدولة المماليك، استطاع رد الاعتبار من القبارصة لما حل بدولة المماليك على أيديهم من

---

١ - ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ج٨، ص١٠٥. طقوش: تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، ص٥٢٠. عادل زيتون: العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، ص ١٨٧-٢٥٣.

٢ - ابن سباط: صدق الأخبار، ج٢، ص٧٩١. المقريزي: السلوك، ج٤، ق٢، ص٧٢٦. السخاوي: وجيز الكلام في الذيل على دول الإسلام، ج٢، ص٤٨٩، ٤٩٠. القرماني: أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ، ج٢، ص٣٠٧. العيسى: المعجم المختصر للوقائع التاريخية العسكرية – الاجتماعية – الدينية – من بدء الهجرة حتى عام ١٩٥٠ ميلادية، ص٤١٤.

هجمات على سواحل مصر وبلاد الشام، وخاصة حملة بطرس الأول لوزينيان على الإسكندرية سنة ٧٦٧هـ/١٣٦٥م وفي المقابل أصبحت جزيرة قبرص جزءاً من السلطنة المملوكية تدور في فلكها وتدفع لها الجزية حتى سقوط المماليك على أيدي العثمانيين سنة ٩٢٣هـ/١٥١٧م.

ثانياً – نشاط دولة المماليك الحربي ضد جزيرة رودس:

١ – لمحة جغرافية عن جزيرة رودس:

لا بد من التعرف على جغرافية رودس وطبيعتها قبل أن نتحدث عن الجوانب التاريخية للجزيرة، فلا يمكننا الحديث عن تاريخ منطقة معينة قبل أن نتعرف على موقعها الجغرافي والطبيعي بشكل دقيق لأن العلاقة جدلية ما بين الجغرافية والتاريخ، فكما يقال لا تاريخ بدون جغرافية.

رودس: بضم الراء المهملة ثم واو ساكنة ودال مهملة، ويقال معجمة مكسورة ثم سين مهملة[١]، وهي كلمة يونانية معناها (رودن) أي الورد أو (روديون) وتعني السرمان في اللغة اليونانية وقيل إن أصلها رودقية وهو الغار، حيث تشتهر رودس بأشجار الغار التي تملأ تلالها[٢]، في حين ذهب بعضهم إلى أنها عُرفت باسم رودانيم أحد أبناء يافث بن نوح عليه السلام[٣]، وردوس جزيرة عظيمة بين بحر الروم وبحر إيجه[٤] على بعد ميل من شاطئ آسيا الصغرى الجنوبي الغربي يفصلها

---

١ – أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٩٤.

٢ – سرهنك: حقائق الأخبار عن دول البحار، ص٤٧٣. ياقوت الحموي: منجم العمران في المستدرك على معجم البلدان، ص٢١٠.

٣ – غزالة بك (حبيب): جزيرة رودس جغرافيتها وتاريخها وآثارها، مطبعة الاعتماد، مصر، ١٩٢٩م، ص١١.

٤ – واصف بك (محمد أمين): الفهرست معجم الخريطة التاريخية للمالك الإسلامية، تحقيق: أحمد زكي باشا، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، ١٩١٦ م، ص ٥٩.

عنها خليج عرضه (١٠) أميال[1]، وهي في الإقليم الرابع[2]، موقعها في عرض (٣٦ْ) درجة و(٣٠) دقيقة شمالاً وطول (٢٨ْ) درجة و(٢٠) دقيقة شرقاً[3]، وهي ذات شكل مستطيل أشبه بالسفينة مساحتها تقدر بنحو (١٤٠٠) كم٢ [4]، ورودس جزيرة مقابل الإسكندرية على ليلة في البحر[5].

تتميز تضاريسها بسلاسل جبلية متشعبة، أعلى قممها جبل تاريوس الذي يصل ارتفاعه حوالي (١٢٠٠) م، ثم يليه في الارتفاع جبل اكراميتي وارتفاعه (٨٢٠) م، ثم جبل النبي إيليا وعلوه (٧٩٠) م، وفيها مناجم رخام ومغاص للإسفنج والمرجان[6]، يحيط بجزيرة رودس جنان واسعة فهي ذات طبيعة جبلية تتخللها الأودية الخصبة[7] والعيون العذبة، والجو صافٍ، والنسيم لا ينقطع عنها صيفاً ولا شتاءً، والحرارة معتدلة أقصاها (٢٨ْ) درجة ولا تتجاوز الصفر في الشتاء[8]، وفيها معظم الفاكهة، ويزرع فيها النخيل والنارنج والليمون، كما توجد فيها أنواع كثيرة من النباتات والحيوانات الأليفة والبرية[9].

---

١ – ياقوت الحموي: منجم العمران في المستدرك على معجم البلدان، ص ٢١٠.

٢ – ياقوت الحموي: معجم البلدان، مج ٣، ص ٧٨.

٣ – ياقوت الحموي: منجم العمران، ص ٢١٠.

٤ – غزالة بك: المرجع السابق، ص ١٠.

٥ – السيوطي (جلال الدين): الدر المنثور في التفسير المأثور، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، مركز الدراسات العربية، القاهرة، ط ١، ٢٠٠٣م، ج١٠، ص ٥٣٤. البغدادي: مراصد الإطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، ج ٢، ص ٦٤٠.

٦ – غزالة بك: المرجع السابق، ص ٩،١٠.

٧ – شيخ الربوة: نخبة الدرر في عجائب البر والبحر، ص١٤١.

٨ – غزالة بك: جزيرة رودس، ص ٩.

٩ – العباسي (عبد الرحيم): منح رب البرية في فتح رودس الأبية، حوليات كلية الآداب، تصدر عن مجلس النشر العلمي، جامعة الكويت، الكويت، ١٩٩٧ م، الحولية الثامنة عشرة، ص ١٥–٨٤.

ومن أشهر مدن جزيرة رودس (لندوس) الواقعة على الساحل الشرقي وعلى بعد (٥٢) كم من مدينة رودس ولا تزال آثارها القديمة باقية إلى الآن تشهد بما كانت عليه من العظمة وعلو الشأن، وكان فيها الأكروبول الشهير، وفيه هيكل لأثينا ربة الحكمة (منيرفا عند الرومان) وهو على قمة جبل عال[1].

ومدينة (رودس) تقع في الطرف الشمالي الشرقي من الجزيرة وهي متقنة البناء والإحكام، تحيط بها أسوار عالية وخنادق عميقة، وما زالت الأسوار والخنادق والمتاريس كما كانت عليه في عهد الفرسان الإسبتارية، وكذلك يوجد فيها بعض البيوت التي تعد آية في الروعة والجمال، وقد بنيت هذه المدينة سنة (٤٠٨) ق. م[2].

٢ – الأسباب التي دفعت السلطنة المملوكية إلى غزو جزيرة رودس:

لم يبقَ من فلول الصليبيين (الفرنجة) في الشرق الأدنى بعد فتح جزيرة قبرص على أيدي المسلمين في عهد السلطان المملوكي الأشرف برسباي وإخضاع آل لوزينيان سوى دولة الفرسان الإسبتارية في جزيرة رودس التي تعد من الجزر الهامة في شرق البحر الأبيض المتوسط حيث تمتاز بموقعها الإستراتيجي الممتاز خاصة وأنها تتوسط قارات العالم الثلاث وإثر طرد الصليبيين من بلاد الشام سنة ٦٩٠هـ/١٢٩١م استقر فيها الكثير منهم وبخاصة فرسان الإسبتارية الذين شكلوا قاعدة حربية مركزية فيها لتجمّع الصليبيين وانطلاقهم لمهاجمة السواحل الإسلامية بالاشتراك مع آل لوزينيان ملوك قبرص، فكانت قلعة صليبية خطيرة هددت طريق السفن الإسلامية بكل وسائل القرصنة المختلفة وباتت مركزاً مناوئاً للمماليك في مصر وبلاد الشام، هذا يعني أنه صار لها أهداف صليبية متشابهة مثل أهداف ملوك قبرص.

---

١ – غزالة بك: المرجع السابق، ص ٤٨.

٢ – العباسي: المصدر السابق، ص ١٥ – ٨٢. غزالة بك: المرجع السابق، ص٣٩.

ونتيجة لهذا التشابه شمل الجزيرتين نوع من التعاون السياسي والتضامن الحربي المشترك ضد المسلمين في مصر وبلاد الشام وآسيا الصغرى، وأصبح تاريخ كل منهما، فيما يتعلق بالسياسة الخارجية، مرتبطاً تمام الارتباط بتاريخ الأخرى[1]، ومن الجدير بالذكر أن حملة الملك بطرس الأول دي لوزينيان على الإسكندرية سنة ٧٦٧هـ/١٣٦٥م أبحرت من جزيرة رودس بعد أن انضمت إليها أعداد كبيرة من فرسان الإسبتارية مع بعض سفنهم الحربية[2]، وكان نجاح السلطان الأشرف برسباي في الاستيلاء على جزيرة قبرص حافزاً للسلطان المملوكي الظاهر جقمق (٨٤٢– ٨٥٧هـ/١٤٣٨ – ١٤٥٣م) لمحاولة الاستيلاء على جزيرة رودس[3]، التي كان السلطان برسباي قد عزم على غزوها بعد فتحه لجزيرة قبرص لولا توتر العلاقات بين السلطنة المملوكية وعدد من الدول المجاورة لها في الشرق الإسلامي من عثمانيين (أتراك) وتيموريين

---

١ – عاشور: الحركة الصليبية، ج ٢، ص ١٢٣٥.

٢ – اديوري: قبرص والحروب الصليبية، ص ١٤٤. رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج٣، ق٢، ص٧٤٣. عتمان: تاريخ قبرص جزيرة الجمال والألم منذ القدم وإلى اليوم، ص ١٥١.

٣ – السلطان الظاهر سيف الدين أبو سعيد جقمق بن عبد الله العلائي الظاهري الجركسي وهو الرابع والثلاثون من ملوك الترك، والعاشر من الجراكسة، اعتلى عرش السلطنة المملوكية بعد خلع الملك العزيز يوسف بن الملك الأشرف برسباي بالاتفاق مع الأمراء وأعيان المملكة على سلطنته. انظر ابن تغري بردي (جمال الدين): المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، ترجمة: تاج الشويكي وجكم النوروزي، تحقيق: محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦م، ج٤، ص٢٧٥. ابن تغري بردي: الدليل الشافي على المنهل الصافي، ج١، ص٢٤٦. السخاوي: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ج٣، ص٧١. الشوكاني: البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، ج١، ص ١٢٧، ١٢٨. السيوطي (جلال الدين): نظم العقيان في أعيان الأعيان، حرره: فيليب حتي، المطبعة السورية الأمريكية، نيويورك، ١٩٢٧م، ص٣٠٣. البغدادي (ابن فتح الله): التاريخ الغياثي، نشره: طارق نافع الحمداني، بغداد، ١٩٧٥م، ص٣٥٧. الصرفي (رزق الله منقريوس): تاريخ دول الإسلام، مطبعة الهلال، مصر، ١٩٠٨م، ج٣، ص٨٠. ابن حجر العسقلاني (أحمد بن علي): نزهة الألباب في الألقاب، تحقيق: عبد العزيز محمد بن صالح السديري، مكتبة الرشيد، الرياض، ١٩٨٩م، مج١، ص٤٥٥.

(مغول) والإمارات التركمانية في آسيا الصغرى، هذا فضلاً عما حل بالدولة المملوكية في آخر عهد برسباي من حملة الطواعين والمجاعات والقلاقل وارتفاع الأسعار، ولذا فقد اضطر السلطان برسباي إلى تأجيل فتح جزيرة رودس ريثما تحين الفرصة المناسبة لذلك[1].

ولا شك في أن الإسبتارية في رودس أحسوا بالخطر عقب نجاح المماليك في فتح جزيرة قبرص، وقد تأكدت مخاوفهم من خلال المفاوضات التي جرت حول فدية الملك جانوس حينما صرّح السلطان برسباي عن ضرورة إرسال حملة إلى رودس، ولتفادي رغبة برسباي وطموحه بغزو جزيرة رودس والسيطرة عليها فقد أسرع فرسان الإسبتارية بتقديم الهدايا للسلطان المملوكي في القاهرة، وعرضوا عليه عقد معاهدة صداقة، وعدم اعتداء على ممتلكات السلطنة المملوكية[2]، وفي ذلك قال المقريزي: ((**وقدم رسول صاحب رودس يسأل الأمان، وأن يعفى من تجهيز العسكر إليه وأنه يقوم بما يطلب منه، فأركب فرساً وفي صدره صليب من ذهب وطلع القلعة، وقبّل الأرض بين يدي السلطان وأدى رسالته ثم نزل إلى القاهرة**))[3]، *غير أن الإسبتارية لم يلتزموا بما أخذوه على أنفسهم تجاه الدولة المملوكية، فما لبثوا أن عادوا إلى سيرتهم الأولى في القرصنة والاعتداء على سواحل السلطنة المملوكية، وفي الوقت نفسه أقاموا الحصون والأسوار والأبراج لحماية جزيرتهم وكذلك أرسلوا الجواسيس إلى سواحل مصر وبلاد الشام لمعرفة نوايا السلطنة المملوكية ضد جزيرة رودس*[4].

---

١ – المقريزي: السلوك، ج ٤، ص٧٣٤–٧٣٧–٧٦٧. عاشور: قبرس والحروب الصليبية، ص٥٨. طرخان: مصر في عصر دولة المماليك الشراكسة، ص١٠٥. زيادة (محمد مصطفى): المحاولات الحربية للاستيلاء على جزيرة رودس، مجلة الجيش المصري، ١٩٤٦م، ص١١–١٠٧–١٠٩–١٩٦.

٢ – ماهر: البحرية في مصر الإسلامية، ص١٢٠، ١٢١، ١٢٢. عاشور: العصر المماليكي، ص١٧٨. عبادي وسالم: تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام ص٣٣٦.

٣ – المقريزي: السلوك، ج ٤، ص ٧٤١.

٤ – حسن سعيد: البحرية في عصر سلاطين المماليك، ص٢٦٩. عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص١٢٣٥.

وبالفعل تجددت فكرة غزو رودس على يد السلطان الظاهر جقمق حيث تذرع بهجمات القراصنة المنطلقة من جزيرة رودس لقطع الطريق على السفن الإسلامية وتهديدها بكل الوسائل ولاسيما بعد فتح المماليك لجزيرة قبرص سنة ٨٢٩هـ/١٤٢٦م، ومن أمثلة تلك الغارات ما حدث سنة ٨٤٣هـ/١٤٣٩م حيث قامت أربع شواني للفرنجة بالإغارة على مدينة رشيد وأخذت ما بها من أبقار وغيرها[1] إزاء ذلك كان لابد للسلطان الظاهر جقمق أن يقوم بعمل كبير وحاسم ضد فرسان الإستبارية ألا وهو غزوهم في عقر دارهم، هذا فضلاً عن أن السلطان مراد الثاني العثماني (٨٢٤-٨٥٥هـ/١٤٢١-١٤٥١م) شجع السلطان المملوكي الظاهر جقمق على غزو جزيرة رودس ليصرف الفرسان الإسبتارية إلى الدفاع عن جزيرتهم بدلاً من الانضمام إلى الحلف الصليبي (الفرنجي) الذي أخذت بعض الدول المسيحية تعمل على تأليفه لمقاومة الفتوح العثمانية التي كانت قد بدأت في بلاد البلقان وأوربا الشرقية لنشر تعاليم الإسلام[2]، ويمكن الإشارة إلى أن السلطان الظاهر جقمق فكر في صرف أنظار المعارضين لحكمه بمهاجمة جزيرة رودس، حيث خرج الكثير من الأمراء عن طاعة السلطان جقمق وبخاصة زعيم البحرية اينال الجكمي، فوجد في غزوه لرودس إشغالاً لأولئك الأمراء المعارضين لحكمه بمسألة خارجية[3]، ومن الأسباب التي دفعت السلطان الظاهر جقمق إلى غزو جزيرة رودس أن أسطول السلطان الأشرف برسباي الذي غزا به جزيرة قبرص كان لا يزال في حالة معنوية عالية وتدريب جيد، بالإضافة إلى قرب جزيرة ردوس من قبرص التي تقع تحت سيطرة دولة المماليك حيث أراد

١- المقريزي: السلوك، ج٤، ص١١٦. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٥ ص٩٧.

٢ - ماهر: البحرية في مصر الإسلامية، ص١٢٤. حسن سعيد: البحرية في عصر سلاطين المماليك، ص٢٦٨. عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص١٢٣٥.

٣- ابن سباط: صدق الأخبار، ج٢، ص٧٩٣ – ٧٩٦. منقريوس الصرفي: تاريخ دول الإسلام، ج٣، ص٨٠.

جقمق مد سلطانه بالكامل على الحوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسط والقضاء على مركز القرصنة في جزيرة رودس التي أثارت القلق والاضطرابات للسلطنة المملوكية وتجارتها[1].

ولهذا بدأ السلطان الظاهر جقمق يعد العدة لغزو جزيرة رودس، حيث أرسل إليها ثلاث حملات على التوالي والتي سيأتي ذكرها بشيء من التفصيل.

٣- الحملات البحرية المملوكية على جزيرة رودس في عهد السلطان الظاهر جقمق:

أ. **الحملة الاستكشافية الأولى للسلطنة المملوكية على جزيرة رودس سنة ٨٤٤هـ/١٤٤٠م :**

قرر السلطان الظاهر جقمق غزو جزيرة رودس متذرعاً بهجمات القراصنة التي تخرج منها للاعتداء على سواحل السلطنة المملوكية وممتلكاتها كما مرَّ سابقاً، *فأمر السلطان جقمق بتجهيز السفن في دور الصناعة وعندما علم (جان دي لاستيك) Gan de lastic مقدم الإستبارية باستعداد الظاهر جقمق لغزو جزيرة رودس أرسل وكيله أو نائبه في سفينتين لكشف أخبار السواحل المصرية، وعلم الوكيل بكل ما يجري من استعدادات لغزو رودس عن طريق عدد من مسيحيي دمياط*[2] *وعاد إلى قبرص وأخبرهم باستعداد المسلمين لهذا الغزو، فبدأ لاستيك بتحصين الجزيرة براً وبحراً، فأعد ثماني سفن وأربعة شواني وجملة من النقلات وشحنها بالمقاتلة، كما أرسل إلى القوى المسيحية في أوربا يستنجد بها خوفاً من أن يحل بهم ما حل بأهل قبرص،*

---

١ - حسن سعيد: المرجع السابق، ص٢٦٨، ٢٦٩.

٢ - المقريزي: السلوك، ج٤ ق٣، ص١٢٠. زيادة: المحاولات الحربية، ص١١٤. عاشور (سعيد عبد الفتاح): الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٩٦م، ص٣١٨. طرخان: مصر في عصر دولة المماليك الشراكسة، ص١٠٦.

فأصبحت رودس بعد هذه الإجراءات التي اتخذها رئيس الإسبتارية على أهبة الاستعداد للدفاع عن نفسها ضد أي هجوم إسلامي مفاجئ[1].

بعد أن أتم الأسطول الإسلامي المملوكي استعداداته الحربية أبحر من ساحل بولاق في ٩ ربيع الأول ٨٤٤هـ/١٦ آب ١٤٤٠م وتألفت هذه الحملة البحرية من خمس عشرة سفينة حربية كبيرة من الطراز المعروف باسم الأغربة بأحسن هيئة وأكمل عدة وأتم زاد، وعلى متنها حوالي مئتين من المقاتلين حيث تولى قيادتها الأميران تغري برمش الزردكاش[2] السلحدار، ويونس المحمودي أمير آخور[3]، وقد انضم إليها الكثير من المتطوعين الذين وصل عددهم إلى ألف مقاتل أو يزيد[4]، وقد سارت السفن من ساحل بولاق في النيل إلى مدينة دمياط، ثم اتجهت إلى جزيرة قبرص للتموين، كونها قاعدة مملوكية حيث زودها الملك حنا الثاني بما تحتاجه من مؤن، ثم تابعت إبحارها باتجاه ميناء العلايا بالساحل الجنوبي لآسيا الصغرى حيث انضمت إليها سفينتان مشحونتان بالمقاتلين[5].

ووصلت الحملة إلى جزيرة رودس في ١١ ربيع الثاني ٨٤٤هـ/١٧ أيلول ١٤٤٠م، ورست السفن بالقرب من الرأس الرملية بأقصى الشمال من الجزيرة، وهناك وجد المسلمون أن الفرسان الإسبتارية على أتم استعداد لمواجهة الهجوم الإسلامي، وقبل أن يبدأ الأسطول المملوكي باقتحام

---

١ – عاشور (سعيد عبد الفتاح): مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٢م، ص٢٤٢.

٢ – الزردكاش: الصانع الذي يعمل في صنع السلاح وإصلاحه وتجديده. القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص١٢.

٣ – أمير آخور: وظيفة يقوم صاحبها بالإشراف على اصطبل السلطان ورعاية ما فيها من خيل وحيوانات. المقريزي: السلوك، ج١، ص٤٣٨ حاشية رقم (٣).

٤– المقريزي: المصدر نفسه، ج٤ ق٣، ص١٢٠٥.

٥– ابن تغري بردى: النجوم الزاهرة، ج١٥، ص١٠٤.

جزيرة رودس وجه قائد الحملة رسالة من السلطان الظاهر جقمق إلى حاكم الجزيرة[1]، وعلى الرغم من أن المصادر لم تُشر إلى محتوى هذه الرسالة فإن هناك احتمالات عديدة حول مضمون الرسالة ومنها:

أ. ربما طلب السلطان من حاكم الجزيرة إيقاف عمليات القرصنة على التجار والسفن التجارية العابرة في عرض البحر الأبيض المتوسط.

ب. ربما طالبهم بعدم الاعتداء على السواحل الإسلامية وترويع أهلها الآمنين لأن ذلك سيؤدي إلى ردود أفعال عكسية من قبل المسلمين.

ج. يحتمل أن السلطان طالبهم بالجزية مقابل عودة الحملة دون اقتحام جزيرة رودس.

د. قد يكون محتوى الرسالة قد دار حول تحسين العلاقات بين الطرفين وتحويلها من علاقات عدائية إلى علاقات سلم وصداقة.

ولكن ملك رودس لم يوافق على محتوى الرسالة التي وصلت من قبل قائد الحملة الإسلامية، وقد رد عليها الملك بهجوم مفاجئ على الأسطول المملوكي وذلك عندما انقضت عشر سفن من أسطول رودس الذي كان قد استعد مسبقاً لمواجهة السفن الإسلامية، وقد حالفهم الحظ، ففي الوقت الذي كان فيه المسلمون ينتظرون الرد من قبل حاكم الجزيرة باغتهم الأسطول الرودسي، وبذلك اضطرت السفن الإسلامية إلى التراجع في وسط الليل والرداوسة يتعقبونها[2]، *ووقعت في صبيحة اليوم التالي معركة بحرية بين الفريقين على مقربة من ساحل آسيا الصغرى، ولم تكن نتيجتها حاسمة حيث قتل في أثناء هذه المعركة اثنا عشر من المسلمين وجرح كثير، كما قتل وجرح من الفرنج جماعة كثيرة، فتراجعت الحملة الإسلامية بعد أن استطاعت الخلاص من قتال*

١- ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر بأبناء العمر، ج٩، ص١٢٧. زيادة: المحاولات الحربية، ص١١٣.

٢ - زيادة: المرجع نفسه، ص١١٣. ماهر: البحرية في مصر الإسلامية، ص١٢٥.

الروادسة، وفي طريق عودتهم إلى مصر تمكنوا من تخريب قرية من قرى رودس ((**فقتلوا وأسروا ونهبوا ما فيها**))[1].

ووصلت الحملة إلى القاهرة في يوم الثلاثاء ٢٢ جمادى الأولى سنة ٨٤٤هـ/٢٧ تشرين الأول ١٤٤٠م، ولكنها لم تتمكن من اقتحام جزيرة رودس من أي جهة[2]، ويرجع سبب ذلك إلى تسرب أخبار الاستعدادات المملوكية لغزو جزيرة رودس التي استعدت بالحصون والأبراج، إلا أن هذه الحملة استطاعت معرفة قوة الجزيرة ومدى حصانتها وتماسك موانئها، كما أنها عادت بالقليل من الغنائم وعرفت أيضاً مدى غنى الجزيرة بالثروات وأهميتها الإستراتيجية على الصعيد البحري.

ب. الحملة المملوكية الثانية على جزيرة رودس سنة ٨٤٧هـ/١٤٤٣م:

إن فشل الحملة المملوكية الأولى التي أرسلها السلطان الظاهر جقمق لفتح جزيرة رودس والسيطرة عليها أدى إلى دفعه لتجهيز حملة ثانية تكون أشد بأساً وأكثر قوة من سابقتها لعلها تستطيع السيطرة على رودس والتخلص من شرورها التي أتعبت المسلمين في السلطنة المملوكية وآسيا الصغرى، ومما زاد من عزيمة السلطان وتصميمه على إرسال الحملة الجديدة أن الروداسة أغاروا بعشر سفن على ساحل بيروت، واستولوا على مركب مشحون بالبضائع، وباعوا أربعين رجلاً ممن أسروا من المسلمين، وأقلعوا من غير أن يقاتلهم أحد[3].

١- المقريزي: السلوك، ج٤ ق٣، ص١٢١٠. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٥، ص١٠٤.

٢ – ابن تغري بردي: المصدر نفسه، ج١٥، ص١٠٤. ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر بأبناء العمر، ج٩، ص١٢٧.

٣ – المقريزي: السلوك، ج٤ ق٣، ص١٢٢٧.

هذا بالإضافة إلى أن الأخبار وصلت إلى القاهرة بأن صاحب جزيرة رودس قد استنجد ببعض ملوك الفرنج وأخذ يستعد للحرب ((**ليأخذ بثأرهم من المسلمين**))، إلا أنه لم يجد من يلبي له طلبه غير عبارات فارغة لا تنبئ عن شيء سوى العطف الذي لا فائدة منه[1].

عندها قام السلطان جقمق بتشديد الحراسة في الموانئ المملوكية لمنع وصول أخبار حملته الثانية إلى جزيرة رودس للحفاظ على عنصر المباغتة، وكان قد ألقى القبض على مجموعة من الفرنجة من أهالي رودس في منطقة رشيد كانوا قد وصلوا لأخذ الأخبار حول موقف السلطان من رودس[2]، وفي المقابل قام السلطان جقمق بإرسال حملة استطلاعية إلى رودس قوامها خمس سفن لتأتيه بالأخبار الدقيقة عن مدى استعداد أهلها للدفاع عنها وما اتخذوه من وسائل التحصين[3]، وعندما أيقن الروداسة بإصرار المماليك على غزو جزيرتهم عكفوا على تهيئة الحصون وممتلكاتها في الجزيرة وكذلك أسرعوا بإنفاذ وفد إلى السلطان المملوكي في أواخر سنة ٨٤٦هـ/١٤٤٣م ((**لطلب المهادنة ومعهم تقدمه وأسرى من المسلمين**)) إلا أن السلطان الذي خبر مكرهم وخبثهم خشي من أن يكون ذلك مجرد خداع لكي يهدف إلى إفشال غزو الجزيرة للعودة بعد فترة إلى شن الإغارات من جديد على السواحل الإسلامية فأمر بحبس وفدهم[4].

وفي الوقت نفسه بدأ السلطان جقمق بتجهيز الحملة، فقام بتصليح السفن القديمة، وأنشأ سفناً جديدة بالغة النفقات، وشرع في إرسال حملته الثانية لغزو جزيرة رودس، وأبحر الأسطول من ساحل بولاق في ربيع الثاني سنة ٨٤٧هـ/آب ١٤٤٣م تحت قيادة الأمير إينال العلائي الناصري

---

١ – المقريزي: المصدر نفسه، ج٤ ق٣، ص١٢٢٧. زيادة: المحاولات الحربية، ص١٩٩.

٢ – ابن حجر العسقلاني: المصدر السابق، ج٩، ص١٥٦.

٣ – السخاوي: التبر المسبوك في ذيل السلوك، ص٤٠.

٤ – السخاوي: المصدر نفسه، ص٦١، ٦٢.

والأمير تمرباي[1]*، وقام السلطان جقمق بتوزيع الصلاحيات العسكرية بينهما بحيث يكون الأمير إينال* ((**باش العسكر المتحدث في أمره والنظر فيه براً وبحراً**)) *ويكون الأمير تمرباي* ((**أمير البحر**))[2]*، وقد اتجهت السفن الإسلامية أولاً إلى الشواطئ الشامية لاصطحاب قوة من جند الشام، وفي أثناء إبحارها هبت عليها ريح عاصفة فرقت شملها فاتجه بعضها إلى بيروت واتجه بعضها الآخر إلى طرابلس، وكان العسكر الشامي قد أبحر في وقت سابق إلى جزيرة قبرص في خمسة عشر مركباً، ولم تلبث سفن أسطول مصر أن أقلعت من بيروت وطرابلس كل مجموعة على حدة، حيث اجتمعت سفن الحملة بأكملها على الشواطئ القبرصية بين الملاحة وليماسول حسب الخطة المتفق عليها*[3]*، وضمت هذه الحملة الإسلامية عدداً كبيراً من المراكب تزيد على ثمانين غراباً وحمالات ومربعات وزوارق وسلالير وما يتبعها من المراكب، وكان بها ما يزيد على ألف وثمانمئة مقاتل*[4]*.*

وقد أدى التكتم الشديد من قبل المماليك على هذه الحملة إلى إفزاع أهالي ليماسول عند وصولها إلى شواطئهم، لذا فقد أسرعوا مع حاكمها إلى الهرب بما استطاعوا حمله من المتاع، فظنت القوات المملوكية أن هناك خيانة مدبرة من أهل ليماسول، وأن القبارصة خرجوا على الطاعة ونقضوا العهد، إلا أن ملك قبرص حنا الثاني تدارك الموقف عندما أنفذ الرسل إلى المسلمين وأبلغتهم بأن المؤن المطلوبة تنتظر الحملة في بلدة بافوس، وتقدم الرسل إلى القائد إينال

---

١ – ابن تغري بردي (جمال الدين): حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور، تحقيق: فهيم محمد شلتوت، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، ١٩٩٠م، ج١، ص٥٩. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٥، ص١١٠.

٢ – السخاوي: التبر المسبوك في ذيل السلوك، ص٦٣.

٣– ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر بأبناء العمر، ج٩، ص٢٠١. ماهر: المرجع السابق، ص١٢٥. خانكي: تاريخ البحرية المصرية، ص١٨٨.

٤– السخاوي: التبر المسبوك في ذيل السلوك، ص٦٣.

العلائي بالاعتذار عن هروب أهل ليماسول[1]، وبعد أن أمضت الحملة الإسلامية مدة زمنية قصيرة في جزيرة قبرص، سارت من ميناء بافوس واتجهت إلى (أنطاليا) الواقعة في الساحل الجنوبي من آسيا الصغرى وهي من الموانئ التركية الإسلامية الصديقة للمماليك، ثم أبحرت الحملة صوب جزيرة رودس ووصلت إلى (قشتيل الروج)[2] التابعة للإسبتارية، في رودس وكان ذلك في ١٧جمادى الثانية ٨٤٧هـ/٢٠ تشرين الأول ١٤٤٣م[3] فرست هناك على مرأى من الحامية الإسبتارية، ثم نزل المسلمون إلى البر وضربوا الحصار على حصن قشتيل الروج، وحاول المماليك في أول الأمر أن يأخذوا الحصن عنوة ولكن سرعان ما أدركوا صعوبة تحقيق ذلك، فشددوا حصارهم على الحصن، وبعد قتال عنيف مع الصليبيين (الفرنجة) الذين كانوا يتحصنون به تمكن المسلمون من إحداث ثغرة في سوره ونجحوا في اقتحام الحصن، وتم لهم النصر بتسليم الحامية[4]، وتوج المسلمون نصرهم بدخول المدينة، ورفعوا أعلامهم على الأبراج، وهدموا حصنها، وخربوها تخريباً كاملاً[5]، وعلى الرغم من هذا الانتصار الأولي الذي حققه المسلمون فإنهم لم يواصلوا حملتهم على رودس بسبب حلول فصل الشتاء، فقرر الأمير إينال تمضية الشتاء بثغر ماكرى بشاطئ آسيا الصغرى، الذي يرجح أن تكون تبعيته وقتذاك للدولة العثمانية أو لغيرها من

---

١ – الشيال (جمال الدين): دراسات في التاريخ الإسلامي، مكتبة الثقافة الدينية، الإسكندرية، ط١، ٢٠٠٠م، ص١١٥، ١١٦.

٢ – قشتيل: Chateauroux أو الحصن الأشهب وهي جزيرة صغيرة بجوار ساحل آسيا الصغرى الجنوبي وكانت تابعة للفرسان الإسبتارية المتسلطين على رودس. انظر ابن تغري بردي: حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور، ج١، حاشية رقم (٣)، ص٥٩.

٣ – ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٥، ص١١٠. سالم وعبادي: تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام، ص٣٣٧.

٤ – ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ج٩، ص٢٠٩، ٢١٠. زيادة: المرجع السابق، ص٢٠٠.

٥ – القرماني: أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ، ج٢، ص٣١١. السخاوي: التبر المسبوك، ص٦٤.

أصدقاء الدولة المملوكية بشرق البحر الأبيض المتوسط، لكن الزوابع والأعاصير التي اشتدت في تلك المنطقة دفعت الحملة الإسلامية إلى العدول عن تلك الخطة وقررت الذهاب إلى جزيرة قبرص، ثم اضطرتها الرياح الغربية إلى العدول عن ذلك أيضاً[1]، عندها توغل المسلمون في جزائر الفرنج فعصفت بهم الرياح والأمطار، فاجتمعت الآراء على العودة إلى الديار المصرية دون أن يواصل المماليك حملتهم على جزيرة رودس خوفاً من هيجان البحر وعدم موافقة الرياح[2]، وبالفعل عاد الأسطول إلى مصر، على أن طريق العودة لم يخل من متاعب البحر وشدة الرياح إذ هبت على الحملة رياح عاصفة فرقت شمل السفن فمنها وصل إلى دمياط ومنها وصل إلى الإسكندرية ومنها وصل إلى ساحل رشيد، ولم يجتمع شملها إلا في ساحل بولاق في ١١ شعبان سنة ٨٤٧هـ/١٢ كانون الأول ١٤٤٣م بعد رحلة دامت ما يقارب خمسة أشهر[3].

وهكذا عادت الحملة المملوكية الثانية التي أرسلها السلطان الظاهر جقمق لغزو جزيرة رودس دون أن تحقق شيئاً أو كما يقول ابن تغري بردي: ((**إنهم عادوا ولم ينالوا من رودس غرضاً**))، *فكانت حصيلة الحملة تدمير حصن قشتيل الروج إلى جانب مئتين من الأسرى أغلبهم من الشيوخ والنساء وكمية من أثاث قلعة قشتيل الروج، ومع ذلك فقد جاءت هذه الحملة الثانية بنتائج أفضل من الحملة الأولى وإن عدّها البعض نصراً مبتوراً لا بد من استكماله[4].*

---

١ – ابن حجر العسقلاني: المصدر السابق، ج٩، ص٢١٠–٢١٣. الشيال: المرجع السابق، ص١١٧.

٢ – السخاوي: التبر المسبوك، ص٦٤.

٣ – السيوطي: غزوات قبرص رودس، ص١٥. ابن منكلي: الأحكام الملوكية، ج١، ص٧٥. ماهر: المرجع السابق، ص١٢٥، طرخان: المرجع السابق، ص١٠٩.

٣– ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٥، ١١٠. السخاوي: التبر المسبوك، ص٦٥. القرماني: أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ، ج٢، ص٣١١. زيادة: المحاولات الحربية، ص٢٠١.

لذلك شرع السلطان الظاهر جقمق بتجهيز حملته الثالثة لغزو جزيرة رودس والسيطرة عليها أسوة بسلفه الأشرف برسباي.

ج – الحملة المملوكية الثالثة على جزيرة رودس سنة ٨٤٨هـ/١٤٤٤م:

على الرغم من فشل الحملتين السابقتين اللتين أرسلهما السلطان الظاهر جقمق على جزيرة رودس فإن هذا الفشل لم يزد السلطان إلاّ عزماً وتصميماً على فتح الجزيرة، ولهذا أخذت فكرة القيام بحملة ثالثة تختمر في رأسه ولاسيما أن نجاح سلفه الأشرف برسباي في فتح جزيرة قبرص على يد حملة ثالثة كان مشجعاً له على المضي في معاودة الكرّة على رودس، ولهذا فقد عزم على إعداد حملة ثالثة لإتمام عملية الفتح.

وبالفعل قام السلطان جقمق بتجهيز حملته الثالثة لفتح جزيرة رودس حيث اتخذ من الأعمال التي قام بها السلطان الأشرف برسباي في حملته الثالثة على جزيرة قبرص نموذجاً يحتذي به في حملته الثالثة على جزيرة رودس، إذ قام بفصل القوات البرية عن القوات البحرية، كما فعل السلطان الأشرف برسباي من قبل، وبعد أن اكتملت تجهيزات الحملة، عيّن السلطان الظاهر جقمق الأمير يلخجا الناصري قائداً للقوات البحرية، في حين عهد إلى الأمير اينال العلائي بقيادة القوات البرية ويساعده الأمير تمرباي مقدم الحلقة[1]، وأمر السلطان جقمق أن تلتحق في هذه الحملة عدد من القوات المملوكية التابعة للنيابات الشامية، وبذلك بلغ عددها ما يزيد على ألف وخمسمئة من الجند عدا المتطوعة من الفقهاء والفقراء وغيرهم، وبذلك أصبحت هذه الحملة أكثر عدداً وعدة من الحملتين السابقتين[2]، وفي ذي الحجة ٨٤٧هـ/نيسان ١٤٤٤م تمت كل الاستعدادات اللازمة للحملة التي أنفق عليها السلطان أموالاً طائلة، وصدرت الأوامر إلى رؤساء

---

[1]- السيوطي: غزوات قبرص ورودس، ص١٥. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٥، ص١١٧، ١١٨.

[2] – ابن تغري بردي: حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور، ج١، ص ٦٠.

البحر لإحضار النقالات من الإسكندرية ودمياط لنقل الجند من بولاق، وقام السلطان جقمق باستعراض وحدات الحملة الإسلامية للوقوف على مدى استعدادها في ((**يوم عظيم لم يرَ مثله إلاّ نادراً**))[1]، وأقلعت الحملة من ساحل بولاق في ٢٢ محرم ٨٤٨هـ/١٩ أيار ١٤٤٤م إلى الإسكندرية ودمياط[2]، ويذكر ابن تغري بردي أن الحملة أقلعت من مينائي دمياط والإسكندرية في ١١ربيع الثاني ٨٤٨هـ/٤ آب ١٤٤٤م واتجهت إلى طرابلس وانضمت إليها بعض القوات الشامية التي كانت تنتظرها هناك، وأبحرت بعد ذلك مباشرة إلى جزيرة رودس دون أن تمر بقبرص وآسيا الصغرى[3] خلافاً لما جرت عليه العادة في سير الحملتين السابقتين التي أرسلهما السلطان الظاهر جقمق لفتح الجزيرة، على أية حال ما أن وصلت الحملة إلى رودس في جمادى الأولى سنة ٨٤٨هـ/آب ١٤٤٤م[4] حتى نزل المماليك على برها حيث وجدوا المدينة، وقد استعد أهلها للقتال فحصّنوا أبراجهم بالآلات والسلاح والمقاتلة بحيث صارت في غاية من الحصانة فأقام المسلمون على وجه السرعة آلات الحصار ونصبوا المجانيق والمكاحل على أبراجها، واستمر القتال عدة أيام مما أدى إلى مقتل عدد كبير من رجال الطرفين تحت وابل القذائف المتبادلة بينهما[5].

وكسباً للوقت قامت قوة إسلامية في مهاجمة القرى والبساتين والضياع المحيطة بالعاصمة واستمروا على ذلك عدة أيام، وعلى الرغم من ذلك كانت رودس ((**لا تزداد إلاّ قوة لشدة**

---

[1] – ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٥، ص١١٨. الشيال: دراسات في التاريخ الإسلامي، ص١١.

[2] – السخاوي: التبر المسبوك، ص٨٧، ٨٨.

[3] – ابن تغري بردي: حوادث الدهور، ج١، ص٦٠. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٥، ص١١٨.

[4] – السخاوي: التبر المسبوك، ص٨٨.

[5] – ابن تغري بردي: حوادث الدهور، ج١، ص٦٠. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٥، ص١١٨. ابن حجر العسقلاني: المصدر السابق، ج٩، ص٢٢٣.

مقاتليها ولعظم عمارتها))، هذا في الوقت الذي كان فيه الأمير يلخجا الناصري على رأس قوة إسلامية ثالثة في المراكب لحفظها خوفاً من مهاجمة الروادسة إياها على حين غرة **((وكان في ذلك غاية المصلحة))**[1]، إذ حدث ما تخوف منه المماليك فقد وصلت إلى الروادسة نجدة بحرية من غرب أوربا وقاموا بهجوم مفاجئ على الأسطول الإسلامي بعدد كبير من المراكب، فبرز إليهم يلخجا ومن معه وقاتلوهم قتالاً عظيماً في معركة بحرية عنيفة استطاع من خلالها يلخجا الناصري أن يرد الروادسة وحلفاءهم مدحورين مهزومين[2].

وفي الوقت نفسه كانت المعارك البرية بين المسلمين والروادسة تدور رحاها على أرض الجزيرة بشكل عنيف، ومع ذلك فإن مدينة رودس لا يزداد أمرها إلاّ قوة ومنعة لعظم استعداد أهلها للقتال، واستمر الأمر إلى أن استطاع المسلمون إحداث ثغرة كبيرة على أحد أسوار مدينة رودس عاصمة الجزيرة، وعند ذلك قرر فرسان الإسبتارية الهجوم لئلا تنفذ إليهم جيوش المسلمين المحاصرة لهم وتقاتلهم في عقر دارهم، وخرجت الإسبتارية من وراء الأسوار إلى خارج مدينتهم[3]، وفي جمادى الأولى ٨٤٨هـ/أواخر آب ١٤٤٤م دارت معركة حامية بينهم وبين المسلمين وبعد ثبات عنيد وصمود شديد من الطرفين رجحت أخيراً كفة الروادسة في القتال، وتغلبوا على المماليك مما اضطرهم إلى رفع الحصار عن مدينة رودس، وقتل في هذه المعركة من الصليبيين (الفرنجة) أعداد كثيرة، بينما قتل من المماليك ثلاثمئة جندي وجرح خمسمئة، فيما لجأ

---

[1] – ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٥، ص١١٨.

[2] – السخاوي: التبر المسبوك في ذيل السلوك، ص٨٨.

[3] – ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٥، ص١١٩. الشيال: المرجع السابق ص١١٩، ١٢٠.

الباقون إلى سفنهم وغلايينهم، وقد تركوا وراءهم كل مجانيقهم ومؤنهم ومتاعهم والجم الغفير من الأسرى، وسرعان ما اتخذت السفن المملوكية طريقها في البحر طلباً للنجاة[1].

ويشير السخاوي إلى أن هناك عدداً من المسلمين الذين ذهبوا في هذه الحملة إلى رودس ولا همّ لهم سوى السلب والنهب قد لجؤوا إلى العدو واعتنقوا الديانة المسيحية لضعف إيمانهم ولفقدان حس الجهاد ومعنى الاستشهاد عندهم[2]، وعندما وصلت أخبار الصعوبات التي واجهت الحملة الإسلامية في رودس إلى السلطان الظاهر جقمق سارع إلى إرسال النجدة والمدد لمساعدتها ضد الصليبيين (الفرنجة)، إلاّ أن هذه النجدة لم تلبث أن قفلت راجعة إثر رجوع الحملة إلى الموانئ المملوكية بعد الواقعة التي ألّمت بالجيوش الإسلامية في تلك المعركة[3]، ومن الملاحظ أن غزوة العام السابق التي أرسلها السلطان الظاهر جقمق إلى جزيرة رودس كانت أبهج من هذه الغزوة، على حد تعبير المصادر، فقد استطاعت تلك الغزوة أن تحتل فيها حصن قشتيل الروج بعد أن ضربها المسلمون وجاؤوا منها بعدد كبير من الأسرى[4].

ويبدو أن هذه الحملة قد أثّرت في نفس المماليك لدرجة أن السلطان الظاهر جقمق لم يحاول بعدها إرسال حملة أخرى، وقد علّق السخاوي على ذلك في قوله: ((**وبالجملة فلم يتم للعسكر**

---

[1] – ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر بأبناء العمر، ج٩، ص ٢٢٤. ابن تغري بردي: حوادث الدهور، ج١، ص٦١. زيادة: المحاولات الحربية للاستيلاء على جزيرة رودس، ص٢٠١، ٢٠٢. ماهر: البحرية في مصر الإسلامية، ص١٢٥. سالم وعبادي: تاريخ البحرية في مصر والشام، ص٣٣٨. غزالة بك: جزيرة رودس جغرافيتها وتاريخها وآثارها، ص١٩.

[2] – السخاوي: التبر المسبوك، ص٨٩.

[3] – السخاوي: المصدر نفسه، ص٨٩. حسن سعيد: البحرية في عصر سلاطين المماليك، ص٢٧٤.

[4] – ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٥، ص١٢٠. ابن تغري بردي: حوادث الدهور، ج١، ص٦١. السيوطي: غزوات قبرص ورودس، ص١٦. القرماني: أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ، ج٢، ص٣١١.

قصد ولا رجعوا بطايل، ولهذا فترت همتهم عن الجهاد في تلك المدة لهذه الجهة ولله عاقبة الأمور))[1].

ومع ذلك فإن فشل الحملات التي أرسلها السلطان الظاهر جقمق لفتح جزيرة رودس والسيطرة عليها لم تكن بلا جدوى، فقد لجمت فرسان الإسبتارية عن الإغارة على شواطئ السلطنة المملوكية وإلحاق الضرر في أملاك المسلمين، وفي الوقت نفسه إن دفاع الروادسة عن جزيرتهم لثلاث حملات متتالية أضعفهم كل الضعف، وباتوا يخشون على مصيرهم أمام حملة رابعة ظنوها لا بد آتية[2]*، ولذا فقد لجأ الروادسة إلى الاستغاثة بأوربا والبابوية، ويبدو أن هؤلاء كانوا منهمكين في مشاكلهم الخاصة، فنصح البابا يوجين الرابع الإسبتارية بتسوية أوضاعهم مع الدولة المملوكية، وتنفيذاً لتلك الرغبة اختار الإسبتارية وسيطاً على صلة بالسلطان جقمق وهو التاجر الفرنسي (جاك كير) Jacques Coeur* [3]*، فقام بمهمة الوساطة بينهما، وأرسل مبعوثاً من قبله إلى السلطان وبصحبته مسؤول إسبتاري، وبعد مفاوضات مع السلطان الظاهر جقمق تم الاتفاق على عقد صلح مع الإسبتارية تعهدوا فيه بعدم الاعتداء على السفن والمتاجر الإسلامية أو التعرض لها*[4].

ومما تقدم يلاحظ أن الحملة المملوكية الثالثة على جزيرة رودس قد حققت نتائج عظيمة على الرغم من فشلها في إخضاع الجزيرة والخسائر التي منيت بها، فقد تعهد الملك الرودسي بعدم

---

[1] – السخاوي: التبر المسبوك، ص٨٩.

[2] – حسن سعيد: المرجع السابق، ص٢٧٤. زيادة: المرجع السابق، ص٢٠٢.

[3] – الشيال: دراسات في التاريخ الإسلامي، ص١٢١. عبادي وسالم: تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام، ص ٣٣٩.

[4] – عاشور: العصر المماليكي في مصر والشام، ص١٧٩، ١٨٠. عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص٢٨٥. حسن سعيد: البحرية في عصر سلاطين المماليك، ص ٢٧٤، ٢٧٥.

الاعتداء على المسلمين وممتلكاتهم، وفي الوقت نفسه رسمت مرحلة جديدة في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب عبر البحر المتوسط.

٤ – نتائج غزو المماليك لجزيرة رودس:

تواترت الحملات المملوكية على جزيرة رودس بهدف فتحها والسيطرة عليها، ولكنها لم تنجح، أسوة بجزيرة قبرص التي سقطت بأيدي المسلمين، ومما لا شك فيه أن جزيرة رودس لم تسقط في أيدي المسلمين نتيجة لتدخل أوربا ودفاعها عن الصليبيين (الفرنجة) في رودس، وقد أسفرت تلك الحملات على جزيرة رودس عن نتائج مهمة وهي على النحو الآتي:

١ – *انتزع المسلمين زمام المبادرة من الصليبيين بالأعمال الحربية البحرية عندما قاموا بالهجوم على جزيرة رودس ولم يستكينوا لهجماتهم أو انتظار هجومهم على المسلمين، فقد أعدوا الجيوش وقرروا اقتلاع بؤرة الشر المتمثلة بفرسان الإسبتارية من جذورها.*

٢ – *أكدت الحروب بين المماليك والإسبتارية على استمرارية الصراع وذلك دليل على عدم وفاء الصليبيين لعهودهم ومواثيقهم منذ أن وضعوا أقدامهم في بلاد العرب والمسلمين.*

٣ – *كبدت المعارك بين المسلمين والصليبيين (الفرنجة) في رودس خسائر كبيرة في الأرواح وخاصة من الجانب الصليبي،* وعبّر عن ذلك ابن تغري بردي في قوله: ((**وقتل من الفرنج جماعة كثيرة**))[1].

٤ – *لم يجرؤ أبناء رودس ومن يساندهم من الصليبيين في أوربا على القيام برد حاسم ضد المماليك وذلك خوفاً من القوة البحرية الإسلامية التي كانت تتزايد قوتها يوماً بعد يوم.*

---

[1] – ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٥، ص١٠٤. المقريزي: السلوك، ج٤، ق٣، ص١٢١٠. العباسي: منح رب البرية في فتح رودس الأبية، ص٢٦. ماهر: البحرية في مصر الإسلامية، ص١٢٦. طقوش: تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، ص٥٢٢. عاشور: العصر المماليكي في مصر والشام، ص١٧٩.

٥ - *أسفرت حملات السلطان جقمق على جزيرة رودس عن إجبار الصليبيين على عقد الصلح وذلك بعد أن غزوهم في عقر دارهم.*

٦ - *أرغمت هذه الأعمال الحربية البحرية فرسان الإسبتارية على الاعتراف بمطالب المسلمين، وقد تعهدوا بعدم التعرض للممتلكات الإسلامية، وعدم القيام بأعمال القرصنة ضد السفن الإسلامية العابرة للبحر الأبيض المتوسط*[1].

٧ - *ساد الهدوء والأمان أحياناً في البحر المتوسط بعد أن تمكّن المسلمون من القضاء على أعمال القرصنة الصليبية (الفرنجة)، مما أدى لتنشيط التجارة وحرية التنقل في الموانئ الشرقية لهذا البحر.*

٨ - *استطاعت إحدى الحملات البحرية المملوكية التي أرسلها السلطان الظاهر جقمق وهي الحملة الثانية أن تقوم بهدم أحد أهم حصون جزيرة رودس والمسمى (قشتيل الروج) وأن تأتي بعدد كبير من الأسرى وأن تحصل على الكثير من الغنائم* على حد قول القرماني: ((**ثمانية عشر صندوقاً، في كل صندوق نحو ثلاثة قناطير ذهب واثنتي عشرة جرة نحاس مختومة الفم بالرصاص، في كل جرة قنطار ونصف ذهباً، وغير ذلك من الجواهر واليواقيت والتحف**)).

٩ - *أثبتت الحملات الإسلامية على جزيرة رودس أن المماليك أهلٌ للعهود والمواثيق وبخاصة بعد أن استولوا على حصن (قشتيل الروج)، ودخلوا العديد من القرى والبساتين، فقد أعطوا أهلها الأمان ولم يمسوا أحداً بأذى*[1].

---

[1] - زيادة: المحاولات الحربية، ص٢٠٢. حسن سعيد: البحرية في عصر سلاطين المماليك، ص٢٧٤، ٢٧٥. عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص٢٨٥. سالم وعبادي: تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام، ص٣٣٩.

١٠- *دلت غزوات المسلمين على جزيرة رودس في عهد السلطان الظاهر جقمق على تمسك المسلمين بمسيرة الجهاد ونشر مبادئهم الإسلامية بمساندة من إخوان لهم في آسيا الصغرى (العثمانيين) الذين وسعوا دائرة الفتح والوجود الإسلامي حتى حوض الدانوب وكريت ورودس.*

١١- *إن التعاون المملوكي العثماني أثمر عن تشكيل جبهة إسلامية موحدة ضد أعداء المسلمين في الشرق والغرب، وهذا يعد تطوراً كبيراً في تاريخ العلاقات الدولية الإسـلامية بعد الحملات المملوكيـة على جزيرة رودس*[٢]*.*

---

[١] - القرماني: أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ، ج٢، ص٣١١. السخاوي: التبر المسبوك في ذيل السلوك، ص٦٤، ٦٥. ابن تغري بردي: حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور، ج٢، ص٥٩. عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص١٢٣٦. طقوش: تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، ص٥٢٤. طرخـان: مصر في عصر دولة المماليك الشراكسة، ص ١٠٧-١١٤.

[٢] - ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٥، ص١٠٤. حسن سعيد: البحرية في عصر سلاطين المماليك، ص٢٦٨. ماهر: البحرية في مصر الإسلامية، ص١٢٤. زيادة: المحاولات الحربية للاستيلاء على جزيرة رودس، ص١١٢. الشيال: دراسات في التاريخ الإسلامي، ص١٢١. سـالم وعبادي: تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام، ص٣٣٧.

– **الخاتمة:**

بعد هذه الجولة البحثية في الإنجازات البحرية لدولة المماليك، يمكن القول:

إن السلطنة المملوكية كانت ذات طابع إسلامي حربي بالدرجة الأولى، تسعى للسيطرة ومد النفوذ وضم المناطق التي تهدد كيانها.

وهي أيضاً ذات طابع اقتصادي تسعى لحماية عوامل بقائها واستقرارها وتأمين سلامة بحارتها وتجارتها في البحر الأبيض المتوسط.

ولذا فقد قامت بنشاط حربي واسع في الحوض الشرقي للبحر المتوسط من أجل تحطيم الحصار الاقتصادي، وإعادة الرواج للنشاط التجاري في مصر وبلاد الشام مرة أخرى، فاستطاعت هذه السلطنة في بداية نشوئها أن تلحق هزيمة ساحقة بالقوات المغولية في معركة عين جالوت، وتقوم بحركة تطهير واسعة لبلاد الشام من فلولهم المنهزمين.

وبعد ذلك تطلعت السلطنة المملوكية إلى تحرير بلاد الشام من الإمارات الصليبية للقضاء على الخطر المتبقي في المنطقة العربية الإسلامية، وتأمين سلامة أراضيها من أي اعتداء يمكن أن يقع عليها من تلك الإمارات، فخاض سلاطينها حروباً عدة استطاعوا من خلالها القضاء على جميع الصليبيين (الفرنجة) في بلاد الشام.

إلا أن هذه الانتصارات الإسلامية لم تستطع أن تضع حداً لتلك الاعتداءات البحرية الصليبية (الفرنجية) على سواحل السلطنة المملوكية، وهذا ما دفع المماليك إلى الاهتمام ببناء السفن وإنشاء الأساطيل وتجهيزها بالعتاد والرجال للتصدي والرد على أي اعتداء يمكن أن يقع عليها من الجانب الصليبي.

فقد تنوعت الاعتداءات الصليبية على السلطنة المملوكية واتخذت جوانب عدة، ومن أبرزها الجانب الاقتصادي، حيث نادى عدد من النشطاء والقادة والأمراء وملوك الصليبيين ببعض المشاريع الاقتصادية، هدفوا من خلالها محاصرة السلطنة المملوكية لتحطيم اقتصادها وضربها في

أهم مفاصل قوتها وازدهارها وهي التجارة، وكذلك أصدر بعض البابوات في أوربا عدة مراسيم دينية، حرموا بموجبها الاتجار مع السلطنة المملوكية، لكن هذه المشاريع والمراسيم باءت بالفشل، وذهبت مع أدراج الرياح عندما تم تجاهلها من قبل بعض الجمهوريات الإيطالية التي رفضت الانصياع إلى تلك المشاريع والمراسيم، ورأت هذه الجمهوريات أن ازدهار تجارتها وقوة أساطيلها في حوض المتوسط تكمن بالاتجار مع السلطنة المملوكية.

وفي المقابل شنت القوات الصليبية (الفرنجية) في البحر المتوسط العديد من الغارات والاعتداءات على سواحل السلطنة المملوكية، وألحقت بها أضراراً كبيرة، ومن أشد هذه الاعتداءات وأقساها الحملة الصليبية (الفرنجية) التي قادها ملك قبرص بطرس الأول لوزينيان، والتي استطاع من خلالها اجتياح مدينة الإسكندرية سنة ٧٦٧هـ/١٣٦٥م، وألحق بها دماراً واسعاً، إلا أن مدينة الإسكندرية لم تكن المتضرر الوحيد من جراء الاجتياح القبرصي الفرنجي عليها بل ألحقت الضرر بالفرنجة أنفسهم، فتوقفت تجارتهم، وتكدست بضائعهم، وهذا ما دفع بعض الجمهوريات الإيطالية إلى الاعتذار من السلطنة المملوكية وإرغامهم لملك قبرص على طلب الصلح من السلطنة المملوكية، وإجراء المفاوضات معها لوضع حد للاعتداءات الصليبية (الفرنجية) البحرية المتكررة على سواحلها.

وبينت هذه الدراسة أن الحروب والغارات الفرنجية البحرية المتتالية على سواحل مصر وبلاد الشام أكدت على ضرورة الاهتمام بالثغور البحرية الإسلامية وتحصيناتها، وحاجة المسلمين إلى بناء أسطول بحري قوي يهاجمون فيه بعض تجمعات القرصنة وقواعدها في حوض المتوسط ولاسيما جزيرتي قبرص ورودس.

وأن الغزو المملوكي لجزيرتي قبرص ورودس جاء من القناعة الراسخة عندهم بأن السيطرة على تلك المناطق سيؤمن السلامة والاستقرار لحوض البحر المتوسط، وسيمنع هجمات القرصنة الفرنجية ويحد من نشاطهم بشكل كبير، وهذا ما سوف يؤدي إلى تطور التجارة البحرية

المملوكية، التي تعد من أبرز عوامل قوتها وازدهارها وبقائها، ولذا فقد كرس السلطان المملوكي الأشرف برسباي جهده في توظيف إمكانيات السلطنة المملوكية البحرية الحربية لتحقيق هذا الهدف، فبنى السفن وحشد الأساطيل على سواحل البحر المتوسط في مصر وبلاد الشام، وأرسل ثلاث حملات بحرية إلى جزيرة قبرص استطاع من خلالها فتح الجزيرة وضمها إلى ممتلكات السلطنة المملوكية.

وإن الانتصار البحري الكبير الذي حققه السلطان الأشرف برسباي بفتح جزيرة قبرص، شجع السلطان المملوكي الظاهر جقمق إلى أن يحذو حذوه لفتح جزيرة رودس، فأرسل إليها ثلاث حملات بحرية للسيطرة عليها، إلا أن هذه الحملات لم تتمكن من فتح الجزيرة، لشدة تحصيناتها ومناعتها، واستماتة فرسانها في الدفاع عنها، ووصول النجدات من معظم الدول الأوربية إليها، ومع ذلك فإن هذه الحملات البحرية الإسلامية في عهد الظاهر جقمق على جزيرة رودس استطاعت أن تلجم فرسان الإسبتارية عن الإغارة على شواطئ السلطنة المملوكية وسواحلها، فساد الهدوء والأمان في البحر المتوسط مما أدى إلى نشاط التجارة، وحرية التنقل في الحوض الشرقي لهذا البحر.

وإذا تفحصنا القوة البحرية لدولة المماليك بين عامي ٦٩٠-٩٢٣هـ/١٢٩١-١٥١٧م نجد أن تلك الدولة الإسلامية في مصر وبلاد الشام قد وصلت إلى درجة متقدمة في العلوم البحرية في الحوض الشرقي للبحر المتوسط، وهذا ما مكن المماليك من توسيع نشاطهم التجاري البحري ومقاومة الصليبيين وغزوهم في عقر دارهم، رغم القوة البحرية التي تلقاها الصليبيون من أوربا المسيحية، ومن بين كل الأساطيل الإسلامية في العصور الوسطى لم تستطع سوى البحرية المملوكية أن تؤكد وتثبت وجودها بدرجة ملحوظة في البحر المتوسط، وذلك يرجع لعدة أسباب: اجتماعية واقتصادية ونفسية في ذلك المجتمع العسكري لدولة المماليك.

والله الموفق، والحمد لله رب العالمين

الملاحق

- ملحق رقم (١) أسماء سلاطين العصر المملوكي منذ قيام السلطنة حتى نهايتها

أ- دولة المماليك البحرية

٦٤٨-٧٨٤هـ/١٢٥٠-١٣٨٢م

شجر الدُّر	٦٤٨هـ/١٢٥٠م
المعز عز الدين أيبك	٦٤٨-٦٥٥هـ/١٢٥٠-١٢٥٧م
المنصور نور الدين علي	٦٥٥-٦٥٧هـ/١٢٥٧-١٢٥٩م
المظفر سيف الدين قطز	٦٥٧-٦٥٨هـ/١٢٥٩-١٢٦٠م
ركن الدين بيبرس البندقداري	٦٥٨-٦٧٦هـ/١٢٦٠-١٢٧٧م
السعيد ناصر الدين محمد بركة خان	٦٧٦-٦٧٨هـ/١٢٧٧-١٢٧٩م
العادل بدر الدين سلامش	٦٧٨هـ/١٢٧٩م
المنصور سيف الدين قلاوون	٦٧٨-٦٨٩هـ/١٢٧٩-١٢٩٠م
الأشرف صلاح الدين خليل	٦٨٩-٦٩٣هـ/١٢٩٠-١٢٩٣م
الناصر ناصر الدين محمد: المرة الأولى	٦٩٣-٦٩٤هـ/١٢٩٣-١٢٩٤م
العادل زين الدين كتبغا	٦٩٤-٦٩٦هـ/١٢٩٤-١٢٩٦م
المنصور حسام الدين لاجين	٦٩٦-٦٩٨هـ/١٢٩٦-١٢٩٩م

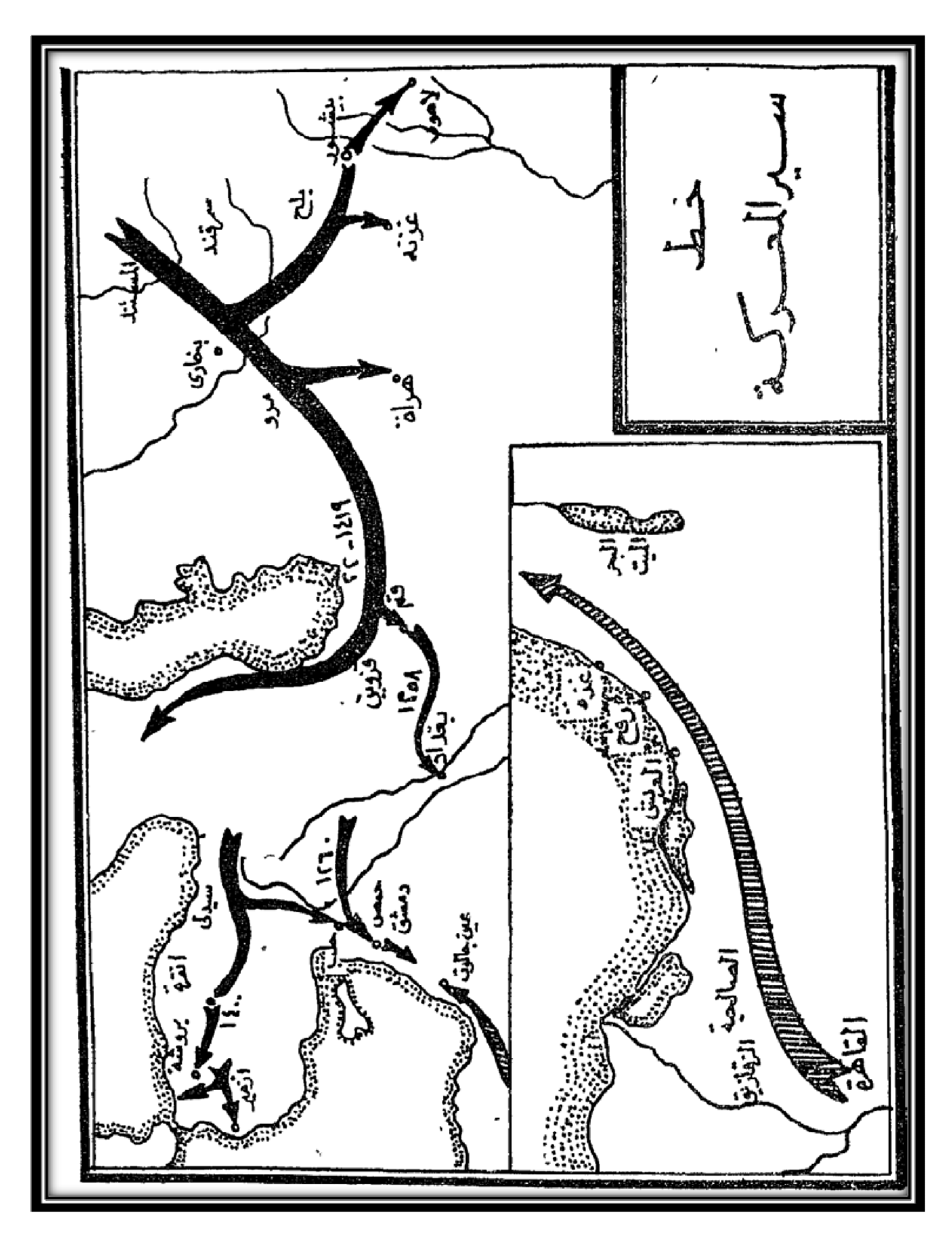
الناصر ناصر الدين محمد: المرة الثانية	٦٩٨-٧٠٨هـ/١٢٩٩-١٣٠٩م
المظفر بيبرس الجاشنكير	٧٠٨-٧٠٩هـ/١٣٠٩-١٣١٠م
الناصر ناصر الدين محمد: المرة الثالثة	٧٠٩-٧٤١هـ/١٣١٠-١٣٤٠م
المنصور سيف الدين أبو بكر بن الناصر محمد	٧٤١-٧٤٢هـ/١٣٤٠-١٣٤١م
الأشرف علاء الدين كجك بن الناصر محمد	٧٤٢هـ/١٣٤١م
الناصر شهاب الدين أحمد بن الناصر محمد	٧٤٢-٧٤٣هـ/١٣٤٢م
الصالح عماد الدين إسماعيل بن الناصر محمد	٧٤٣-٧٤٦هـ/١٣٤٣-١٣٤٥م
الكامل سيف الدين شعبان بن الناصر محمد	٧٤٦-٧٤٧هـ/١٣٤٥-١٣٤٦م
المظفر زين الدين حاجي بن الناصر محمد	٧٤٧-٧٤٨هـ/١٣٤٦-١٣٤٧م
الناصر أبو المحاسن حسن بن الناصر محمد: المرة الأولى	٧٤٨-٧٥٢هـ/١٣٤٧-١٣٥١م
الصالح صلاح الدين بن محمد بن الناصر محمد	٧٥٢-٧٥٥هـ/١٣٥١-١٣٥٤م
الناصر أبو المحاسن حسن بن الناصر محمد: المرة الثانية	٧٥٥-٧٦٢هـ/١٣٥٤-١٣٦١م
المنصور صلاح الدين محمد بن حاجي	٧٦٢-٧٦٤هـ/١٣٦١-١٣٦٣م
الأشرف أبو المعالي زين الدين شعبان بن حسين	٧٦٤-٧٧٨هـ/١٣٦٣-١٣٧٧م
المنصور علاء الدين علي بن شعبان بن حسين	٧٧٨-٧٨٣هـ/١٣٧٧-١٣٨١م
الصالح صلاح الدين حاجي بن شعبان بن حسين	٧٨٣-٧٨٤هـ/١٣٨١-١٣٨٢م

ب- دولة المماليك البرجية (الجراكسة)

٧٨٤-٩٢٣هـ/١٣٨٢-١٥١٧م

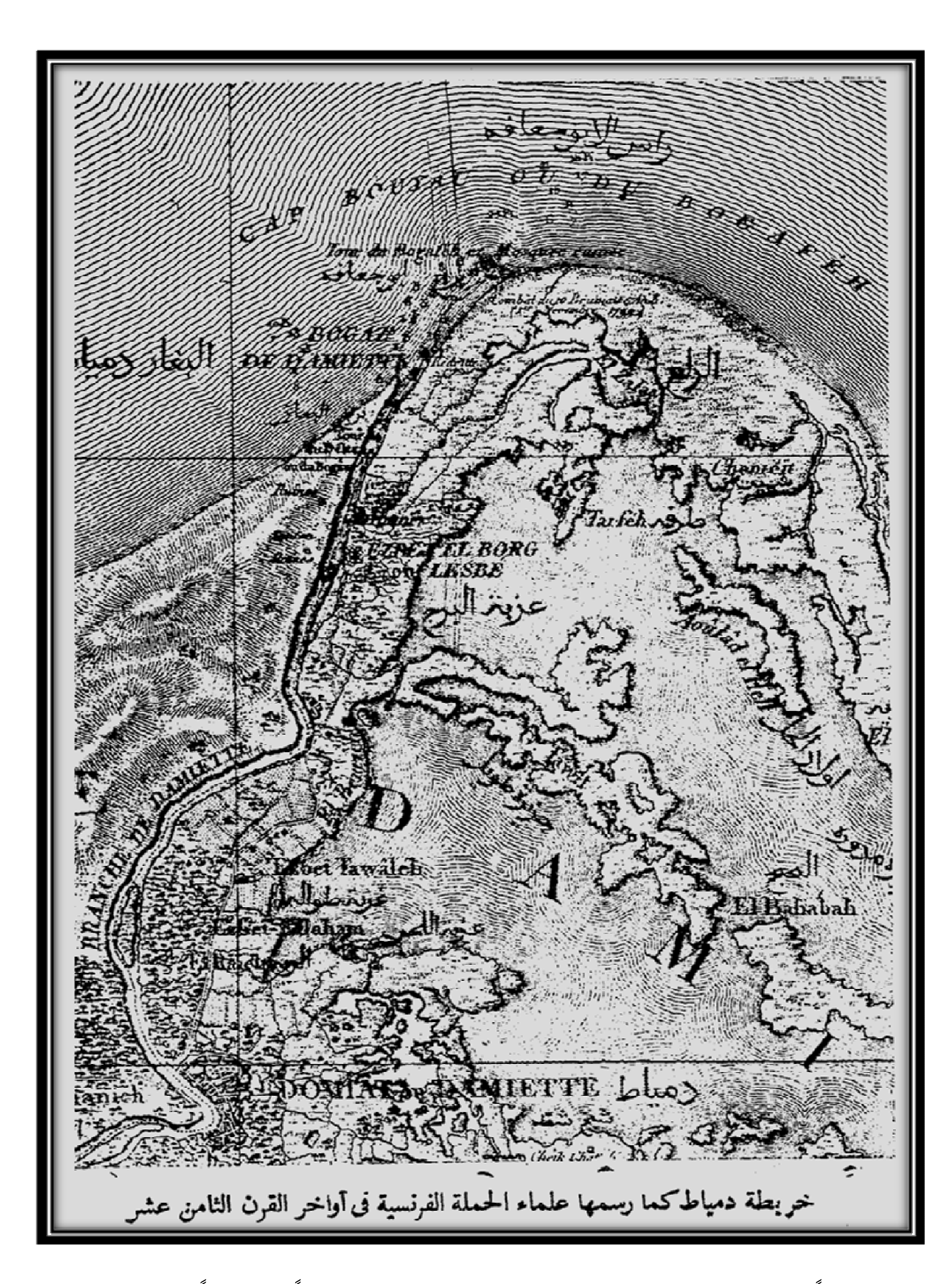
الظاهر سيف الدين برقوق: المرة الأولى	٧٨٤-٧٩٠هـ/١٣٨٢-١٣٨٨م
الصالح حاجي بن شعبان	٧٩٠-٧٩٢هـ/١٣٨٨-١٣٩٠م
الظاهر سيف الدين برقوق: المرة الثانية	٧٩٢-٨٠١هـ/١٣٩٠-١٣٩٩م
الناصر أبو السعادات فرج بن برقوق	٨٠١-٨١٥هـ/١٣٩٩-١٤١٢م
الخليفة العباسي المستعين بالله بن المتوكل	٨١٥هـ/١٤١٢م
المؤيد أبو النصر شيخ المحمودي	٨١٥-٨٢٤هـ/١٤١٢-١٤٢١م
المظفر أحمد بن شيخ	٨٢٤هـ/١٤٢١م
الظاهر سيف الدين ططر	٨٢٤هـ/١٤٢١م
محمد بن ططر	٨٢٤-٨٢٥هـ/١٤٢١-١٤٢٢م
الأشرف برسباي	٨٢٥-٨٤١هـ/١٤٢٢-١٤٣٨م
أبو المحاسن يوسف بن برسباي	٨٤١-٨٤٢هـ/١٤٣٨م
الظاهر جقمق	٨٤٢-٨٥٧هـ/١٤٣٨-١٤٥٣م
المنصور عثمان بن جقمق	٨٥٧هـ/١٤٥٣م
الأشرف إينال	٨٥٧-٨٦٥هـ/١٤٥٣-١٤٦١م

المؤيد أحمد بن إينال	٨٦٥هـ/١٤٦١م
الظاهر خشقدم	٨٦٥-٨٧٢هـ/١٤٦١-١٤٦٧م
الظاهر بلباي المؤيدي	٨٧٢هـ/١٤٦٧م
الظاهر تمربغا	٨٧٢هـ/١٤٦٨م
الأشرف قايتباي	٨٧٢-٩٠١هـ/١٤٦٨-١٤٩٦م
محمد بن قايتباي: المرة الأولى	٩٠١-٩٠٢هـ/١٤٩٦-١٤٩٧م
الأشرف قانصوه خمسمئة	٩٠٢هـ/١٤٩٧م
محمد بن قايتباي: المرة الثانية	٩٠٢-٩٠٤هـ/١٤٩٧-١٤٩٨م
الظاهر قانصوه الأشرفي	٩٠٤-٩٠٥هـ/١٤٩٨-١٥٠٠م
الأشرف جانبلاط	٩٠٥-٩٠٦هـ/١٥٠٠-١٥٠١م
العادل طومان باي الأول	٩٠٦هـ/١٥٠١م
الأشرف قانصوه الغوري	٩٠٦-٩٢٢هـ/١٥٠١-١٥١٦م
الأشرف طومان باي الثاني	٩٢٢-٩٢٣هـ/١٥١٦-١٥١٧م



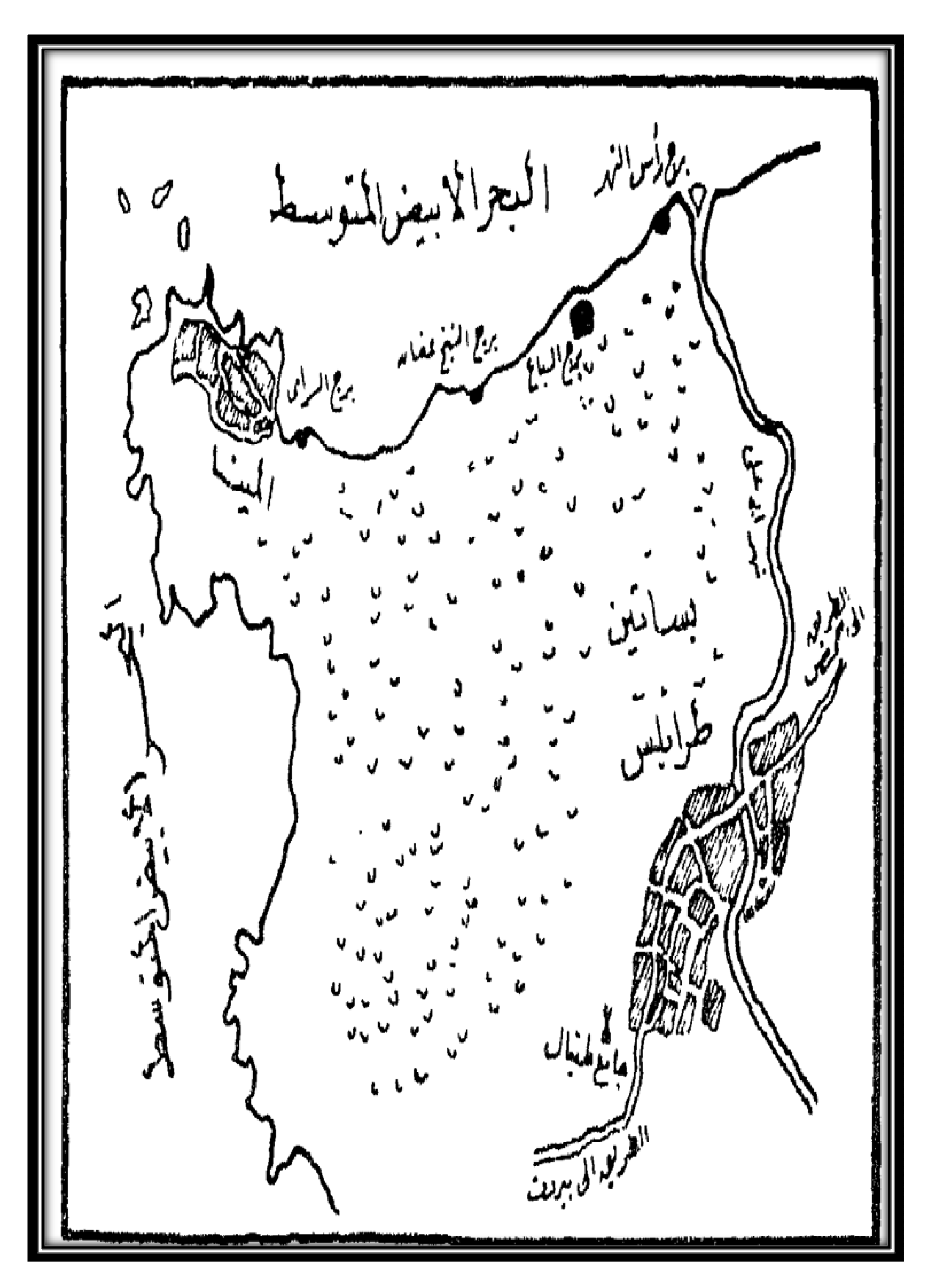
مصور عن سير معركة عين جالوت

نقلاً عن كتاب محمود نديم أحمد فهيم: الفن الحربي للجيش المصري في العصر المملوكي البحري،



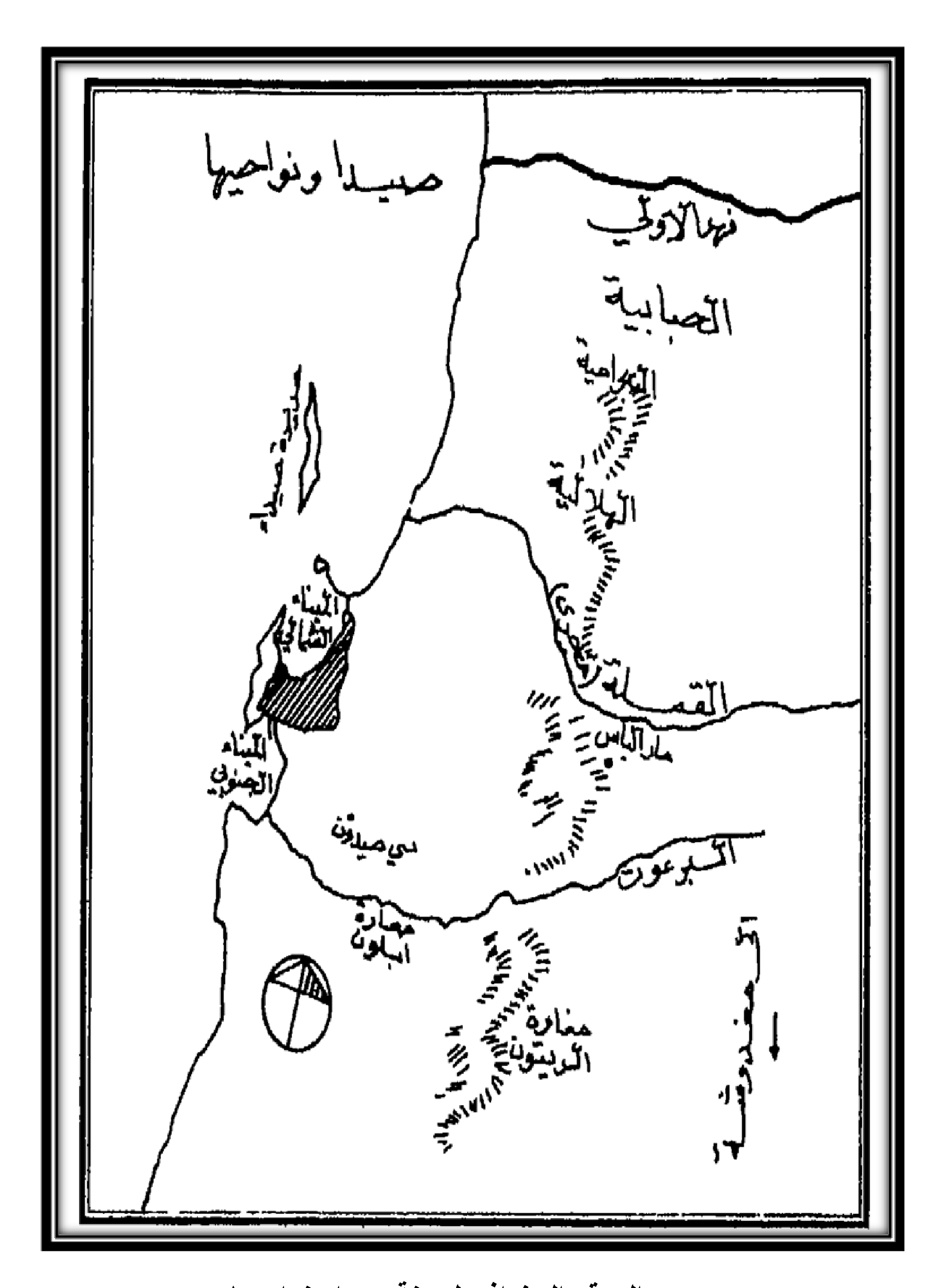
خريطة دمياط كما رسمها علماء الحملة الفرنسية فى أواخر القرن الثامن عشر

نقلاً عن كتاب جمال الدين الشيال: مجمل تاريخ دمياط سياسياً واقتصادياً، ص٥٨.



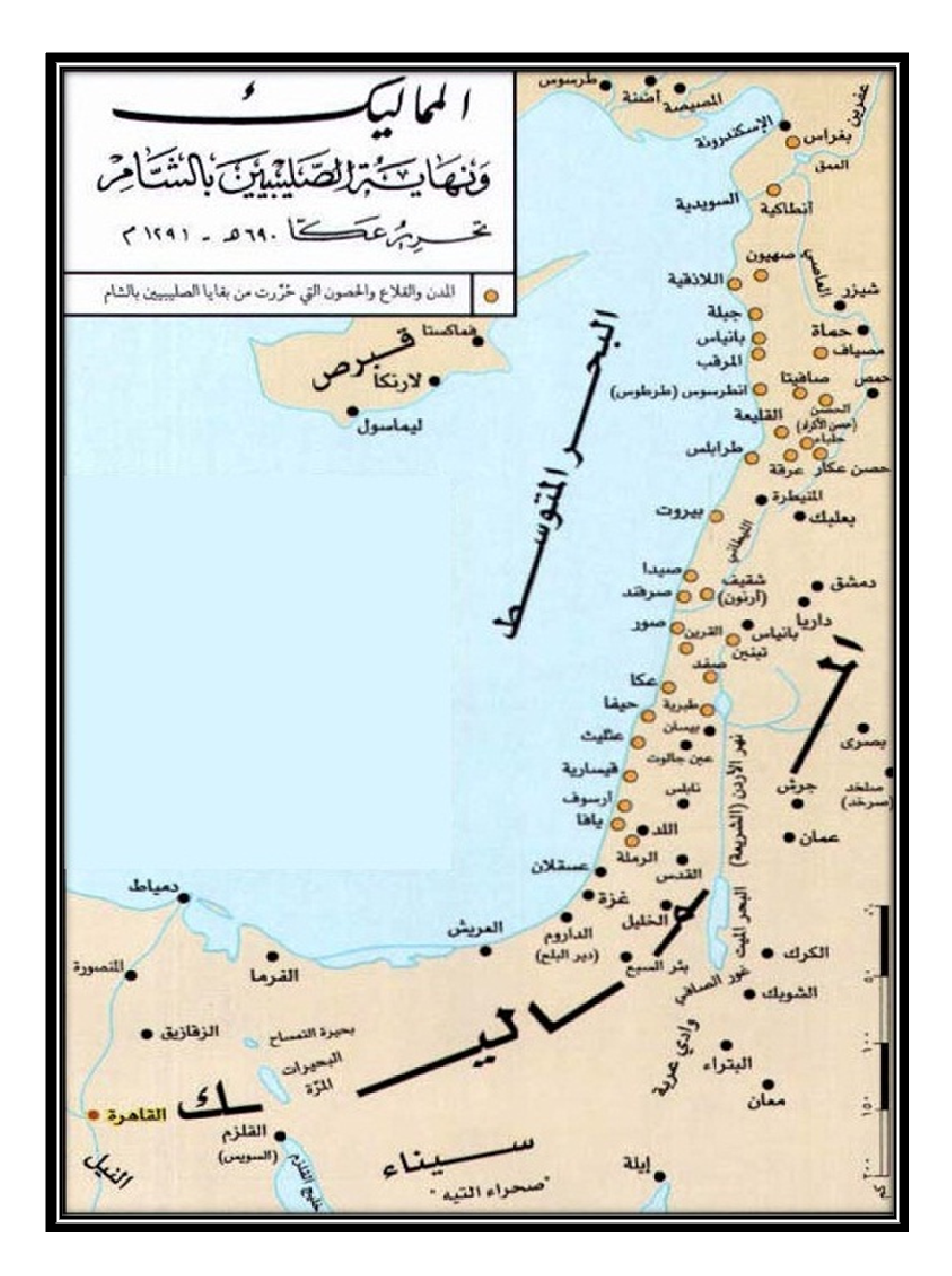
مدينة طرابلس في عهد المماليك

نقلاً عن كتاب السيد عبد العزيز سالم: طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي، خريطة رقم (٢) .

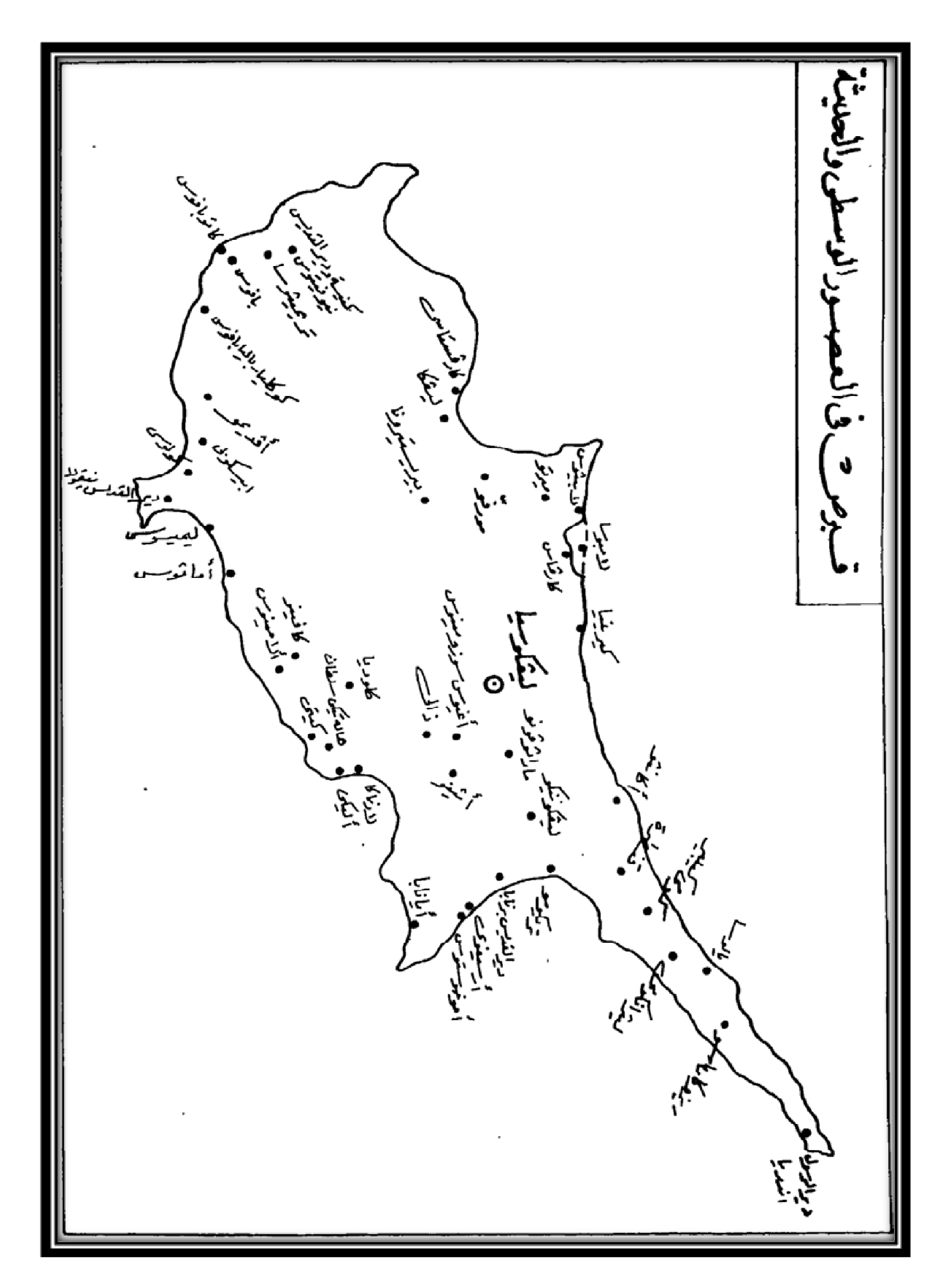


الموقع الجغرافي لمدينة صيدا ونواحيها

نقلاً عن كتاب السيد عبد العزيز سالم: تاريخ مدينة صيدا في العصر الإسلامي، ص١٣.

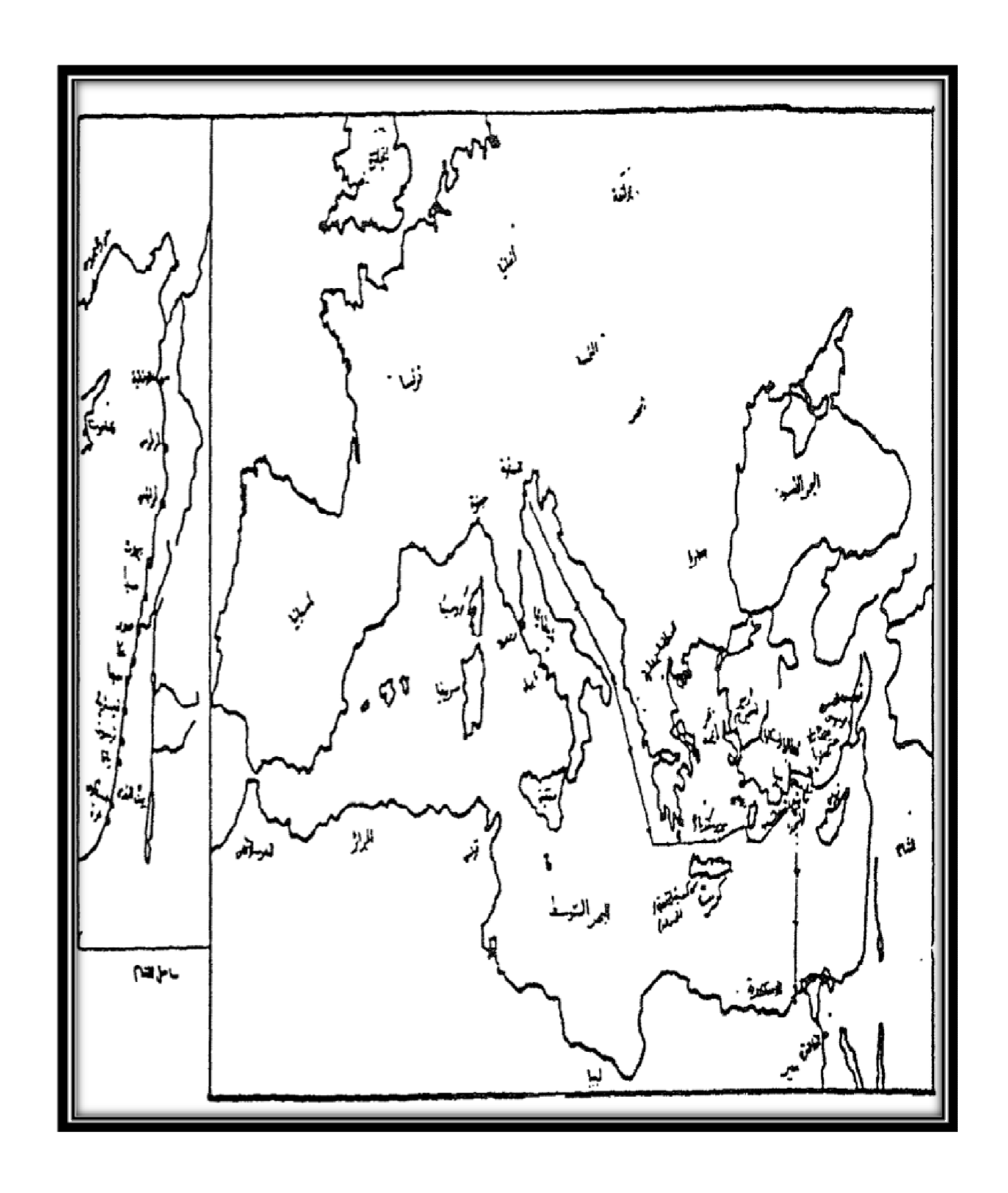


نقلاً عن شوقي أبو خليل: أطلس التاريخ العربي الإسلامي، ص٩٠.



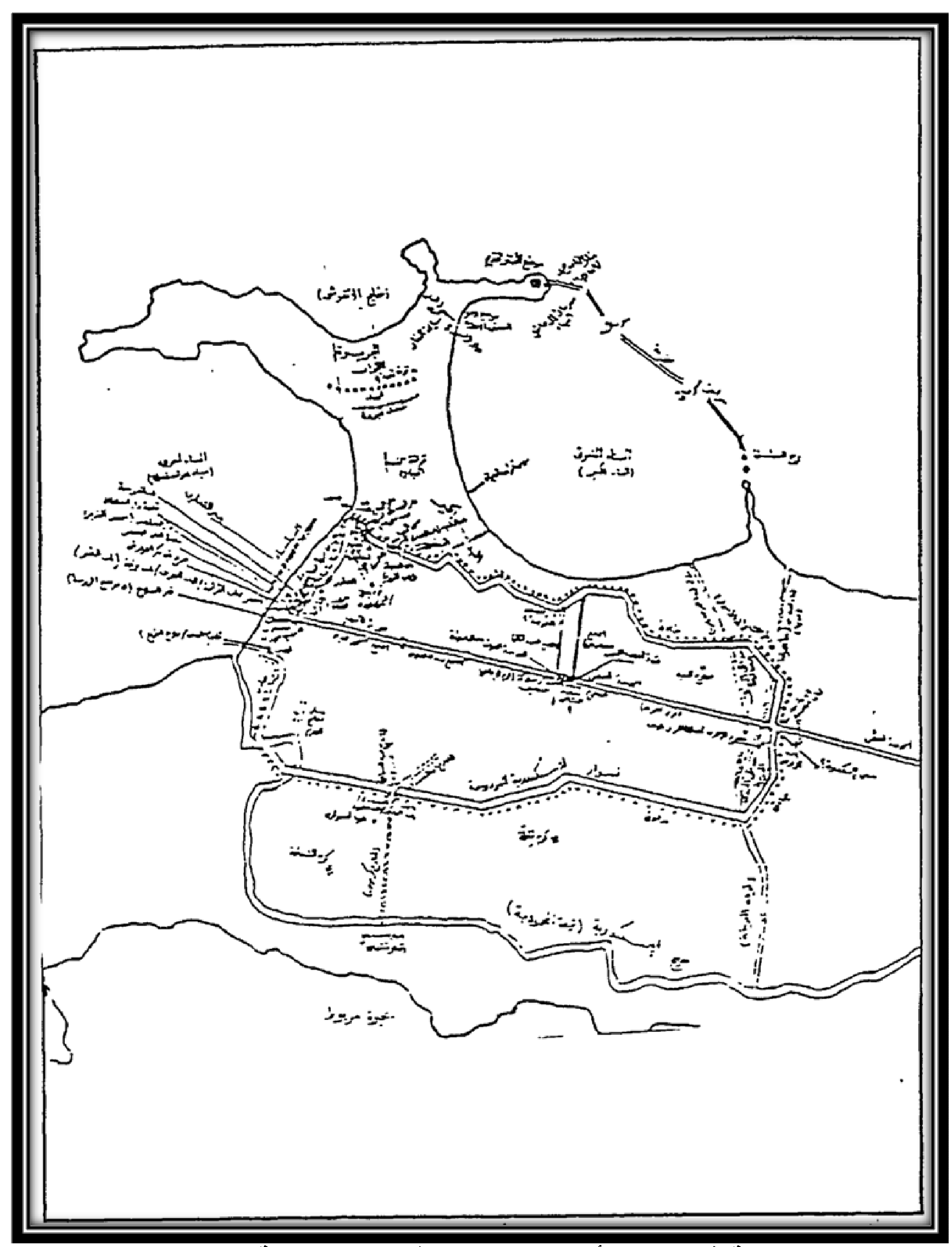
قبرص في العصور الوسطى والحديثة

نقلاً عن كتاب أحمد عتمان: تاريخ قبرص جزيرة الجمال والألم منذ القدم وإلى اليوم، ص١١٨ .



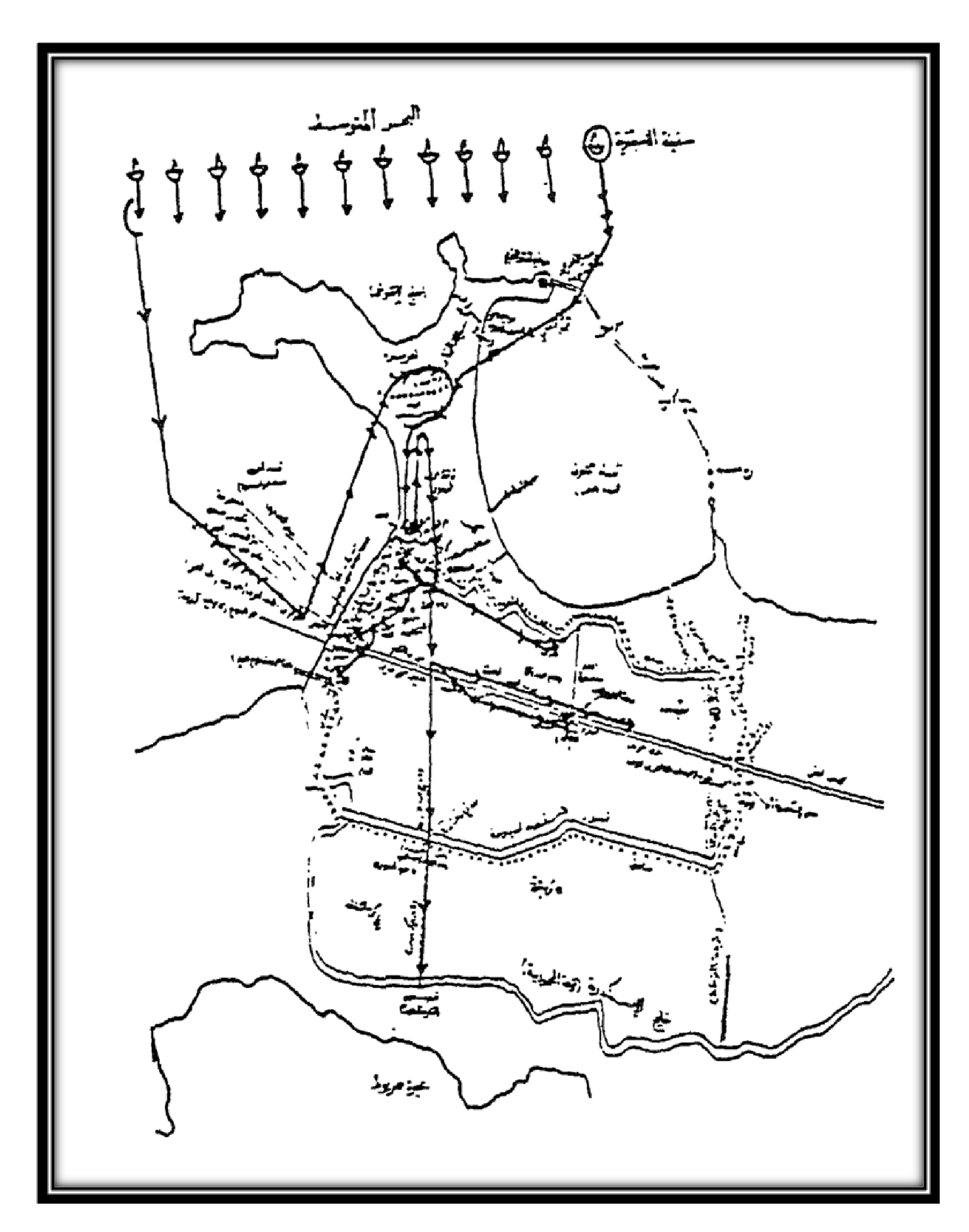
خط سير حملة الملك بطرس من البندقية إلى الإسكندرية

نقلاً عن كتاب سهير محمد إبراهيم نعينع: الحروب الصليبية المتأخرة حملة بطرس الأول لوسنيان على الإسكندرية ٧٦٧هـ/١٣٦٥م، ص١٤٤.



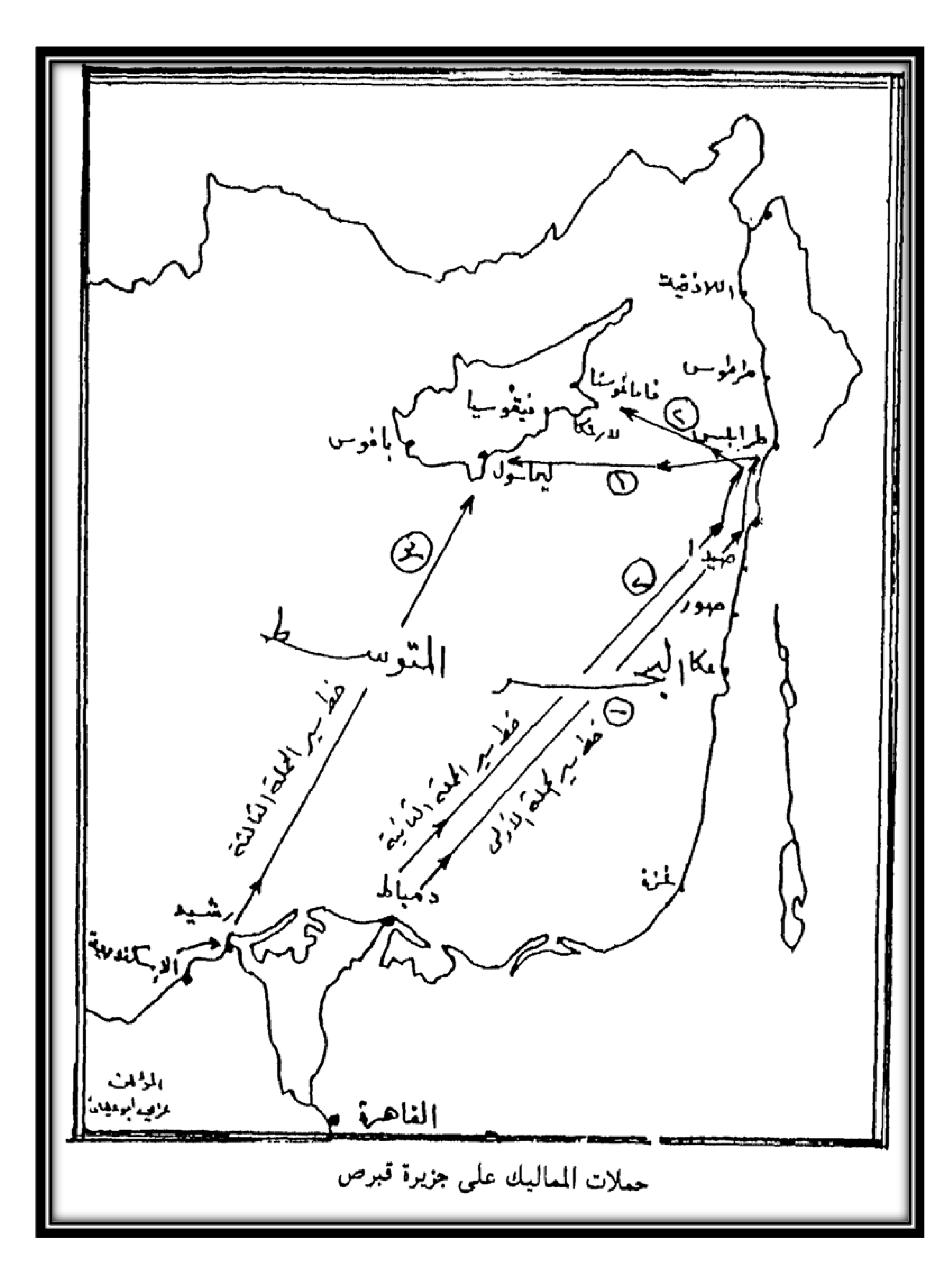
معالم الإسكندرية في عهد الأشرف شعبان وقت نزول حملة بطرس دي لوزينيان بها (٧٦٧هـ/١٣٦٥م)

نقلاً عن كتاب سهير محمد إبراهيم نعينع: الحروب الصليبية المتأخرة حملة بطرس الأول لوسنيان على الإسكندرية ٧٦٧هـ/١٣٦٥م، ص١٥٣.



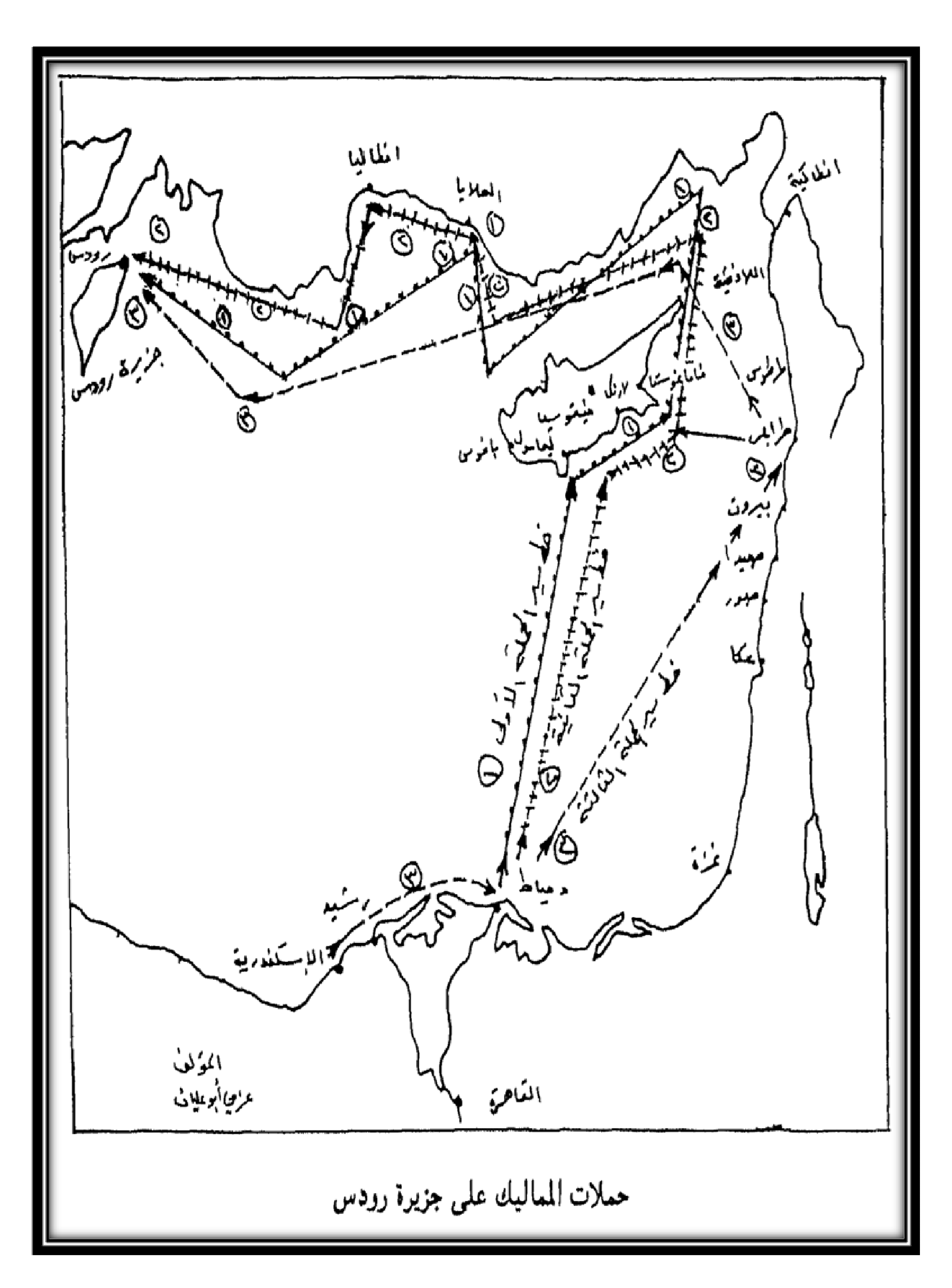
اقتحام مدينة الإسكندرية

نقلاً عن كتاب سهير محمد إبراهيم نعينع: الحروب الصليبية المتأخرة حملة بطرس الأول لوسنيان على الإسكندرية ٧٦٧هـ/١٣٦٥م، ص١٨٦.



حملات المماليك على جزيرة قبرص

نقلاً عن كتاب عزمي محمد عبد أبو عليان: مسيرة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين في عهد المماليك، ص١٩٧.

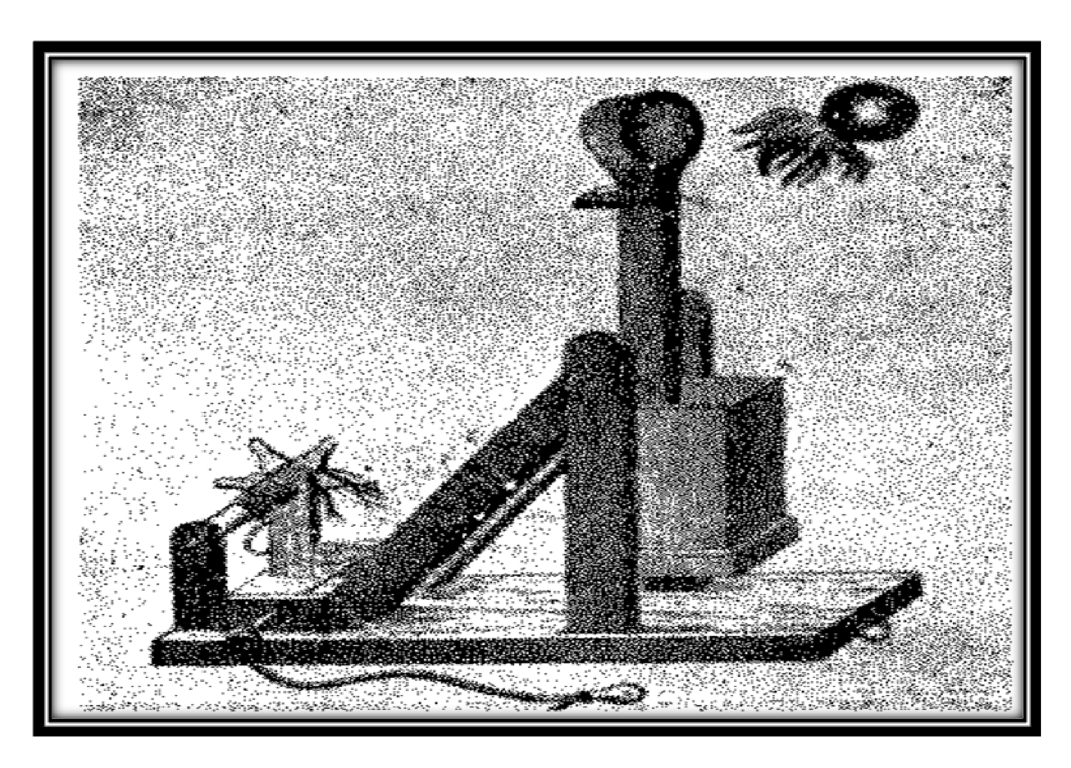


حملات المماليك على جزيرة رودس

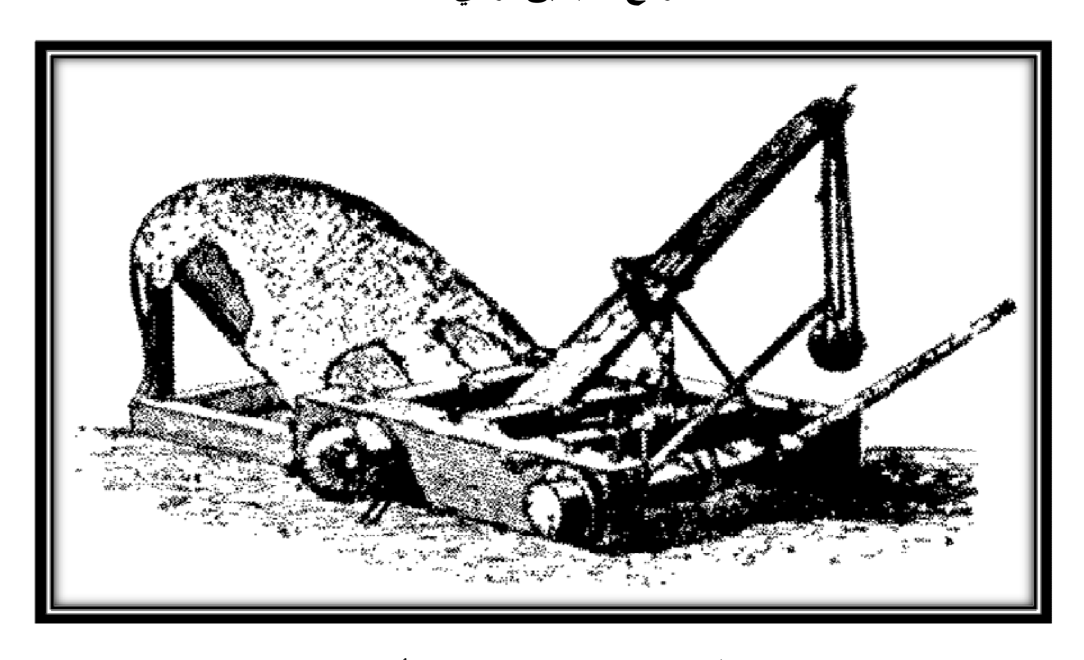
نقلاً عن كتاب عزمي محمد عبد أبو عليان: مسيرة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين في عهد المماليك، ص١٩٨.



نقلاً عن كتاب سعيد عبد الفتاح عاشور: مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، ص٣٥٤.

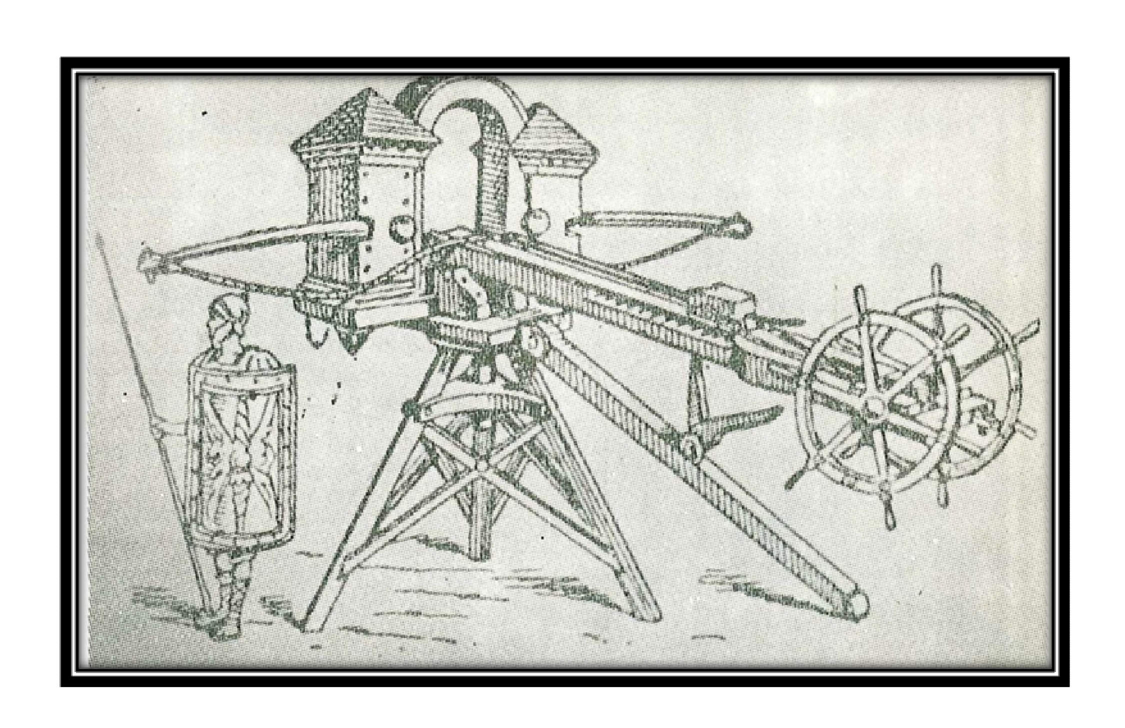


نموذج منجنيق لرمي النفط



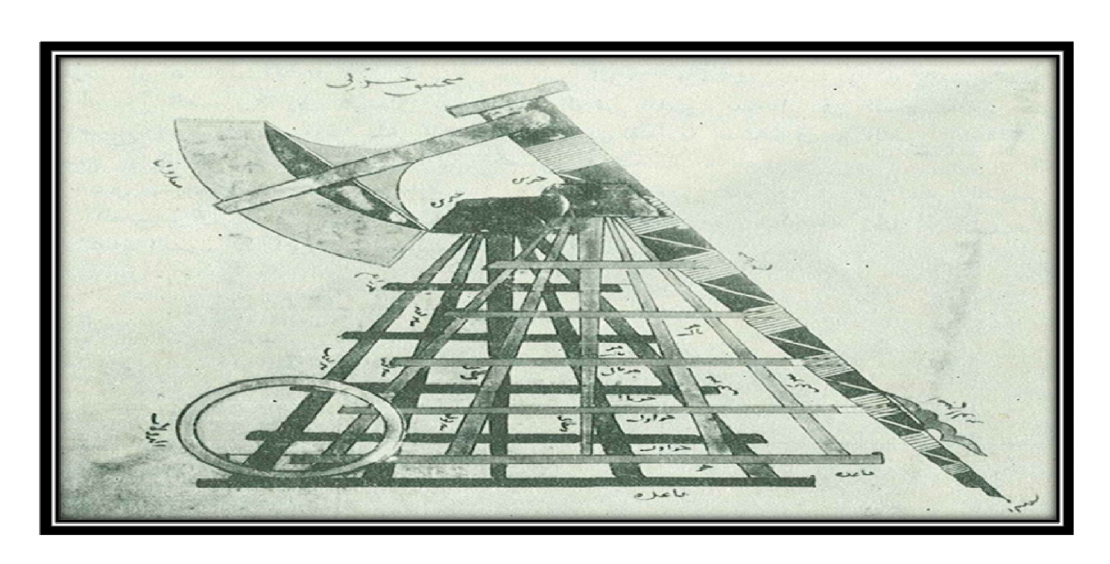
نموذج منجنيق لرمي الحجارة أو النفط

نقلاً عن كتاب عبد الفتاح عبادة: سفن الأسطول الإسلامي، ص٨، ٩.



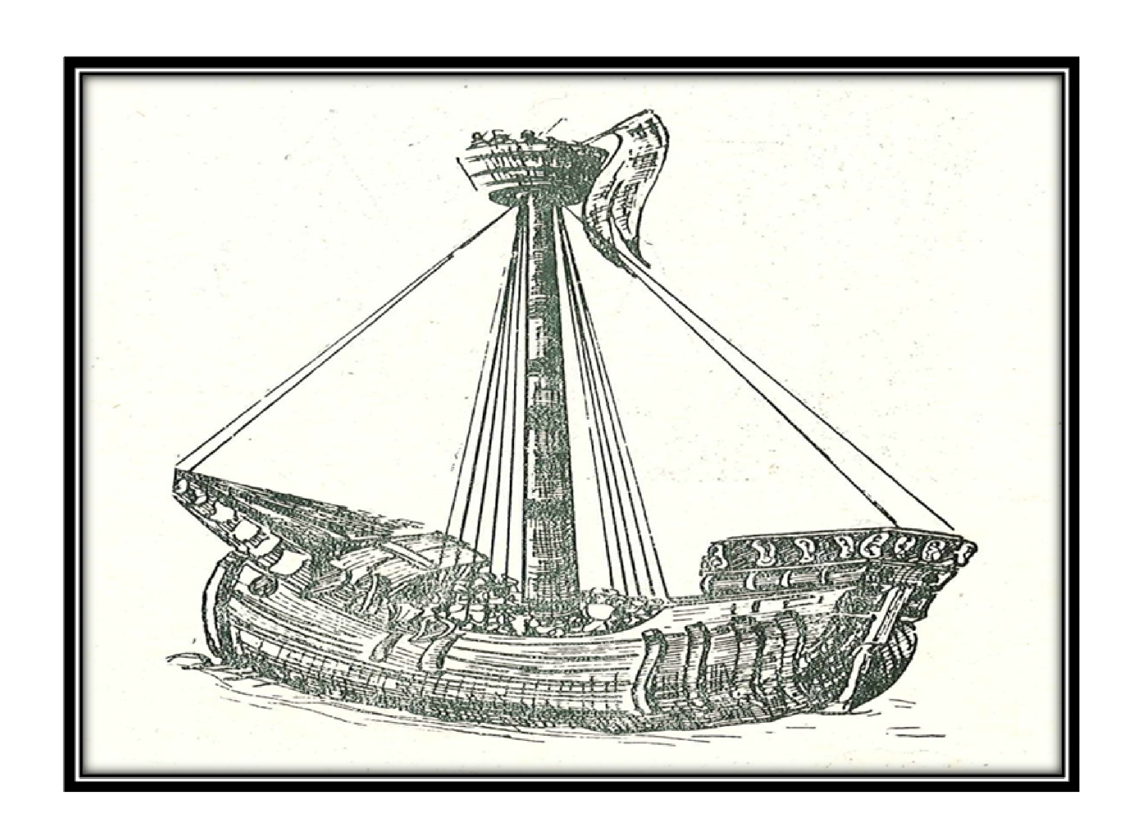
نموذج منجنيق لرمي السهام

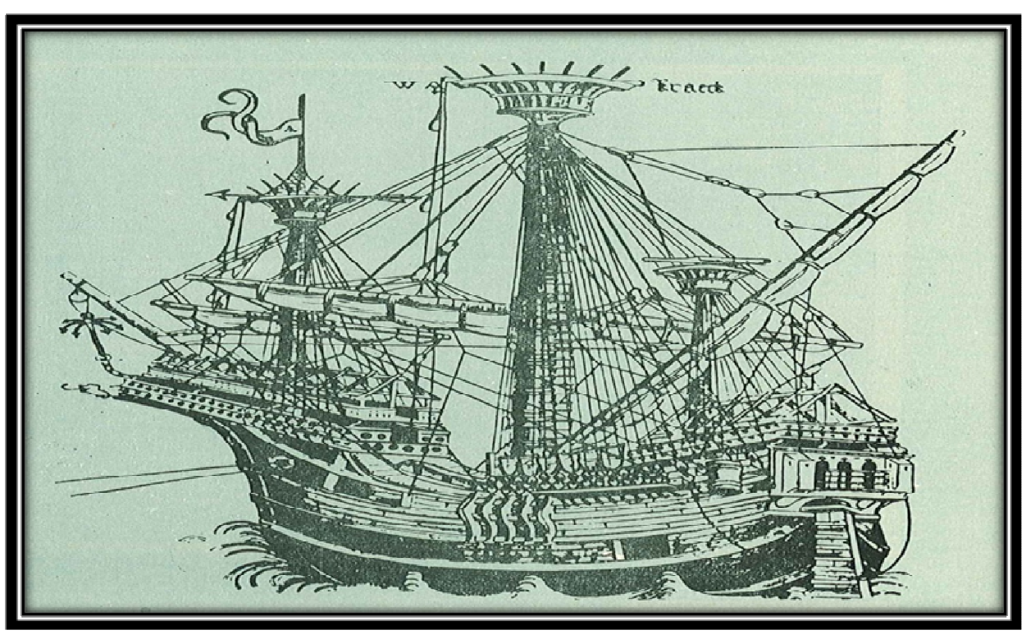
نقلاً عن كتاب إحسان هندي: الحياة العسكرية عند العرب، ص ١٢٦.



نموذج منجنيق حربي جاهز للرمي

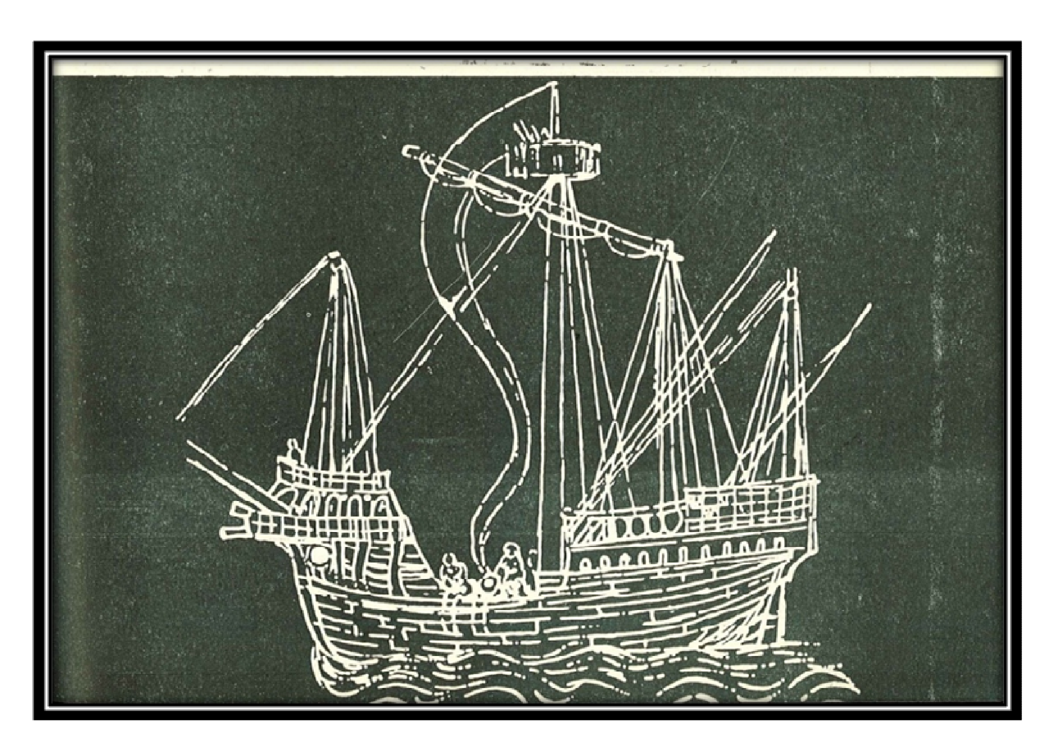
نقلاً عن كتاب ابن أرنبغا الزردكاش: الأنيق في المناجيق، ص ٦٧.



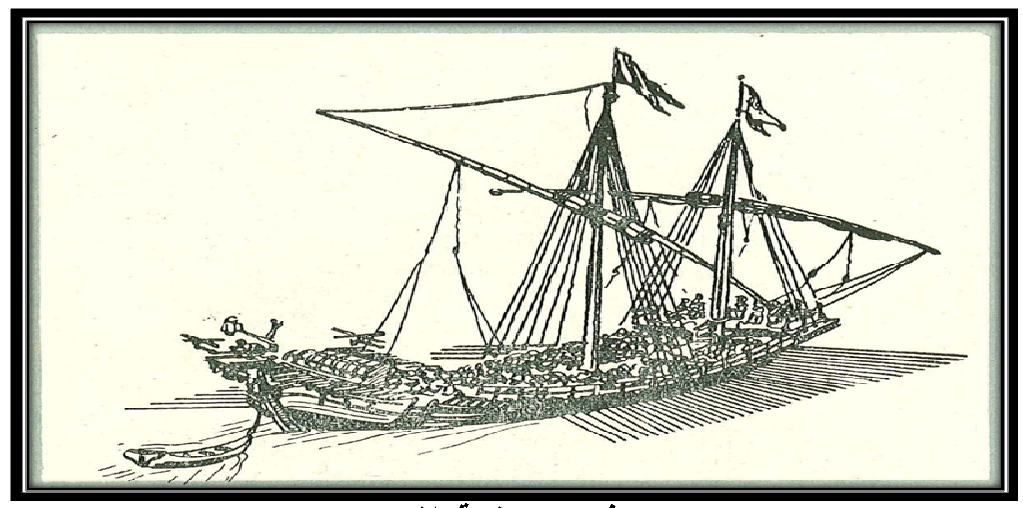


نموذجان من سفينة الحرّاقة

نقلاً عن كتاب سعاد ماهر: البحرية في مصر الإسلامية وآثارها الباقية، ص٤٦٣-٤٧٢.

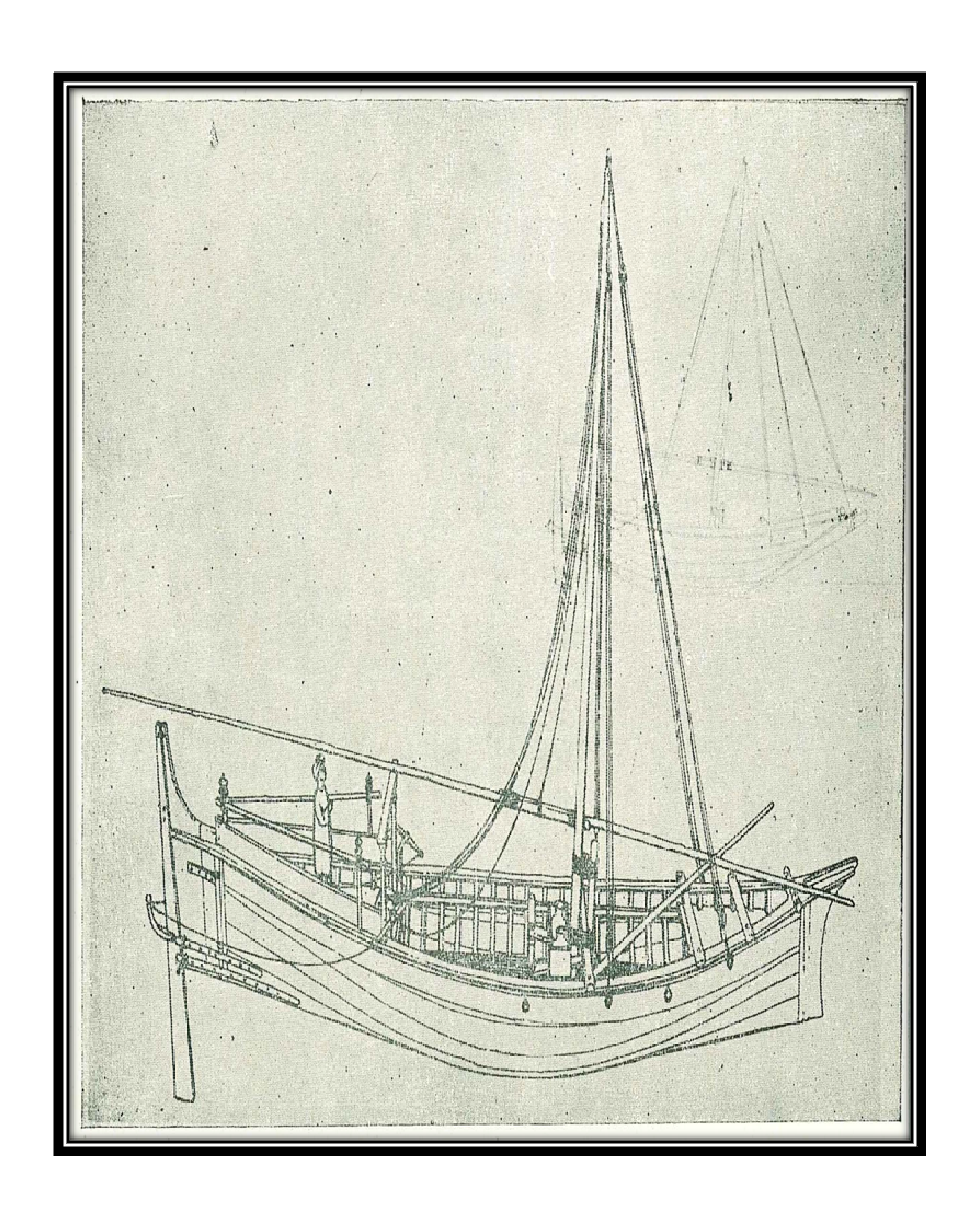


نموذج من سفينة القرقور



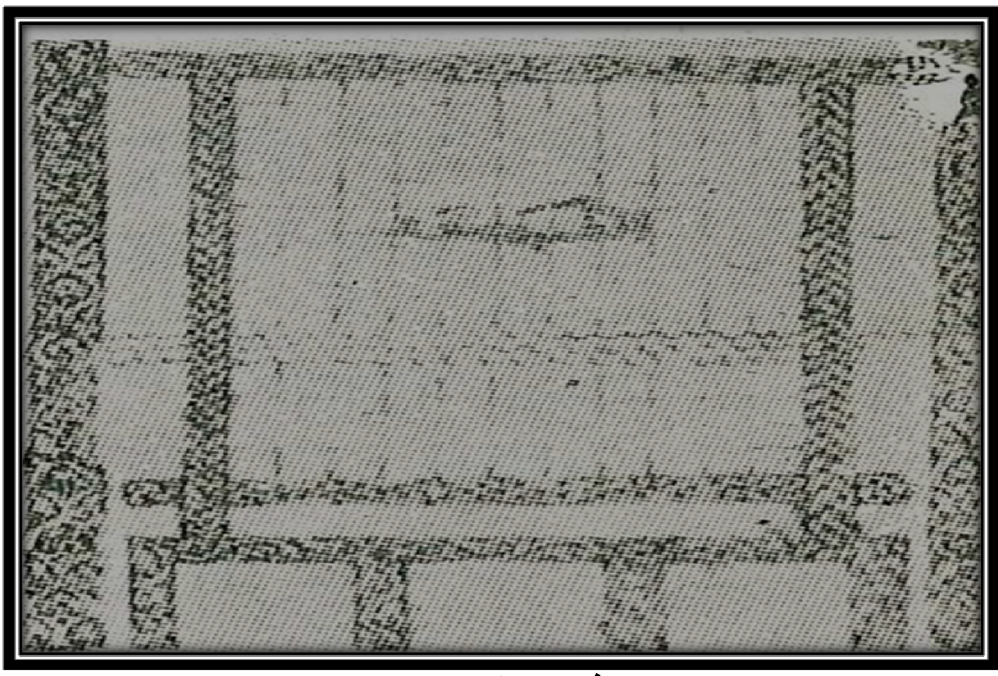
نموذج من سفينة الشواني

نقلاً عن كتاب سعاد ماهر: البحرية في مصر الإسلامية وآثارها الباقية، ص٤٦٢-٤٧١.

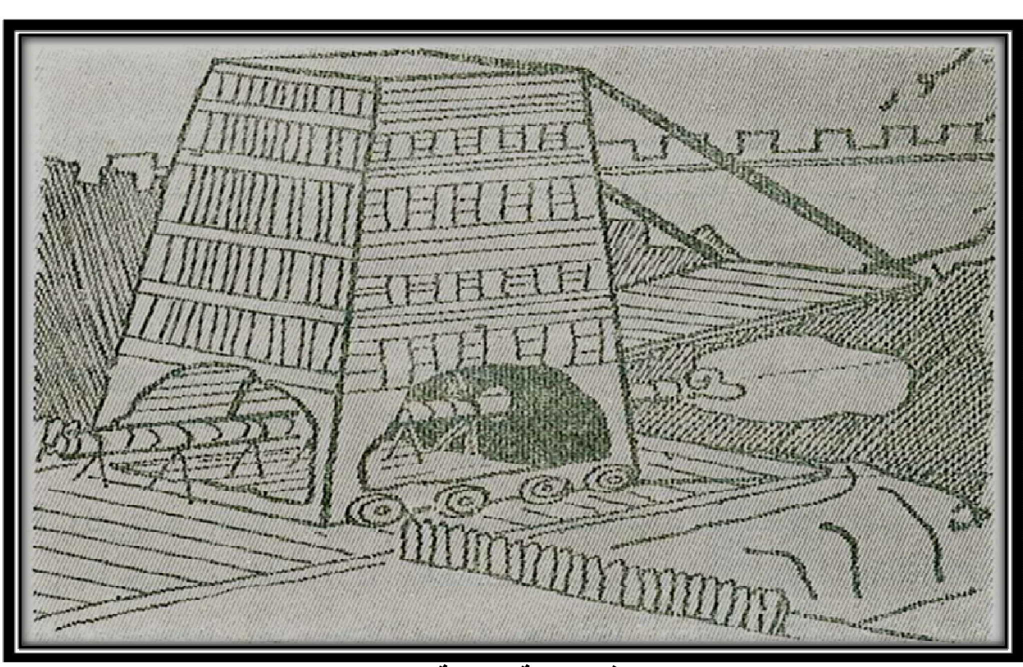


نموذج من الزوارق

نقلاً عن كتاب سعاد ماهر: البحرية في مصر الإسلامية وآثارها الباقية، ص٤٦٤.



نموذج من الستائر



نموذج دبابة عربية

نقلاً عن كتاب إحسان هندي: الحياة العسكرية عند العرب، ص ١٤٢-١٤٤.

مصادر ومراجع البحث

أولاً- المصادر العربية:

١- القرآن الكريم

٢- ابن أجا (محمد بن محمود الحلبي):

- العراك بين المماليك والعثمانيين الأتراك مع رحلة الأمير يشبك بن مهدي الدوادار، تحقيق: محمد أحمد دهمان، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٩٨٦م.

٣- ابن الأثير (عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم) (ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢م):

- الكامل في التاريخ، راجعه وصححه محمد يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط ٤، ٢٠٠٣.

٤- ابن الخطيب (لسان الدين محمد بن عبد الله) (ت ٧٧٦هـ/١٣٧٤م):

- الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق: محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٢، ١٩٧٣م.

٥- ابن الشحنة (أبو الفضل محمد) (ت ٩٢١هـ/١٥١٥م):

- الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب، دار الكتاب العربي في سورية، ١٩٨٤م.

٦- ابن الطقطقا (محمد بن علي بن طباطبا) (ت ٧١٠هـ/١٣١٠م):

- الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، دار صادر، بيروت.

٧- ابن العبري (أبو الفرج غريغوريوس بن أهرون) (ت ٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م):

- تاريخ الزمان، دار المشرق، بيروت، ١٩٨٦م.

٨- ابن العراقي (أحمد بن عبد الرحيم) (ت ٨٢٦هـ/١٤٢٢م):

- الذيل على العبر في خبر من عبر، تحقيق: صالح مهدي عباس، مؤسسة الرسالة، بغداد، ط١، ١٩٨٩م.

٩- ابن العماد (عبد الحي أحمد) (ت ١٠٨٩هـ/ ١٦٧٩م):

- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق: محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق بيروت، ط ١، ١٩٨٦ م.

١٠- ابن الفرات (ناصر الدين محمد) (ت ٨٠٧هـ/ ١٤٠٤م):

- تاريخ ابن الفرات، تحقيق: حسن محمد الشماع، ١٩٧٠ م.

١١- ابن الفقيه (أحمد بن محمد الهمزاني) (في القرن الثالث الهجري/العاشر الميلادي):

- مختصر كتاب البلدان، دار صادر، مطابع بربك ليدن، ١٣٠٢هـ.

١٢- ابن الوردي (زين الدين عمر بن مصطفى الشافعي) (ت ٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م):

- تاريخ ابن الوردي، دار الكتب العلمية، لبنان، ١٩٩٦م.
- تتمة المختصر في أخبار البشر.

١٣- ابن الوردي (سراج الدين أبي حفص عمر) (٨٦١هـ/ ١٤٥٦م):

- خريدة العجائب وفريدة الغرائب، القاهرة، ١٣٠٢هـ.

١٤- ابن إياس (محمد بن أحمد) (ت ٩٣٠هـ/١٥٢٣م):

- بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق: محمد مصطفى، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٤م.
- نزهة الأمم في العجائب والحكم ، تحقيق: محمد زينهم ومحمد عزب ،مكتبة مدبولي، القاهرة، ط١، ١٩٩٥م.

١٥- ابن أيبك الدواداري (أبو بكر بن عبد الله) (النصف الأول من القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي):

- كتر الدرر وجامع الغرر، تحقيق: سعيد عاشور، القاهرة، ١٩٧٢ م.

١٦- ابن بطوطة (أبو عبد الله محمد اللواتي) (ت ٧٧٩هـ/١٣٧٧م):

- رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ١٩٥٨م.

١٧- ابن تغري بردي (جمال الدين أبو المحاسن يوسف) (ت ٨٧٤هـ/١٤٧٠م):

- المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، ترجمة: تاج الشويكي وجكم النوروزي، تحقيق: محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦ م.

- الدليل الشافي على المنهل الصافي، تحقيق: فهيم محمد شلتوت، دار الكتب المصرية، القاهرة.
- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، قدم له محمد شمس الدين، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٢م.
- حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور، تحقيق: فهيم محمد شلتوت، لجنة أحياء التراث الإسلامي، القاهرة، ١٩٩٠م.

١٨- ابن جبير (محمد بن أحمد) (ت ٦١٤هـ/ ١٢١٧م):

- رحلة ابن جبير، دار صادر، بيروت.

١٩- ابن حجر العسقلاني (شهاب الدين أحمد بن علي) (ت ٨٥٢هـ/ ١٤٤٩م):

- الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٣م.
- نزهة الألباب في الألقاب، تحقيق: عبد العزيز محمد بن صالح السديري، مكتبة الرشيد، الرياض، ١٩٨٩م.
- إنباء الغمر بأبناء العمر في التاريخ، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٦ م.

٢٠- ابن حوقل (أبي القاسم النصيبي) (النصف الثاني من القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي):

- صورة الأرض، دار مكتبة الحياة، بيروت-لبنان، ١٩٩٢م.

٢١- ابن خرداذبة (عبيد الله بن عبد الملك) (ت ٣٠٠هـ/ ٩١٢م):

- المسالك والممالك، ليدن، ١٨٨٩م.

٢٢- ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد) (ت ٨٠٨هـ/ ١٤٠٦م):

- التعريف بابن خلدون ورحله شرقاً وغرباً، تحقيق: محمد بن تاويت الطنجي، القاهرة، ١٩٥١م.
- مقدمة ابن خلدون، تحقيق: أ.م كاترمير، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٩٢م.
- تاريخ ابن خلدون، ضبطه ووضع حواشيه خليل شحادة، مراجعة سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، ٢٠٠٠ م.

٢٣- ابن خلكان (شمس الدين أحمد بن علي) (ت٦٨١هـ/ ١٢٨٢م):

- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨م.

٢٤- ابن خياط العصفري (خليفة) (ت ٢٤٠هـ/ ٨٥٤م):

- تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق: أكرم ضياء العمري، دار القلم، دمشق، ط٢، ١٣٩٧م.

٢٥- ابن سباط (حمزة بن أحمد) (النصف الأول من القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي):

- صدق الأخبار (تاريخ ابن سباط)، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، جروس بروس، طرابلس، ط١، ١٩٩٣م.

٢٦- ابن سعيد المغربي (علي بن موسى) (ت ٦٧٣هـ/١٢٧٤م):

- المغرب في حلى المغرب، ليدن، ١٨٩٩م.
- النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة، القسم الخاص بالقاهرة من كتاب المغرب في حلى المغرب، تحقيق: حسين نصار، دار الكتب المصرية، ١٩٧٠م.

٢٧- ابن سيده (علي بن اسماعيل) (ت ٤٥٨هـ/١٠٦٦م):

- المحكم والمحيط الأعظم، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط١، ٢٠٠٠م.

٢٨- ابن شداد (بهاء الدين أبو المحاسن يوسف) (ت ٦٣٢هـ/ ١٢٣٩م):

- النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية أو سيرة صلاح الدين، تحقيق: جمال الدين الشيال، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١، ١٩٦٤م.

٢٩- ابن شداد (عز الدين محمد بن علي) (ت ٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م):

- الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، تحقيق: يحيى زكريا عبادة، منشورات وزارة الثقافة، سوريا، ١٩٩١م.
- تاريخ الملك الظاهر، اعتناء أحمد حطيط، المعهد الألماني للأبحاث، بيروت، ١٩٨٣م.

٣٠- ابن طولون (محمد بن علي) (ت ٩٥٣هـ/١٥٤٦م):

- مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، وضع حواشيه: خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت.

٣١- ابن ظهيرة (برهان الدين إبراهيم) (ت ٨٩١هـ/١٤٨٦م):

- الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة، تحقيق: مصطفى السقا، كامل المهندس، مطبعة، ١٩٦٩ م.

٣٢- ابن عبد الظاهر (محي الدين عبد الله) (٦٩٢هـ/١٢٩٣م):

- تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، تحقيق: مراد كامل، القاهرة، ط١، ١٩٦١م.

٣٣- ابن قاضي شهبه (تقي الدين أحمد) (٨٥١هـ/ ١٤٤٨م):

- تاريخ ابن قاضي شهبه، تحقيق: عدنان درويش، المعهد الفرنسي للدراسات العربية،، دمشق ،١٩٩٤م .

٣٤- ابن كثير (عماد الدين إسماعيل) (ت ٧٧٤هـ/ ١٣٧٣م):

- البداية والنهاية، مكتبة المعارف، بيروت، ط٢، ١٩٩٠م.
- الاجتهاد في طلب الجهاد، جمعية التأليف والنشر الأزهرية، القاهرة، ط١، ١٣٤٧هـ.

٣٥- ابن مماتي (الأسعد بن الخطير) (ت ٦٠٦هـ/ ١٢١٠م):

- قوانين الدواوين، تحقيق: عزيز سوريال عطية، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط١، ١٩٩١م.

٣٦- ابن منظور (أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم المصري) (ت٧١١هـ/١٣١١م):

- لسان العرب، دار المعارف، القاهرة، ١١١٩ م.

٣٧- ابن منكلي (محمد الناصري) (ت ٧٧٨هـ/ ١٣٧٧م):

- الأحكام الملوكية والضوابط النموسية في فن القتال في البحر، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية.

٣٨- ابن واصل (جمال الدين بن سالم) (ت ٦٩٧هـ/ ١٢٩٨م):

- مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق: جمال الشيال، القاهرة، ١٩٥٧م.

٣٩- ابن يحيى (صالح) (٨٤٠هـ/ ١٤٣٦م):

- تاريخ بيروت، تحقيق: كمال الصليبي و فرنسيس هورس، بيروت ، ١٩٦٩م.

٤٠- أبو الفداء (إسماعيل بن علي) (ت ٧٣٢هـ/ ١٣٣١م):

- المختصر في أخبار البشر، تحقيق: محمد زينهم محمد عزب، دار المعارف، بيروت، ط١، ١٩٩٨م.
- تقويم البلدان، تصحيح: زينود والبارون، دار الطباعة السلطانية،باريس، ١٨٤٠ م.
- التبر المسبوك في تواريخ الملوك، تحقيق: محمد زينهم محمد عزب، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط١، ١٩٩٥م.

٤١- أبو شامة (أبو القاسم عبد الرحمن بن إسماعيل) (ت ٦٦٥هـ/ ١٢٦٨م):

- الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق: محمد حلمي محمد أحمد، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط٢.
- الذيل على الروضتين، تحقيق: محمد الكوثري، دار الجيل، بيروت، ط ١، ١٩٤٧م.

٤٢- أبي العباس (أحمد بن حسن) (ت ٨٠٩هـ/١٤٠٦م):

- الوفيات، تحقيق: عادل نويهض، دار الإقامة الجديدة، بيروت، ١٩٧٨م.

٤٣- الإدريسي (محمد بن عبد الله) (ت٥٠٦هـ/١١٦٥م):

- نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٩٨٩م.

٤٤- الإصطخري (إبراهيم بن محمد الفارسي) (في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي):

- المسالك والممالك، تحقيق: محمد الحيني، دار القلم، بيروت، ١٩٩١م.

٤٥- الأصفهاني (عماد الدين محمد) (ت ٥٩٧هـ/ ١٢٠١م):

- الفتح القسي في الفتح القدسي، تحقيق: محمد محمود، مطبوعات من الشرق والغرب، القاهرة، ١٩٦٥م.

٤٦- الأنطاكي (يحيى بن سعيد) (ت ٤٥٨هـ/١٠٦٧م):

- تاريخ الأنطاكي المعروف بصلة تاريخ أوتيخا، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، جروس برس ،طرابلس، لبنان، ١٩٩٠م.

٤٧- **البغدادي (ابن فتح الله الملقب بالغياث):**

- التاريخ الغياثي، نشره: طارق نافع الحمداني، بغداد، ١٩٧٥ م.

٤٨- **البغدادي (صفي الدين عبد المؤمن) (ت ٧٣٩هـ/١٣٣٨م):**

- مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، تحقيق: البجاوي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ١٩٥٥م.

٤٩- **البغدادي (عبد اللطيف) (ت ٦٦٨هـ/١٢٧٠م):**

- الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر، مطبعة وادي النيل، ط١، ١٢٨٦هـ.

٥٠- **البكري (أبو عبيد الله عبد الله بن عبد العزيز) (ت ٤٨٧هـ/١٠٩٤م):**

- المسالك والممالك، تحقيق: أدريان فان ليوفن، المؤسسة الوطنية لترجمة، دار العربية للكتاب، ١٩٩٢م.

٥١- **البلاذري (أبو العباس أحمد بن يحيى بن جابر) (ت ٢٧٩هـ/ ٨٩٢م):**

- فتوح البلدان ، تحقيق: عبد الله أنيس الطباع، مؤسسة المعارف، بيروت، ١٩٨٧م.
- المختار من فتوح البلدان، إعداد وتقديم: سمير سرحان ومحمد عناني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩م.

٥٢- **البلوي (أبي محمد عبد الله بن محمد المديني) (في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي):**

- سيرة أحمد بن طولون، تحقيق: محمد كرد علي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة.

٥٣- **الجبرتي (عبد الرحمن بن حسن):**

- تاريخ الجبرتي، دار الشعب، مصر، ط٢، ١٩٩٣ م.
- عجائب الآثار في التراجم والأخبار، تحقيق: عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، تقديم: عبد العظيم رمضان، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط٦، ١٩٩٧م.

٥٤- **الجهشياري (محمد بن عبدوس) (ت ٣٣١هـ/٩٤٣م):**

- الوزراء والكتاب، تحقيق: مصطفى السقا وآخرون، مطبعة البابي الحلبي وأولاده، مصر، ط۱، ۱۹۳۸م .

٥٥- الجويني (علاء الدين عطا ملك) (ت ٦٨١هـ/١٢٨٢م):

- تاريخ قاهر العالم، ترجمة: أحمد التونجي، دار الملاح للطباعة والنشر، حلب، ۱۹۸٥م.

٥٦- الحسن بن عبد الله (ت ٧٠٨هـ/ ١٣٠٨م):

- آثار الأول في ترتيب الدول، القاهرة، ١٣٠٥هـ.

٥٧- الحميري (محمد بن عبد المنعم) (ت ٩٠٠هـ/١٤٩٥م):

- الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت، ط٢، ١٩٨٠م.

٥٨- الخطيب البغدادي (عبد القاهر بن طاهر بن محمد) (ت ٤٦٣هـ/١٠٧١م):

- تاريخ بغداد، تحقيق وطبع: أوفست كونرو غرافير، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٦٧م.

٥٩- الدواداري المنصوري (بيبرس) (ت ٧٢٥هـ/ ١٣٢٥م):

- مختار الأخبار تاريخ الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية حتى سنة ٧٠٢هـ، تحقيق: عبد الحميد صالح حمدان، الدار المصرية، القاهرة، ط ١، ١٩٩٣م.
- زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، مكتبة الجامعة المصرية.

٦٠- الدويهي (البطريرك اسطفان):

- تاريخ الأزمنة، تحقيق: الأب فردنيان نوتل اليسوعي، بيروت، ١٩٥١م.

٦١- الذهبي (محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز) (ت ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م):

- العبر في خبر من غبر، تحقيق: محمد السعيد، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط١، ١٩٨٥ م.
- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، مؤسسة الأعلمي، بيروت -لبنان، ١٩٨٥م.
- دول الإسلام، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت- لبنان، ١٩٨٥م.

٦٢- الرازي (محمد بن أبي بكر بن عبد القادر):

- مختار الصحاح، تحقيق محمود خاطر، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط١، ١٩٩٥م.

٦٣- **الزردكاش (ابن أرنبغا) (ت٨٦٧هـ/١٤٦٣م):**

- الأنيق في المناجيق، تحقيق: إحسان هندي، معهد التراث العلمي العربي، جامعة حلب، ١٩٨٥م.

٦٤- **سبط ابن الجوزي (شمس الدين ابن المظفر يوسف بن غزاوغلي التركي) (ت٦٥٤هـ/١٢٥٦م):**

- مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر أباد الدكن، الهند، ط١، ١٩٥٢م.

٦٥- **السخاوي (شمس الدين محمد بن عبد الرحمن) (ت ٩٠٢هـ/ ١٤٩٦م):**

- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، دار مكتبة الحياة، بيروت.
- التبر المسبوك في ذيل السلوك ، مكتبة الكليات الأزهرية ، القاهرة، ١٠٥٣هـ.
- وجيز الكلام في الذيل على دول الإسلام، تحقيق: بشار عواد معروف وآخرون، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٩٥ م.

٦٦- **السيوطي (جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن) (ت ٩١١هـ/ ١٥٠٥م):**

- غزوات قبرص ورودس، فيينا، ١٩٨٤م.
- حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ط ١، ١٩٦٨ م.
- الدر المنثور في التفسير المأثور، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، مركز الدراسات العربية، القاهرة، ط ١، ٢٠٠٣م.
- تاريخ الخلفاء، راجعه وعلق عليه جمال محمود مصطفى، دار الفجر للتراث، القاهرة، ط ٢، ٢٠٠٤ م.
- نظم العقيان في أعيان الأعيان، حرره: فيليب حتي، المطبعة السورية الأمريكية، نيويورك، ١٩٢٧م.

٦٧- **الشابشتي (أبو الحسن):**

- الديارات، تحقيق: كوركيس عواد، دار الرائد العربي، ط٣، ١٩٨٦م.

٦٨- الشدياق (طنوس بن يوسف):

- أخبار الأعيان في جبل لبنان، بيروت، ١٩٥٤م.

٦٩- الشوكاني (محمد بن علي) (١٢٥٠هـ/١٨٣٤م):

- البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، وضع حواشيه: خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٨م.

٧٠- شيخ الربوة (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي طالب الأنصاري) (ت٧٢٧هـ/١٣٢٦م):

- نخبة الدرر في عجائب البر والبحر، مطبعة الأكاديمية الإمبراطورية، بطربورغ، ١٨٦٥م.

٧١- الصرفي (رزق الله منقريوس):

- تاريخ دول الإسلام، مطبعة الهلال، مصر، ١٩٠٨م.

٧٢- الصفدي (صلاح الدين خليل بن أيبك) (ت ٧٦٤هـ/ ١٣٦٣م):

- الوافي بالوفيات، تحقيق: أحمد الأرناووط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠٠م.

٧٣- الصيرفي (علي بن داوود) (ت ٩٠٠هـ/ ١٤٩٥م):

- نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، تحقيق: حسن حبش، مطبعة دار الكتب، طرابلس، ١٩٧٣م.

٧٤- الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير) (ت ٣١٠هـ/٩٢٢م):

- تاريخ الرسل والملوك، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، ط ٢.

٧٥- الظاهري (غرس الدين خليل بن شاهين) (ت ٨٧٣هـ/١٤٦٨م):

- زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، اعتنى به: بولس راويس، المطبعة الجمهورية، باريس، ١٨٩٤م.

٧٦- العباسي (عبد الرحيم) (ت ٩٦٣هـ/ ١٥٥٦م):

- منح رب البرية في فتح رودس الأبية، حوليات كلية الآداب، تصدر عن مجلس النشر العلمي، جامعة الكويت، الكويت، ١٩٩٧ م.

٧٧- **العمري (شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله) (ت ٧٤٩هـ/١٣٤٨م):**

- مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق: حمزة أحمد عباس، قطعة منه بعنوان: ممالك اليمن والغرب الإسلامي وقبائل العرب، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ط١، ٢٠٠٢م.
- التعريف بالمصطلح الشريف، مصر، ١٣١٢هـ.

٧٨- **العيني (بدر الدين محمود) (ت ٨٥٥هـ/ ١٤٥١م):**

- عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، تحقيق: محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العام للكتاب، القاهرة، ١٩٨٩ م.
- السيف المهند في سيرة الملك المؤيد شيخ المحمودي، تحقيق: فهيم محمد علوي شلتوت، راجعه: محمد مصطفى زيادة، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط٢، ١٩٩٨م.

٧٩- **القرماني (أحمد بن يوسف) (ت ١٠١٩هـ/ ١٦١٠م):**

- أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ، تحقيق أحمد حطيط وفهمي سعد، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٩٩٢م.

٨٠- **القلانسي (أبو يعلى حمزة) (ت ٥٥٠هـ/ ١١٥٥م):**

- ذيل تاريخ دمشق، مكتبة المتنبي، القاهرة.

٨١- **القلقشندي (أحمد بن علي) (ت ٨٢١هـ/ ١٤١٨م):**

- صبح الأعشى في صناعة الإنشا، دار الكتب الخديوية، القاهرة، ١٩١٤م.
- مآثر الأنافة في معالم الخلافة، تحقيق: عبد الستار فراج، عالم الكتب، بيروت.

٨٢- **الكاتب (شافع بن علي عباس) (ت٧٣٠هـ/١٣٣٠م):**

- حسن المناقب السرية المنتزهة من السيرة الظاهرية، تحقيق ونشر: عبد العزيز بن عبد الله الخويطر، مطابع القوات المسلحة السعودية، الرياض، ١٩٧٦م.

٨٣- **الكتبي (محمد بن شاكر):**

- فوات الوفيات، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٧٢م.

٨٤- الكندي (أبو عمر محمد بن يوسف) (ت ٣٥٠هـ/٩٦١م):

- كتاب الولاة وكتاب القضاة، طبع بمطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، ١٩٠٨م.

٨٥- المدائني (عز الدين عبد الحميد) (ت ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م):

- حملات الغزو المغولي للشرق، ترجمة: مختار جبلي، دار لارماتون، باريس، ١٩٩٥م.

٨٦- المسعودي (أبي الحسن علي بن الحسين) (ت ٣٤٦هـ/ ٩٥٧م):

- مروج الذهب ومعادن الجوهر، علق عليه: قاسم وهب ، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ط١، ١٩٨٩م.
- أخبار الزمان ومن أباده الحدثان وعجائب البلدان والغامر بالماء والعمران، دار الأندلس، بيروت، ١٩٩٦م.

٨٧- المقدسي (شمس الدين محمد بن أحمد) (ت ٣٨٧هـ/ ٩٩٧م):

- أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مطبعة بريل، ليدن، ١٩٠٦م.

٨٨- المقريزي (تقي الدين أحمد بن علي) (ت ٨٤٥هـ/ ١٤٤١م):

- السلوك لمعرفة دول الملوك، صححه ووضع حواشيه أحمد مصطفى زيادة، مطبعة لجنة التأليف، القاهرة، ١٩٥٦م.
- الخطط المقريزية، تحقيق: محمد زينهم وآخرون، دار الأمين، القاهرة، ط ١، ١٩٩٧م.
- الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك، تحقيق: جمال الدين الشيال، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط١، ٢٠٠٠م.
- المختار من إغاثة الأمة في كشف الغمة، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- درر العقود الفريدة في ترجمة الأعيان المفيدة، تحقيق: عدنان درويش ومحمد المصري، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٩٥م.
- اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، تحقيق: جمال الدين الشيال، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، ١٩٦٧م.

٨٩- النويري (شهاب الدين أحمد) (ت ٧٣٣هـ/١٣٣٣م):

- نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق: محمد ضياء الدين الريس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٦٣ م.

٩٠- النويري السكندراني (محمد بن قاسم) (ت ٧٧٥هـ/ ١٣٧٢م):

- الإلمام بالإعلام بما جرت به الأحكام المقضية في وقعة الإسكندرية، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية.

٩١- الواقدي (أبو عبد الله محمد بن عمر بن واقد) (ت ٢٠٧هـ/٨٢٢م):

- فتوح الشام، تحقيق: هاني الحاج، المكتبة التوفيقية.

٩٢- اليافعي (عبد الله بن اسعد) (ت ٧٦٨هـ/١٣٦٦م):

- مرآة الجنان وعبرة اليقظان، وضع حواشيه خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٧م.

٩٣- ياقوت الحموي (شهاب الدين بن عبد الله) (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م):

- معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٩٧٧م.
- منجم العمران في المستدرك على معجم البلدان، جمعه ورتبه: محمد أمين الخانجي، مطبعة السعادة، مصر، ط١، ١٩٠٧م.

٩٤- اليعقوبي (أبو العباس أحمد بن يعقوب بن جعفر) (ت ٢٨٤هـ/ ٨٩٧م):

- تاريخ اليعقوبي، دار صادر، بيروت،١٩٩٦م.

٩٥- اليونيني (قطب الدين موسى بن محمد) (ت٧٢٦هـ/١٣٢٦م):

- ذيل مرآة الزمان، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر أباد الدكن، الهند، ط١، ١٩٥٤م.

ثانياً- المصادر والمراجع الأجنبية:

٩٦- **Atiya** (**Aziz suryal**):The Crusade in the Later Middle Ages,Oxford,1938.

٩٧- **Danial** (**N.A**) " The Sack Alexandria " in :Archaeological and Historical Studies , 1979,Publication of the Archaeological society of Alexandria , Alexandria ,1979 .

٩٨- **Makhairas** (**Leontion**) : Recital Concerning The Sweetland Of Cyprus Entitled "Chronicle" Edited With A translation And Notes By R.M : Dawkins,2vols,Oxford,1930.

٩٩- **Machaut** (**guillaume de**):lapaised Alexandrie on chronique duroipierre lerde lusignan , publice per, m.l. de maslatrie, aeneve1877.

١٠٠- **Edbury** (**Peter**.**w**): The Crusading police of peter I of Cyprus ,1359-1469,in :holt, p.m. (Editor) , the eastern miditwrranean lands in the period of the crusads, warminster, England, 1977.

١٠١- **Vasilevs**: history of the byzantine , emire .

١٠٢- Cyprus , 1000 years of history and civilization, Cyprus torism organization, 2002.

١٠٣- **Hill (G)** : A history of Cyprus ,Cambridge , 1948.

ثالثاً- المصادر والمراجع الأجنبية:

١٠٤- إ.ج (كنغ):

- ملاحق كتاب الإسبتارية في الأرض المقدسة، من خلال الموسوعة الشامية، ترجمة: سهيل زكار، دمشق، ١٩٩٨م، ج٣٣.

١٠٥- بورتشارد (راهب دير جبل صهيون) (٦٧٩هـ/ ١٢٨٠م):

- وصف بورتشارد راهب جبل صهيون للأرض المقدسة من خلال الموسوعة الشامية، دار الفكر، ١٩٩٩م، ج٣٧.

١٠٦- حاج مجهول من القرن الثاني عشر :

- رحلات غربية (هذا هو الطريق إلى الأرض المقدسة)، الموسوعة الشامية، تحقيق وترجمة: سهيل زكار، دمشق، ١٩٩٩م، ج٣٧.

١٠٧- دوبوا (بيير):

- استرداد الأرض المقدسة، الموسوعة الشامية، دار الفكر، ١٩٩٩م، ج٣٦.

١٠٨- دي فتري (جاك):

- المنتقى من تاريخ القدس، الموسوعة الشامية، دار الفكر، دمشق، ١٩٩٨م، ج ٣٣.

١٠٩- دي نوفار (فيليب) (ت ٦٦٣هـ/ ١٢٦٥م):

- حروب فريدريك الثاني ضد الإيبلينيين في سورية وقبرص، الموسوعة الشامية، دار الفكر، ١٩٩٨م، ج٣٤.

١١٠- سمباط:

- التاريخ المعزو إلى القائد سمباط الأرمني، الموسوعة الشامية، دار الفكر، دمشق، ١٩٩٩م، ج٣٥.

١١١- سيتون (كنث.م):

- البابوية والحروب الصليبية في مشرق البحر المتوسط، الموسوعة الشامية، تحقيق وتأليف وترجمة: سهيل زكار، دمشق، ٢٠٠٨م، ج٥٥.

١١٢- الصوري (الفارس الداوي) (٦٥٣هـ/ ١٢٥٥م):

- أعمال القبارصة، الموسوعة الشامية، تحقيق وتأليف وترجمة: سهيل زكار، دمشق، ٢٠٠٦م.

١١٣- فابري (فيليكس):

- جولات الراهب فيليكس فابري ورحلاته حوالي (١٤٨٠-١٤٨٣م)، الموسوعة الشامية، تأليف: سهيل زكار، دار الفكر، دمشق، ٢٠٠٠م، ج٢٨.

١١٤- فوقاس (يوانس) :

- وصف مختصر للقلاع والمدن من أنطاكية حتى القدس، الموسوعة الشامية، ١٩٩٨م، ج ٣٤.

رابعاً- المراجع العربية:

١١٥- أباظة (فاروق عثمان):

- أثر تحول التجارة العالمية إلى رأس الرجاء الصالح على مصر وعالم البحر المتوسط أثناء القرن السادس عشر، دار المعارف، القاهرة، ط ٢.

١١٦- إبراهيم حسن (علي):

- تاريخ جوهر الصّقليّ قائد المعز لدين الله الفاطمي، مطبعة السعادة، القاهرة، ط٢، ١٩٦٣م.

١١٧- أبو حرب (محمد خير):

- المعجم المدرسي، إصدار وزارة التربية، ١٩٨٥م.

١١٨- أبو عليان (عزمي عبد محمد):

- مسيرة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين في عهد المماليك، دار النفائس، الأردن، ط١، ١٩٩٥م.

١١٩- أرسلان (شكيب):

- تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط، دار الكتب العلمية ، بيروت.

١٢٠- الأنطاكي (محمد):

- معركة عين جالوت ٦٥٨هـ/١٢٦٠م، دار الشرق العربي، بيروت.

١٢١- برجاوي (سعيد):

- الحروب الصليبية في المشرق، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط١، ١٩٨٤م.

١٢٢- بركات (وفيق):

- فن الحرب البحرية في التاريخ العربي الإسلامي، معهد التراث العلمي العربي، حلب، ١٩٩٥م.

١٢٣- البستاني (بطرس):

- دائرة المعارف، دار المعرفة، بيروت.
- محيط المحيط، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٨٣ م.

١٢٤- بندس أشيل اميليا:

- تاريخ قبرص ماذا أعرف، شركة أتنرسيس للنشر قبرص مكتبة ريمون الجديدة، لبنان.

١٢٥- بيطار (أمينة):

- تاريخ العصر العباسي، منشورات جامعة دمشق، دمشق، ط٤، ١٩٩٧م.

١٢٦- جاويش (سليمان بن خليل بن بطرس):

- التحفة السنية في تاريخ القسطنطينية، دار صادر، بيروت، ط١، ١٨٨٧م.

١٢٧- الجنزوري (علية عبد السميع):

- هجمات الروم البحرية على شواطئ مصر الإسلامية في العصور الوسطى، مكتبة الأنجلو المصرية، ط١، ١٩٨٥م.

١٢٨- الجوهري (يسرى):

- جغرافية البحر المتوسط، منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٨٤ م.

١٢٩- حجازي (حسين):

- الموانئ والمرافئ والمراسي القديمة في ساحل القطر العربي السوري، دار أماني، دمشق، ١٩٩٢ م.

١٣٠- الحجي (حياة ناصر):

- السلطة والمجتمع في سلطنة المماليك، لجنة التأليف والتعريب والنشر، الكويت، ط١، ١٩٩٧م.

١٣١- الحريري (سيد علي):

- الأخبار السنية في الحروب الصليبية، الزهراء للإعلام العربي، ط٣، ١٩٨٥م.

١٣٢- حسن (محمد إبراهيم):

- دراسات في تاريخ أوربا وحوض المتوسط ،مركز الإسكندرية للكتاب، الإسكندرية، ١٩٩٩ م.

١٣٣- حسين (حسن عبد الوهاب):

- تاريخ جماعة التيويون في الأراضي المقدسة حوالي ١١٩٠-١٢٩١م/ ٥٨٦-٦٩٠هـ، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٩م.

١٣٤- حسين (حمدي عبد المنعم محمد):

- دراسات في تاريخ الأيوبيين والمماليك ، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ٢٠٠٠م.

١٣٥- الحسين (قصي):

- في الحضارة العربية حتى العصرين المملوكي والعثماني،المؤسسة الحديثة للكتاب،طرابلس لبنان، ط ١، ٢٠٠٤ م.

١٣٦- حطيط (عدنان):

- قبرص ولعبة الأمم، بيروت، ٢٠٠٢م.

١٣٧- الحلبي (محمد راغب الطباخ):

- إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، صححه وعلق عليه: محمد كمال، دار القلم العربي، حلب، ط١، ١٩٢٣م.

١٣٨- حمادة (محمد ماهر):

- وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي، منشورات الرسالة، ط٢، ١٩٨٢م.

١٣٩- الحموي (محمد ياسين):

- تاريخ الأسطول العربي، مطبعة الترقي، دمشق، ١٩٤٥م.

١٤٠- حميدة (عبد الرحمن):

- أعلام الجغرافيين العرب ومقتطفات من آثارهم، دار الكتب، دمشق، ط١، ١٩٨٤م.

١٤١- الخادم (سمير علي):

- الشرق الإسلامي والغرب المسيحي عبر العلاقات بين المدن الإيطالية وشرقي البحر المتوسط ١٤٥٠-١٥١٧م، دار الرياحين، بيروت، ط١، ١٩٨٩م.

١٤٢- خانكي (جميل):

- تاريخ البحرية المصرية، مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٤٨م.

١٤٣- خربوطلي (شكران) زكار (سهيل):

- الحضارة العربية الإسلامية، منشورات جامعة دمشق، دمشق، ٢٠٠٦م.

١٤٤- الخضري (محمد):

- محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية الدولة العباسية، دار المعرفة، بيروت، ط٦، ٢٠٠١م.

١٤٥- الخطيب (محمد):

- تاريخ الحضارة، دار علاء الدين.

١٤٦- الخطيب (نسمة):

- بيروت التراث، شركة المطبوعات للنشر والتوزيع، بيروت،ط١، ١٩٩٣م.

١٤٧- داوود (أحمد):

- تاريخ سورية الحضاري، دار المشرق للطباعة والنشر، ٢٠٠٤م.

١٤٨- دراج (أحمد):

- المماليك والفرنج في القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٦١م.

١٤٩- رزق (علاء طه):

- دراسات من تاريخ عصر سلاطين المماليك، دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط١، ٢٠٠٨م.

١٥٠- رمضان (عبد العظيم):

- الصراع بين العرب وأوربا من ظهور الإسلام إلى انتهاء الحروب الصليبية، دار المعارف، مصر، ١٩٨٣م.

١٥١- الزركلي (خير الدين):

- الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت – لبنان، ط١٥، ٢٠٠٢م.

١٥٢- زكار (سهيل) وآخرون:

- حروب الفرنجة، جامعة دمشق، ٢٠٠٧م.

١٥٣- زكار (سهيل):

- الإعلام والتبيين في خروج الفرنج الملاعين على ديار المسلمين، مكتبة دار الملاح، دمشق، ١٩٨١م.

١٥٤- زكي (عبد الرحمن):

- السلاح في الإسلام، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥١ م.

١٥٥- زنتاني (عبد الوهاب محمد):

- قبرص من معاوية إلى أجاويد (٦٤٨م-١٩٧٤م)، دار غريب، القاهرة، ٢٠٠٢م.

١٥٦- زيادة (محمد مصطفى):

- المحاولات الحربية للاستيلاء على جزيرة رودس، مجلة الجيش المصري، ١٩٤٦م.

١٥٧- زيادة (نقولا):

- رواد الشرق العربي في العصور الوسطى، بيروت، ١٩٤٣م.

١٥٨- زيتون (عادل):

- العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، دار دمشق للطباعة والنشر، القاهرة، ط١، ١٩٨٠م.
- تاريخ المماليك، جامعة دمشق، ٢٠٠٢.

١٥٩- زيدان (جرجي):

- تاريخ التمدن الإسلامي، راجعه وعلق عليه: حسين مؤنس، دار الهلال.

١٦٠- الزين (أحمد عارف):

- تاريخ صيدا، مطبعة العرفان، صيدا، ١٣٣١هـ.

١٦١- سالم (عبد العزيز) سالم (سحر عبد العزيز): دراسة في تاريخ الأيوبيين والمماليك، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٩٧م.

١٦٢- سالم (عبد العزيز) والعبادي (أحمد مختار):

- تاريخ البحرية الإسلامية في مصر وبلاد الشام، مؤسسة شباب الجامعة، بيروت، ١٩٩٣م.

١٦٣- سالم (عبد العزيز):

- تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي حتى الفتح العثماني، دار المعارف، مصر، ط١، ١٩٦١م.
- تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي، دار المعارف، مصر، ط ١، ١٩٦١م.
- تاريخ مدينة صيدا في العصر الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة للنشر، الإسكندرية، ١٩٨٦م.
- طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية.

١٦٤- سرهنك باشا (إسماعيل):

- حقائق الأخبار عن دول البحار، مكتبة الاعتماد، مصر، ١٩٨٦م.

١٦٥- سرور (محمد جمال الدين):

- دولة بني قلاوون في مصر الحالة السياسية والاقتصادية في عهدها بوجه خاص، دار الفكر العربي.

١٦٦- سعيد (**إبراهيم حسن**):

- البحرية في عصر سلاطين المماليك ، دار المعارف، الإسكندرية، ١٩٨٣م.

١٦٧- سليم (**محمود رزق**):

- عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي، مطبعة المتوكل، مصر، ١٩٤٧م.

١٦٨- سيد صبره (**عفاف**):

- العلاقات بين الشرق والغرب (علاقات البندقية بمصر والشام في الفترة ١١٠٠-١٤٠٠م)، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٨٣م.

١٦٩- الشاعر (**محمد فتحي**):

- مصر قاهرة المغول في عين جالوت، دار المعارف، ١٩٩٥م.

١٧٠- شاكر (**محمود**):

- المسلمون في قبرص، منشورات العصر الحديث، ١٩٧٤م.

١٧١- شبارو (**عصام**):

- تاريخ المشرق العربي الإسلامي، دار الفكر اللبناني، بيروت، ط١، ١٩٩٩م.

١٧٢- شلبي (**محمود**):

- حياة الملك المظفر قطز قاهر التتار وبطل معركة عين جالوت، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٩٩٢م.

١٧٣- شلش (**علي**):

- البحر المتوسط، دار المفارق، مصر، ١٨٦٣م.

١٧٤- الشيال (**جمال الدين**):

- تاريخ مدينة الإسكندرية في العصر الإسلامي، دار المعارف، القاهرة.
- دراسات في التاريخ الإسلامي، مكتبة الثقافة الدينية، الإسكندرية، ط١، ٢٠٠٠م.
- مجمل تاريخ دمياط سياسياً واقتصادياً، مطبعة دون بوسكو، الإسكندرية، ١٩٤٩م.

١٧٥- شيبوب (**صديق**):

- معارك الإسكندرية، الوكالة العربية للدعاية والنشر، الإسكندرية، ط١.

١٧٦- طرخان (إبراهيم علي):

- مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة، القاهرة، ١٩٥٩ م.

١٧٧- طرسون (عمر):

- الجيش المصري البري والبحري في عصر محمد علي، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط٢، ١٩٩٦م.
- تاريخ خليج الإسكندرية وترعة المحمودية، مطبعة العدل، الإسكندرية، ١٩٤٢م.

١٧٨- طقوش (محمد سهيل):

- تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، دار النفائس، بيروت، ط ١، ١٩٩٧ م.

١٧٩- عاشور (سعيد عبد الفتاح):

- العصر المماليكي في مصر والشام، دار النهضة العربية، القاهرة، ط ٢، ١٩٧٦م.
- المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، دار النهضة العربية، القاهرة، ط٢، ١٩٩٢م.
- أوروبا العصور الوسطى (التاريخ السياسي)، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٥م، ط٨.
- قبرس والحروب الصليبية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٢م.
- مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٢م.
- الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٩٦م
- أضواء جديدة على الحروب الصليبية، دار القلم، القاهرة ، ١٩٦٤م.
- الحركة الصليبية صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد في العصور الوسطى، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط١، ١٩٦٣م.
- مصر في عصر دولة المماليك البحرية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٥٩م.

١٨٠- عبادة (عبد الفتاح):

- سفن الأسطول الإسلامي وأنواعها ومعداتها في الإسلام، مطبعة الهلال، مصر، ١٩١٣م.

١٨١- العبادي (أحمد مختار):

- دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية.
- في التاريخ العباسي والفاطمي، دار النهضة، بيروت.
- في تاريخ الأيوبيين والمماليك، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٩٥م.
- قيام دولة المماليك الأولى في مصر وبلاد الشام، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٦م.

١٨٢- العبار (**أحمد عبد اللطيف**):

- مشكلة قبرص بين الماضي والحاضر وأثرها على الموقف الدولي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط٢، ١٩٥٦م.

١٨٣- عبد السيد (**حكيم أمين**):

- قيام دولة المماليك الثانية، تقديم: محمد مصطفى زيادة، دار القومية، القاهرة، ١٩٦٦م.

١٨٤- عبد العليم (**أنور**):

- الملاحة وعلوم البحار عند العرب، عالم المعرفة، الكويت، ١٩٧٩م.

١٨٥- عبد الله (**يسري عبد الغني**):

- معجم المؤرخين المسلمين حتى القرن الثاني عشر الهجري، دار الكتب العلمية، بيروت— لبنان، ط١، ١٩٩١م.

١٨٦- عتمان (**أحمد**):

- تاريخ قبرص جزيرة الجمال والألم منذ القدم و إلى اليوم، دار الكتب، القاهرة، ١٩٩٧م.

١٨٧- عثمان (**هاشم**):

- تاريخ اللاذقية، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٩٦م.

١٨٨- عدوان (**أحمد محمد**):

- العسكرية الإسلامية في العصر المملوكي، عالم الكتب، الرياض، ١٩٨٥م.

١٨٩- العدوي (**إبراهيم**):

- الأساطيل العربية في البحر المتوسط، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، ١٩٥٧م.

١٩٠- العريني (**السيد الباز**):

- المماليك، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٦٧م.
- الأيوبيون، دار النهضة العربية، بيروت.
- المغول، دار النهضة، بيروت، ١٩٨١م.

١٩١- عز الدين (محمد كمال الدين):

- المقريزي مؤرخاً، عالم الكتب، ١٩٩٠م.

١٩٢- العش (يوسف):

- تاريخ عصر الخلافة العباسية، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٩٨٢م.

١٩٣- عطية (حسن):

- إمارة انطاكية الصليبية والمسلمون، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، ط١، ١٩٨٩م.

١٩٤- علي (زكي):

- الإسكندرية في عهد البطالمة والرومان، دار المستقبل.

١٩٥- عنان (محمد عبد الله):

- مؤرخو مصر الإسلامية ومصادر التاريخ المصري، مطبعة لجنة التأليف والنشر، القاهرة، ١٩٦٩م.
- مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط١، ١٩٣١م.

١٩٦- عوض (محمد مؤنس أحمد):

- الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب في القرنين ١٢-١٣م/ ٦-٧هـ، دار روتابرينت، ١٩٩٩م.

١٩٧- العيسى (سالم سليمان):

- المعجم المختصر للوقائع التاريخية العسكرية — الاجتماعية — الدينية — من بدء الهجرة حتى عام ١٩٥٠ ميلادية، دار النمير، سورية، ط ١، ١٩٩٨م.

١٩٨- غزالة بك (حبيب):

- جزيرة رودس جغرافيتها وتاريخها وآثارها، مطبعة الاعتماد، مصر، ١٩٢٩ م.

١٩٩- فرح (نعيم):

- الحضارة الأوروبية في العصور الوسطى، منشورات جامعة دمشق، ١٩٩٩-٢٠٠٠م.
- تاريخ بيزنطة السياسي ، مديرية الكتب الجامعية، دمشق، ط ٤، ٢٠٠٤م.

٢٠٠- قاسم (قاسم عبده):

- عصر سلاطين المماليك التاريخ السياسي والاجتماعي، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط١، ١٩٩٨م.
- السلطان المظفر سيف الدين قطز بطل معركة عين جالوت، دار القلم، دمشق، ط١، ١٩٩٨م.

٢٠١- كاشف (سيدة إسماعيل):

- مصر في عهد الإخشيديين، مطبعة جامعة الفؤاد الأولى، القاهرة، ١٩٥٠م.

٢٠٢- كحالة (عمر رضا):

- معجم المؤلفين تراجم مصنفي الكتب العربية، مؤسسة الرسالة، دمشق، ١٩٥٧م.

٢٠٣- مؤنس (حسين):

- أطلس تاريخ الإسلام، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، ط١، ١٩٨٧م.

٢٠٤- ماجد (عبد المنعم):

- تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٨م.

٢٠٥- الماضي (مروان):

- قصة مدينة عكا، المنظمة العربية والثقافة، مصر.

٢٠٦- ماهر (سعاد):

- البحرية في مصر الإسلامية وآثارها الباقية، دار الكتاب العربي، الجيزة، ١٩٦٧م.

٢٠٧- مبارك (علي باشا):

- الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة، بولاق، ط٢، ١٣٠٥هـ.

- الخطط التوفيقية لمدينة الإسكندرية، مطبعة بولاق، مصر، ١٨٨٩م.

٢٠٨- محمد علي (وفاء):

- جهود المماليك الحربية ضد الصليبية والمغول، القاهرة، ط١، ١٩٨٥م.

٢٠٩- محمد مختار (اللواء):

- كتاب التوفيقات الإلهامية في مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الإفرنجية والقبطية، المطبعة الأميرية، بولاق، ط١، ١٣١١هـ.

٢١٠- محمود (حسن أحمد):

- حضارة مصر الإسلامية في العصر الطولوني، دار الفكر العربي، القاهرة.

٢١١- مصطفى (شاكر):

- التاريخ العربي والمؤرخون، دار العلم للملايين، بيروت، ط١، ١٩٧٨م.

٢١٢- مصطفى (ناديه محمود):

- العصر المملوكي من تصفية الوجود الصليبي إلى بداية الهجمة الأوروبية الثانية، المعهد العالي الإسلامي، القاهرة، ط١، ١٩٩٦م.

٢١٣- مصطفى أبو لقمة (الهادي) والأعور (محمد علي):

- الجغرافية البحرية، دار الجماهيرية، الجماهيرية العربية الليبية، ط٢، ١٩٩٩م.

٢١٤- المطوي (محمد العروسي):

- الحروب الصليبية، دار الغرب الإسلامي، تونس.

٢١٥- النخيلي (درويش):

- السفن الإسلامية على حروف المعجم، دار المعارف مصر، ١٩٧٨م.

٢١٦- ندا (صبحي):

- قبرص البحرية الإسلامية، دار البشير للثقافة والعلوم، طنطا، ١٩٩٩م.

٢١٧- نسيم (جوزيف):

- دراسات في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٨٣م.

٢١٨- نعينع (سهير محمد إبراهيم):

- الحروب الصليبية المتأخرة حملة بطرس الأول لوزسنيان الصليبية على الإسكندرية ٧٦٧هـــ /١٣٦٥م، عين الدراسات الإنسانية والاجتماعية، الهرم، ط١، ٢٠٠٢م.

٢١٩- النهار (عمار محمد):

- العصر المفترى عليه عصر المماليك البحرية، دار النهضة، دمشق، ط١، ٢٠٠٧م.
- شمس الحضارة العربية الإسلامية، دار أفنان، دمشق، ط١، ٢٠٠٨م.

٢٢٠- هندي (إحسان):

- الحياة العسكرية، عند العرب أو الجيش العربي في ألف عام ٥٠٠-١٥٠٠م، مطبعة الجمهورية، دمشق، ١٩٦٤م.

٢٢١- واصف بك (محمد أمين):

- الفهرست معجم الخريطة التاريخية للمالك الإسلامية، تحقيق: أحمد زكي باشا، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، ١٩١٦م.

٢٢٢- يحيى (جلال) مهنا (محمد نصر):

- مشكلة قبرص، دار المعارف، الإسكندرية، ١٩٨١م.

٢٢٣- يحيى (لطفي عبد الوهاب):

- مقدمة لحضارة الإسكندرية — دراسة في حضارة البحر الأبيض، مطبعة دار نشر الثقافة، ١٩٥٨م.

٢٢٤- اليوسف (مسلم):

- الجهاد البحري أهميته وفضله وبعض مميزاته.

٢٢٥- يوسف (نقولا):

- تاريخ دمياط، الاتحاد القوي، دمياط.

خامساً- المراجع الأجنبية المعربة:

٢٢٦- أ بوسيف، أ. يفيموف:

- المنجد في الكيمياء، ترجمة: عيسى مسوح، دار موسكو، ١٩٨٧م.

٢٢٧- متز (آدم):

- الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة عبد الهادي أبو ريدة، بيروت، ١٩٦٧م .

٢٢٨- إديوري (بيترو):

- قبرص والحروب الصليبية، دار الملتقى للطباعة والنشر، قبرص- ليماسول، ط١، ١٩٩٧م.

٢٢٩- باركر (ارنست):

- الحروب الصليبية، تر:السيد الباز العريني، دار النهضة العربية، بيروت، ط٢، ١٩٦٧م.

٢٣٠- براود (يوشع) :

- عالم الصليبين، ترجمة: قاسم عبده قاسم ومحمد خليفة حسن، عين الدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، الهرم، ط١، ١٩٩٩م .

٢٣١- حتي (فيليب):

- تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ترجمة: كمال اليازجي، مراجعة وتحرير: جبرائيل جبور، دار الثقافة، بيروت .

٢٣٢- د.ق سبيريداكس:

- موجز تاريخ قبرص، ترجمة: يعقوب الكليمي، نشره مكتب الإعلانات العامة، قبرص، مطبعة الجارة، الإسكندرية، ١٩٧١م .

٢٣٣- ديورانت (ول):

- قصة الحضارة، ترجمة: زكي محمود، الإدارة الثقافية .

٢٣٤- رنسيمان (ستيفن) :

- تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة: الباز العريني، دار الثقافة، بيروت، ١٩٩٧م.

٢٣٥- زابوروف (ميخائيل):

- الصليبيون في الشرق، ترجمة: الياس شاهين، دار التقدم، موسكو، ١٩٨٦م.

٢٣٦- سميث (جوناثان رايلي):

- الإسبتارية فرسان القديس يوحنا في بيت المقدس وقبرص، ترجمة: العميد صبحي الجابي، مركز الدراسات العسكرية، ١٩٨٤م.

٢٣٧- عطية (عزيز سوريال):

- الحروب الصليبية وتأثيرها على العلاقات بين الشرق والغرب، ترجمة: فيليب صابر سيف، دار الثقافة، القاهرة، ط٢ .

- العلاقات بين الشرق والغرب تجارية- ثقافية- صليبية، ترجمة: فيليب صابر سيف، دار الثقافة المسيحية، القاهرة ط١، ١٩٧٢.

٢٣٨- علماء الحملة الفرنسية:

- وصف مصر (دراسات عن المدن والأقاليم المصرية)، ترجمة: زهير الشايب، مكتبة الخانجي، مصر، ط١، ١٩٧٨م.

٢٣٩- فشر(هـ.أ.ل):

- تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ترجمة: مصطفى زيادة والسيد الباز العريني، دار المعارف، مصر، ١٩٧٦م.

٢٤٠- فورستر (أ.م) :

- الإسكندرية تاريخ ودليل، ترجمة: حسن بيومي، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، ٢٠٠٠م.

٢٤١- الفيتري (يعقوب):

- تاريخ بيت المقدس، ترجمة: سعيد البيشاوي، دار الشروق، ١٩٩٨م.

٢٤٢- كولتون (ج-ج) :

- عالم العصور الوسطى في النظم والحضارة، ترجمة: جوزيف نسيم يوسف، دار المعارف، مطبعة رويال، الإسكندرية، ط٤، ١٩٨٣م .

٢٤٣- لابدوس (إيرا):

- مدن إسلامية في عهد المماليك، ترجمة: علي ماضي، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٧م .

٢٤٤- لوبير (جراتيان):

- مدينة الإسكندرية، ترجمة: زهير الشايب، ١٩٩١م.

٢٤٥- موير (السير وليم):

- تاريخ دولة المماليك في مصر، ترجمة: محمود عابدين وسليم حسن، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط١، ١٩٩٥م .

٢٤٦- هايد (ف):

- تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، ترجمة: أحمد محمد رضا، مراجعة وتقديم: عز الدين موده، الهيئة العامة للكتاب، مصر، ١٩٨٥م .